المجلد الثالث

من

تيسير الرحمٰن

في

تفسير القرآن

لجامعه الفقير إلى اللّه

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

وصلى الله على نبينا محمد

وآله وصحبه أجمعين

وسلم تسليماً كثيراً

إلى يوم الدين

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑤ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ⑦﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبيناً له عظمة القران: ﴿كتابٌ أنزلَ إليك﴾؛ أي: كتابٌ جليلٌ حوى كلَّ ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلٰهيَّة والمقاصد الشرعيَّة محكماً مفصلاً. فلا يكنْ في صدرِكَ منه ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيقٌ وشكٌّ واشتباهٌ، بل لتعلمْ أنه تنزيلٌ من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1]، فلينشرِحْ له صدرُك، ولتطمئنَّ به نفسُك، ولْتصدعْ بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ومعارضاً؛ ﴿لتنذرَ به﴾: الخلق وتَعِظهم وتذكِّرهم فتقوم الحجة على المعاندين، ﴿و﴾ ليكنْ[2] ﴿ذكرى للمؤمنينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وذكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تنفعُ المؤمنينَ﴾: يتذكَّرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

﴿٣﴾ ثم خاطب اللّه العباد، ولفتهم[3] إلى الكتاب، فقال: ﴿اتَّبِعوا ما أنزِلَ إليكم من ربِّكم﴾؛ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربِّكم﴾، الذي يريد أن يُتِمَّ تربيتَه لكم، فأنزل عليكم هٰذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملتْ

---

(١) في (ب): «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأنه أصدق الكلام».

(٢) في (ب): «وليكونَ».

(٣) في (ب): «وألفتهم».

تربيتُكم وتمَّتْ عليكم النعمةُ وهُديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها، ﴿ولا تتَّبِعوا من دونِهِ أولياءَ﴾؛ أي: تتولَّونهم، وتتَّبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحقَّ، ﴿قليلاً ما تَذَكَّرونَ﴾: فلو تذكَّرتم وعرفتم المصلحة؛ لما آثرتُم الضارَّ على النافع والعدوَّ على الولي.

﴿٤﴾ ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم فلا يشابهوهم، فقال: ﴿وكم من قريةٍ أهلكْناها فجاءها بأسُنا﴾؛ أي: عذابُنا الشديد، ﴿بياتاً أو هم قائلونَ﴾؛ أي: في حين غفلتهم وعلى غِرَّتهم غافلون، لم يخطر الهلاكُ على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب؛ لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فما كان دَعْواهم إذ جاءَهُم بأسُنا إلَّا أن قالوا إنا كنَّا ظالمينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وكم قَصَمْنا من قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدَها قوماً آخرينَ. فلما أحسُّوا بأسَنا إذا هُم منها يركُضونَ. لا تركُضوا وارجِعوا إلى ما أُترِفْتُم فيه ومساكِنِكُم لعلَّكم تُسْألونَ. قالوا يا وَيْلنا إنَّا كنَّا ظالمينَ. فما زالتْ تلك دعواهُم حتَّى جَعَلْناهم حصيداً خامدينَ﴾.

﴿٦﴾ وقوله: ﴿فَلَنَسأَلَنَّ الذين أرسِل إليهم﴾؛ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا [به] رسلهم، ﴿وَيَوْمَ يُناديهم فَيَقولُ ماذا أجبتُمُ المرسلينَ...﴾ الآيات، ﴿وَلَنَسألَنَّ المرسلينَ﴾: عن تبليغهم لرسالات ربِّهم وعما أجابتهم به أممهم.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عليهم﴾؛ أي: على الخلق كلهم ما عملوا، ﴿بعلم﴾: منه تعالى لأعمالهم، ﴿وما كُنا غائبينَ﴾: في وقت من الأوقات؛ كما قال تعالى: ﴿أحصاه اللّه وَنَسُوه﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد خَلَقْنا فوقَكم سبعَ طرائقَ وما كُنَّا عن الخلق غافلين﴾.

ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جَوْر فيه ولا ظلم بوجه. ﴿فمن ثَقُلَتْ موازينُه﴾: بأن رَجَحَتْ كفةُ حسناته على سيئاته، ﴿فأولئك هم

المفلحونَ﴾؛ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة.

﴿٩﴾ ﴿ومن خفَّتْ موازينُه﴾: بأن رجحتْ سيئاتُه وصار الحكم لها، ﴿فأولٰئك الذين خسروا أنفسهم﴾: إذ فاتهم النعيمُ المقيمُ وحصل لهم العذابُ الأليم، ﴿بما كانوا بآياتِنا يَظْلِمونَ﴾: فلم ينقادوا لها كما يجبُ عليهم ذٰلك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى ممتنًّا على عباده بذكر المسكن والمعيشة: ﴿ولقد مكَّنّاكم في الأرض﴾؛ أي: هيأناها لكم بحيث تتمكَّنون من البناء عليها وحرثها ووجوه الانتفاع بها، ﴿وجَعَلْنا لكم فيها معايشَ﴾: مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات؛ فإنه هو الذي هيَّأها وسخَّر أسبابها، ﴿قليلاً ما تشكُرون﴾: اللّه الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصَرَفَ عنكم النقم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿ولقد خلَقْناكم﴾: بخلق أصلِكم ومادَّتكم التي منها خرجتُم؛ أبيكم آدم عليه السلام، ﴿ثم صوَّرْناكم﴾: في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلَّمه [اللهُ] تعالى ما به تكمُلُ صورتُه الباطنةُ؛ أسماءَ كل شيء، ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجُدوا لآدم إكراماً واحتراماً وإظهاراً لفضلِهِ، فامتثلوا أمر ربهم، ﴿فَسَجدوا﴾ كـلُّهم أجمعون ﴿إلا إبليس﴾: أبى أن يسجدَ له تكبُّراً عليه وإعجاباً بنفسه.

﴿١٢﴾ فوبَّخه اللّه على ذٰلك، وقال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ أي شرفته وفضلته بهٰذه الفضيلة التي لم تكن لغيرِهِ، فعصيتَ أمري وتهاونت بي. ﴿قال﴾ إبليسُ معارضاً لربِّه: ﴿أنا خيرٌ منه﴾، ثم برهن على هٰذه الدعوى الباطلة بقوله له: ﴿خلَقْتَني من نارٍ وخلقتَهُ من طينٍ﴾: وموجب هٰذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلوِّ النار على الطين وصعودها.

وهٰذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطلٌ من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النصَّ فإنه قياسٌ باطل؛ لأنَّ المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نصٌّ يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعاً لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص؛ فهٰذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أنَّ قولَه: ﴿أنا خيرٌ منه﴾؛ بمجرَّدها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنَّه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبُّره والقول على الله بلا علم، وأيُّ نقص أعظم من هٰذا؟!

ومنها: أنه كَذَبَ في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإنَّ مادة الطين فيها الخشوعُ والسكونُ والرزانةُ، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

﴿١٣﴾ ولهٰذا؛ لما جرى من إبليس ما جرى؛ انحطَّ من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: اهبطْ ﴿منها﴾ أي: من الجنة، ﴿فما يكونُ لك أن تتكبَّرَ فيها﴾: لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تَليقُ بأخبث خَلْق الله وأشرهم، ﴿فاخرُجْ إنَّك من الصاغرين﴾؛ أي: المهانين الأذلين؛ جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ فلما أعلن عدوُّ الله بعداوة الله وعداوة آدم وذريَّته؛ سأل الله النَّظِرة والإمهال إلى يوم البعث؛ ليتمكَّنَ من إغواءِ ما يقدِرُ عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضيةً لابتلاء العباد واختبارهم ليتبيَّنَ الصادق من الكاذب ومَن يطيعه ومن يطيع[1] عدوَّه؛ أجابه لما سأل، فقال: ﴿إنَّك من المُنظَرينَ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال إبليس لَمَّا أُبلِسَ وأَيِسَ من رحمة الله: ﴿فبما أغوَيْتَني لأقعدنَّ لهم﴾؛ أي: للخلق ﴿صراطك المستقيم﴾؛ أي: لألزمنَّ الصِّراط، ولأسعى غاية جهدي على صدِّ الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿١٧﴾ ﴿ثمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بينِ أيديهم ومن خلفِهم وعن أيمانِهم وعن شمائِلِهم﴾؛

---

(١) في (ب): «ومن يطيعه ممَّن يطيع عدوّه».

أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيثُ أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلةُ على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم؛ ظنَّ ـ وصدق ظنُّه ـ فقال: ﴿ولا تجدُ أكثرَهم شاكرينَ﴾: فإنَّ القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريدُ صدَّهم عنه وعدم قيامهم به؛ قال تعالى: ﴿إنَّما يَدْعو حِزْبَه ليكونوا من أصحابِ السَّعير﴾، وإنما نبَّهنا الله على ما قال، وعزم على فعله، لنأخذَ منه حِذْرَنا، ونستعدَّ لعدوِّنا، ونحترزَ منه بعلْمِنا بالطُرُق التي يأتي منها ومداخله التي ينفذ منها؛ فله تعالى علينا بذٰلك أكمل نعمة.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرُجْ منها﴾: خروج صَغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مذؤوماً﴾؛ أي: مذموماً، ﴿مدحوراً﴾: مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير. ﴿لأملأنَّ جهنَّم﴾: منك وممَّن تَبِعَكَ منهم ﴿أجمعين﴾: وهٰذا قَسَمٌ من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذَّر آدمَ شرَّه وفتنته فقال:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا؛ إلا أنه عيَّن لهما شجرةً ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدةٌ لنا، وحرَّم عليهما أكلها؛ بدليل قوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾.

﴿٢٠﴾ فلم يزالا ممتثلينِ لأمر الله حتى تغلغل إليهما عدوُّهما إبليس بمكره،

فوسوس لهما وسوسةً خدَعَهما بها وموَّه عليهما وقال: ﴿ما نهٰكُما ربُّكما عن هٰذه الشجرة إلَّا أن تكونا مَلَكَيْن﴾؛ أي: من جنس الملائكة، ﴿أو تكونا مِنَ الخالدينَ﴾: كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ وملكٍ لا يَبْلى﴾.

﴿٢١﴾ ومع قوله هٰذا أقسم لهما بالله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾؛ أي: من جملة الناصحين؛ حيث قلت لكما ما قلتُ.

﴿٢٢﴾ فاغترَّا بذٰلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل، ﴿فدلاَّهما﴾؛أي: أنزلهما عن رتبتهما العالية التي هي البعدُ عن الذنوب والمعاصي إلى التلوُّث بأوضارِها، فأقدما على أكلها، ﴿فلمَّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوآتُهما﴾؛ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورةً، فصار للعري الباطن من التقوى في هٰذه الحال أثرٌ في اللباس الظاهر حتى انخلع، فظهرت عوراتُهما، ولما ظهرت عوراتُهما؛ خَجِلا وجَعَلا يخصِفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة ليستترا بذلك، ﴿وناداهما ربهما﴾: وهما بتلك الحال ـ موبِّخاً ومعاتباً ـ: ﴿ألم أنْهَكُما عن تلكما الشجرةِ وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبينٌ﴾: فَلِمَ اقترفتُما المنهيَّ وأطعتما عدوَّكما؟!

﴿٢٣﴾ فحينئذٍ مَنَّ الله عليهما بالتوبة وقَبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرتَه، فقالا: ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا وإن لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لَنَكونَنَّ من الخاسرينَ﴾؛ أي: قد فعلنا الذنب الذي نبَّهتنا عنه وأضررنا بأنفسنا[1] باقتراف الذنب، وقد فعلنا سببَ الخسار إن لم تغفرْ لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته وترحَمْنا بقَبول التوبة والمعافاة من أمثال هٰذه الخطايا، فغفر الله لهما ذٰلك، وعصى آدمُ ربَّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهَدَى. هٰذا وإبليس مستمرٌّ على طغيانِهِ، غير مقلع من عصيانه؛ فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع إذا صدرت منه الذُّنوب؛ اجتباهُ ربُّه وهداه، ومن أشبهَ إبليس إذا صدر منه الذنبُ لا يزالُ يزدادُ من المعاصي؛ فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿[قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ][2] ﴿٢٤﴾ قَالَ

(١) في (ب): «نهيتنا عنه وضَرَّيْنا أنفسنا».

(٢) زيادة لا توجد في النسختين.

فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ أي: لما أهبط اللّه آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض؛ أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياةً، يتلوها الموتُ مشحونةً بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسِلُ إليهم رسلَه، ويُنْزِلُ عليهم كتبه، حتى يأتِيَهُمُ الموت فيدفَنون فيها، ثم إذا استكملوا بَعَثَهم اللّهُ، وأخرجهم منها إلى الدارِ التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

﴿٢٦﴾ ثم امتنَّ عليهم بما يسَّر لهم من اللباس الضروري واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكح، ونحوها قد يسر اللّه للعباد ضروريَّها ومكمِّلَ ذٰلك، وبيَّن لهم أن هٰذا ليس مقصوداً[1] بالذات، وإنَّما أنزله اللّه ليكون معونةً لهم على عبادته وطاعته، ولهٰذا قال: ﴿ولباسُ التَّقوى ذٰلك خيرٌ﴾: من اللباس الحسيِّ؛ فإن لباس التقوى يستمرُّ مع العبد ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهريُّ؛ فغايتُه أن يستُر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء ذٰلك منه نفع. وأيضاً؛ فبتقدير عدم هٰذا اللباس تنكشف عورتُه الظاهرةُ التي لا يضرُّه كشفُها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى؛ فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزيَ والفضيحة. وقوله: ﴿ذٰلك من آيات اللّه لعلَّهم يذَّكَّرونَ﴾؛ أي: ذٰلك المذكور لكم من اللباس مما تذكرون به ما ينفعُكم، ويضرُّكم، وتستعينون[2] باللباس الظاهر على الباطن.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يقول تعالى محذِّراً لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يا بني آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ﴾: بأن يزيِّن لكم العصيانَ ويدعوكم إليه ويرغِّبكم فيه فتنقادون له، ﴿كما أخرجَ أبوَيْكم من الجنة﴾: وأنزلهما من المحلِّ العالي إلى أنزل منه؛ فأنتم يريد أن يفعل بكم كذٰلك ولا يألو جهده عنكم حتى يفتِنَكم إن استطاع؛

(١) في (ب): «وأن هذا ليس مقصوداً». (٢) في (ب): «وتشبهون».

فعليكم أن تجعلوا الحَذَرَ منه في(١) بالكم، وأن تَلْبَسوا لامةَ الحرب بينَكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم. فإنَّه يراقِبُكم على الدوام، و﴿يراكم هو وقَبيلُهُ﴾: من شياطين الجن ﴿من حيث لا تَرَوْنَهم إنا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يؤمنونَ﴾: فعدمُ الإيمان هو الموجبُ لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان. ﴿إنَّه ليسَ له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهِمْ يَتَوكَّلونَ. إنَّما سلطانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هم بِهِ مشركونَ﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيِّناً لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب وينسبون أن اللّهَ أمرهم بها: ﴿وإذا فعلوا فاحشةً﴾: وهي كل ما يُستفحش ويُستقبح، ومن ذٰلك طوافهم بالبيت عراة، ﴿قالوا وَجَدْنا عليها آباءَنا﴾: وصَدَقوا في هٰذا، ﴿واللّهُ أمَرَنا بها﴾: وكذبوا في هٰذا، ولهٰذا ردَّ اللّه عليهم هٰذه النسبة، فقال: ﴿قل إنَّ اللّه لا يأمرُ بالفحشاء﴾؛ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عبادَه بتعاطي الفواحش، لا هٰذا الذي يفعله المشركون ولا غيره، ﴿أتقولونَ على اللّه ما لا تَعْلَمونَ﴾: وأيُّ افتراء أعظم من هٰذا؟

﴿٢٩﴾ ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قل أمَرَ ربِّي بالقِسْط﴾؛ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿وأقيموا وجوهَكم عند كلِّ مسجدٍ﴾؛ أي: توجَّهوا للّه، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً الصلاة، أقيموها ظاهراً وباطناً، ونقُّوها من كل مُنَقِّص ومفسد. ﴿وادعوه مخلصين له الدينَ﴾؛ أي: قاصدين بذٰلك وجهه وحدَه لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ أي: لا تريدون ولا تقصدون(٢) من الأغراض في دعائكم سوى عبودية اللّه ورضاه، ﴿كما بدأكم﴾: أول مرة ﴿تعودونَ﴾: للبعث؛ فالقادر على بدء خلقكم قادرٌ على إعادته، بل الإعادةُ أهون من البداءة.

---

(١) في (ب): «من».

(٢) في (ب): «لا تراؤوا ولا تقصدوا».

﴿٣٠﴾ ﴿فريقاً﴾: منكم، ﴿هَدَى﴾: اللّهُ؛ أي: وفَّقهم للهداية ويسَّر لهم أسبابها وصرف عنهم موانعها، ﴿وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة﴾؛ أي: وجبت عليهم الضَّلالة بما تسبَّبوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية. فإنَّهم ﴿اتَّخذوا الشياطينَ أولياء من دون اللّهِ﴾؛ ومن يتَّخذ الشيطان وليًّا من دون اللّه؛ فقد خسر خسراناً مُبِيناً؛ فحين انسلخوا من ولاية الرحمٰن واستحبوا ولاية الشيطان؛ حصل لهم النصيبُ الوافر من الخذلان، ووُكِلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. ﴿وهم يحسبونَ أنَّهم مهتدونَ﴾: لأنهم انقلبت عليهم الحقائقُ، فظنُّوا الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يُتَصَوَّر أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.

وفيه دليلٌ على أن الهداية بفضل اللّه ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى[1] ـ بجهله وظلمه ـ الشيطانَ، وتسبَّب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكِّن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى بعدما أنزل على بني آدم لباساً يواري سوآتهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خُذوا زينتكم عند كل مسجدٍ﴾؛ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلِّها فرضها ونفلها؛ فإن سترها زينة للبدن؛ كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً، ويحتمل أنَّ المراد بالزينة هنا ما فوق ذٰلك من اللباس النظيف الحسن. ففي هٰذا الأمر بستر العورة في الصلاة وباستعمال التجمل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾؛ أي: مما رزقكم اللّه من الطيبات، ﴿ولا تسرِفوا﴾: في ذٰلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات التي تضر[2] بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفُّه والتنوُّق في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام. ﴿إنَّه لا يحبُّ المسرفين﴾:

(١) في (ب): «إذا تولَّى».
(٢) في (ب): «الذي يضرّ».

فإن السرف يبغضه الله، ويضرُّ بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدَّت به الحالُ إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات. ففي هٰذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب والنهي عن تركهما وعن الإسراف فيهما.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى منكراً على من تعنَّت وحرَّم ما أحلَّ الله من الطيبات: ﴿قل مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التي أخرج لعباده﴾: من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه والطيبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه؛ أي: من هٰذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد؟ ومن ذا الذي يضيِّق عليهم ما وسعه الله؟ وهٰذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته فلم يُبِحْه إلا لعباده المؤمنين، ولهٰذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدُّنيا خالصةً يوم القيامة﴾؛ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل استعان بها على معاصيه؛ فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعُّم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة. ﴿كذٰلك نفصِّل الآيات﴾؛ أي: نوضحها ونبيِّنها، ﴿لقوم يعلمون﴾: لأنهم الذين ينتفعون بما فصَّله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر المحرمات التي حرَّمها الله في كلِّ شريعة من الشرائع، فقال: ﴿قلْ إنَّما حرَّم ربِّي الفواحش﴾؛ أي: الذنوب الكبار التي تُستفحش، وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذٰلك كالزِّنا واللواط ونحوهما. وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾؛ أي: الفواحش التي تتعلَّق بحركات البدن والتي تتعلَّق بحركات القلوب؛ كالكبر والعُجْب والرياء والنفاق ونحو ذٰلك، ﴿والإثم والبغي بغير الحقِّ﴾؛ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. فدخل في هٰذا الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد، ﴿وأن تشركِوا بالله ما لم ينزِّلْ به سلطاناً﴾؛ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يُشْرَكَ مع الله في عبادته أحدٌ من الخلق، وربما دخل في هٰذا الشرك الأصغر؛ كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذٰلك، ﴿وأن

تقولوا على الله ما لا تعلمونَ﴾: في أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وشرعِهِ؛ فكل هٰذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمًّى، لا تتقدَّم أمة من الأمم على وقتها المسمَّى ولا تتأخَّر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٥﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة؛ ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصُّون عليهم آيات الله ويبيِّنون لهم أحكامه. ثم ذكر فضلَ من استجاب لهم وخسارَ من لم يستجبْ لهم، فقال: ﴿فمنِ اتَّقى﴾: ما خرم الله من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿وأصلح﴾: أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾: من الشرِّ الذي قد يخافه غيرهم، ﴿ولا هم يحزنونَ﴾: على ما مضى. وإذا انتفى الخوفُ والحزنُ؛ حصل الأمنُ التامُّ والسعادة والفلاح الأبدي.

﴿٣٦﴾ ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾؛ أي: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾: كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها؛ أهينوا بالعذابِ الدائم الملازم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ [قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾][1].

---

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في «النسختين».

﴿٣٧﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممَّنِ افترى على الله كذباً﴾: بنسبة الشريك له والنقص له والتقوُّل[١] عليه ما لم يقل، ﴿أو كذَّب بآياته﴾: الواضحة المبينة للحقِّ المبين الهادية إلى الصراط المستقيم؛ فهٰؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذٰلك بمغنٍ عنهم شيئاً، يتمتَّعون قليلاً ثم يعذَّبون طويلاً. ﴿حتى إذا جاءتهم رسُلُنا يتوفَّونهم﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم، ﴿قالوا﴾: لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً: ﴿أين ما كنتم تَدْعون من دونِ اللّه﴾: من الأصنام والأوثان؛ فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعةٌ لكم أو دفع مضرة، ﴿قالوا ضَلُّوا عنا﴾؛ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنَّا من عذاب اللّه من شيء، ﴿وشهدوا على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين﴾: مستحقين للعذاب المهين الدائم.

﴿٣٨ ـ ٣٩﴾ فقالت لهم الملائكة: ﴿ادخُلوا في أمم﴾؛ أي: في جملة أمم ﴿قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس﴾؛ أي: مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميعُ الخزيَ والبوارَ. ﴿كلَّما دخلتْ أمةٌ﴾: من الأمم العاتية النار، ﴿لعنتْ أختَها﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ويومَ القيامةِ يكفُرُ بعضُكم ببعضٍ ويلعنُ بعضكم بعضاً﴾، ﴿حتَّى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً﴾؛ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلِّدين الأتباع، ﴿قالت أخراهم﴾؛ أي: متأخروهم المتبعون للرؤساء، ﴿لأولاهم﴾: أي: لرؤسائهم شاكين إلى اللّه إضلالهم إياهم: ﴿ربَّنا هٰؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾؛ أي: عذِّبهم عذاباً مضاعفاً لأنَّهم أضلُّونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

فقالت ﴿أولاهم لأخراهم﴾؛ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾؛ أي: قد اشتركنا جميعاً في الغيِّ والضلال، وفي فعلِ أسباب العذاب؛ فأيُّ فضلٍ لكم علينا؟ ﴿قال﴾ اللّه: ﴿لكلٍّ﴾ منكم ﴿ضعفٌ﴾: ونصيب من العذاب، ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسِبونَ﴾: ولٰكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغُ وأشنعُ من عذاب الأتباع؛ كما أنَّ نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع؛ قال تعالى: ﴿الذين كَفَروا وصدُّوا عن سبيل اللّهِ زِدْناهم عذاباً فوق العذابِ بما كانوا يُفسِدون﴾. فهٰذه الآيات ونحوها دلَّت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات اللّه مخلَّدون في العذاب مشتركون فيه وفي أصله، وإن

---

(١) في (ب): «أو التقوّل».

كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم وأن مودتهم التي كانت بينَهم في الدُّنيا تنقلب يوم القيامة عداوةً وملاعنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذَّب بآياته فلم يؤمنْ بها مع أنها آيات بيناتٌ واستكبر عنها فلم ينقدْ لأحكامها بل كذَّب، وتولى أنهم آيسون من كلِّ خير؛ فلا تفتَّحُ أبوابُ السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وصعدت تريد العروجَ إلى اللّه، فتستأذنُ، فلا يؤذَنُ لها؛ كما لم تصعدْ في الدنيا إلى الإيمان باللّه ومعرفته ومحبته، كذٰلك لا تصعد بعد الموت؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أنَّ أرواح المؤمنين المنقادين لأمرِ اللّه المصدِّقين بآياته تفتَّح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى اللّه، وتصل إلى حيث أراد اللّه من العالم العلويِّ، وتبتهجَ بالقرب من ربِّها والحظْوةِ برضوانه. وقوله عن أهل النار: ﴿ولا يدخُلون الجنَّة حتى يلجَ الجملُ﴾: وهو البعير المعروف ﴿في سَمِّ الخِياطِ﴾؛ أي: حتى يدخُلَ البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء. وهٰذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما أنه محالٌ دخول الجمل في سَمِّ الخياطِ؛ فكذٰلك المكذِّبون بآيات اللّه محالٌ دخولهم الجنة؛ قال تعالى: ﴿إنَّه من يُشرِكْ باللّه فقد حرَّم اللّهُ عليه الجنةَ ومأواه النارُ﴾؛ وقال هنا: ﴿وكذٰلك نَجزي المجرمينَ﴾؛ أي: الذين كثُرَ إجرامُهم، واشتدَّ طغيانُهم.

﴿٤١﴾ ﴿لهم من جهنَّمَ مِهادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم، ﴿ومن فوقِهِم غَواشٍ﴾؛ أي: ظلل من العذاب تغشاهم، ﴿وكذٰلك نَجزي الظالمين﴾: لأنفسهم جزاءً وفاقاً، وما ربُّك بظلام للعبيد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين؛ ذَكَرَ ثواب المطيعين، فقال: ﴿والذين آمنوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم؛ فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعَمِلوا الصالحاتِ﴾ لفظاً عامًّا يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد؛ قال تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نفساً إلَّا وُسْعَها﴾؛ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها؛ فعليها في هٰذه الحال أن تتقي اللّه بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها؛ سقطت عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نفساً إلَّا وُسْعَها﴾، ﴿لا يُكَلِّفُ اللّه نفساً إلَّا ما آتاها﴾، ﴿ما جَعَلَ عليكم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿فاتَّقوا اللّه ما استطعتُم﴾؛ فلا واجب مع العجز، ولا محرَّم مع الضرورة. ﴿أولئك﴾؛ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح، ﴿أصحابُ الجنة هم فيها خالدون﴾؛ أي: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً؛ لأنهم يَرَوْن فيها من أنواع اللَّذَّات وأصناف المشتهيات ما تقفُ عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿٤٣﴾ ﴿ونزعنا ما في صُدورهم من غِلٍّ﴾: وهٰذا من كرمه وإحسانِهِ على أهل الجنة؛ أنَّ الغلَّ الذي كان موجوداً في قلوبهم والتنافس الذي بينهم أن اللّه يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابِّين وأخلَّاء متصافين؛ قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلينَ﴾، ويخلُقُ اللّه لهم من الكرامة ما به يحصُلُ لكلِّ واحد منهم الغِبْطَةَ والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيمٌ؛ فبهٰذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. [و]قوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾؛ أي: يفجِّرونها تفجيراً حيث شاؤوا وأين أرادوا، إن شاؤوا في خلال القصور أو في تلك الغرف العاليات أو في رياض الجنات من تحت تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخدود، وخيراتٌ ليس لها حدٌّ محدودٌ. ﴿و﴾ لهٰذا لما رأوا ما أنعم اللّه عليهم وأكرمهم به؛ ﴿قالوا الحمدُ للّه الذي هدانا لهٰذا﴾: بأن منَّ علينا وأوحى إلى قلوبنا فآمنت به وانقادتْ للأعمال الموصلةِ إلى هٰذه الدار، وحفظ اللّه علينا إيماننا وأعمالَنا حتى أوصَلَنا بها إلى هٰذه الدار، فنعم الربُّ الكريم الذي ابتدأنا بالنعم، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون ولا يعدُّه العادُّون. ﴿وما كنَّا لنهتديَ لولا أن هدانا اللّه﴾؛ أي: ليس في نفوسنا قابليةٌ للهدى، لولا أنَّه تعالى منَّ بهدايته واتِّباع رسله، ﴿لقد

جاءت رسُلُ ربِّنا بالحق﴾؛ أي: حين كانوا يتمتَّعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل وصار حقَّ يقينٍ لهم بعد أن كان علم يقينٍ لهم قالوا: لقد تحقَّقنا ورأينا ما وعدتنا به الرسلُ وأنَّ جميع ما جاؤوا به حقُّ اليقين لامِرْيَةَ فيه ولا إشكال. ﴿ونودوا﴾: تهنئةً لهم وإكراماً وتحيةً واحتراماً ﴿أن تِلْكُمُ الجنة أورثتموها﴾؛ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بما كنتم تعملونَ﴾: قال بعضُ السلف: أهل الجنة نَجَوْا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل، وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤ ـ ٤٥﴾ يقول تعالى بعد ما ذكر استقرار كلٍّ من الفريقين في الدارين ووجدا[1] ما أخبرت به الرُّسل ونطقتْ به الكتبُ من الثواب والعقاب: إن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وَجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقًّا﴾: حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا، ﴿فهل وجدتُم ما وعدكم ربكم﴾: على الكفر والمعاصي ﴿حقًّا قالوا نعم﴾: قد وجدناه حقًّا، فتبين للخلق كلِّهم بياناً لا شكَّ فيه صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حقَّ اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فأذَّن مؤذنٌ بينهم﴾؛ أي: بين أهل النار وأهل الجنة بأن قال: ﴿أن لعنةُ الله﴾؛ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾: إذ فتح الله لهم أبوابَ رحمتِهِ، فصدَفوا أنفسهم عنها ظلماً وصدُّوا عن سبيل الله بأنفسهم وصدُّوا غيرهم فضلُّوا وأضلُّوا. والله تعالى يريد أن تكون مستقيمةً ويعتدل سير السالكين إليه، وهٰؤلاء يريدونها ﴿عِوَجاً﴾: منحرفةً صادةً عن سواء السبيل. ﴿وهم بالآخرة كافرونَ﴾: وهٰذا الذي أوجب لهم الانحرافَ عن الصراط والإقبالَ على شهوات النفوس المحرَّمة عدمُ إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب.

(١) في (ب): «ووجدوا».

ومفهوم هٰذا [النداء] أن رحمة الله على المؤمنين، وبرّه شاملٌ لهم، وإحسانه متواترٌ عليهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجابٌ يُقال له: الأعراف، لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظُر من عليه حال الفريقين، وعلى هٰذا الحجاب رجالٌ يعرفونَ كلًّا من أهل الجنة والنار بسيماهم؛ أي: علاماتهم التي بها يُعْرَفون ويُمَيَّزون؛ فإذا نظروا إلى أهل الجنة؛ نادَوْهم: ﴿أن سلامٌ عليكم﴾؛ أي: يحيُّونهم ويسلِّمون عليهم، وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يُريد بهم من كرامته.

﴿٤٧﴾ ﴿وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلْقاءَ أصحابِ النَّارِ﴾: ورأوا منظراً شنيعاً وهولاً فظيعاً، ﴿قالوا ربَّنا لا تَجْعَلْنا مع القوم الظالمين﴾: فأهل الجنة إذا رآهم أهلُ الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ويحيُّونهم ويسلِّمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار يستجيرون [بالله] من حالهم هٰذا على وجه العموم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر الخصوص بعد العموم، فقال: ﴿ونادى أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهُم﴾: وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرفٌ وأموالٌ وأولادٌ، فقال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب بلا ناصرٍ ولا مغيث: ﴿ما أغنى عنكُم جمعُكم﴾: في الدُّنيا الذي تستدفِعون به المكاره، وتوسلون به إلى مطالبكم في الدُّنيا؛ فاليوم اضمحل ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذٰلك أيُّ شيءٍ نفعكم استكباركم على الحقِّ وعلى ما جاء به وعلى مَن اتبعه؟!

﴿٤٩﴾ ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزىء بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أهٰؤلاء﴾: الذين أدخلهم الله الجنة، ﴿الذين أقسمتُم لا ينالُهم الله برحمةٍ﴾: احتقاراً لهم وازدراءً وإعجاباً بأنفسكم، قد

حنثتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿ادخلوا الجنة﴾: بما كنتم تعملونَ؛ أي: قيل لهٰؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لا خوفٌ عليكم﴾: فيما يُستقبل من المكاره، ﴿ولا أنتم تحزنونَ﴾: على ما مضى، بل آمنون مطمئنُّون فرحون بكل خير. وهٰذا كقولِهِ تعالى: ﴿إنَّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكونَ. وإذا مَرُّوا بهم يتغامَزون...﴾ إلى أن قال: ﴿فاليومَ الذين آمنوا مِنَ الكُفَّارِ يضحكون. على الأرائكِ ينظُرونَ﴾.

واختلف أهل العلم والمفسِّرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم، والصحيح من ذٰلك أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فلا رجحتْ سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخِلُهم برحمته الجنة؛ فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كلَّ شيءٍ.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ
جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي
تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ
نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٠ ـ ٥٢﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يبلغُ منهم العذابُ كلَّ مبلغ وحينَ يمسُّهم الجوع المفرط والظمأ الموجع؛ يستغيثون بهم فيقولون: ﴿أفيضوا علينا من الماءِ أو ممَّا رزقكم الله﴾: من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إنَّ الله حرَّمَهما﴾؛ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾: وذٰلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله واتخاذهم دينهم الذي أُمروا أن يستقيموا عليه ووُعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لهواً ولعباً﴾؛ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه ولعبوا واتَّخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذٰلك عن الدين القيم، ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾: بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتِها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا وأعرضوا عن الآخرة ونسوها. ﴿فاليوم ننساهم﴾؛ أي:

نتركهم في العذاب، ﴿كما نسوا لقاء يومهم هٰذا﴾: فكأنهم لم يُخلقوا إلا للدُّنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء، ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾: والحال أن جحودهم هٰذا لا عن قصور في آيات الله وبيِّناته، بل قد ﴿جئناهم بكتاب فصَّلْناه﴾؛ أي: بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿على علم﴾؛ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلُحُ لهم وما لا يصلُحُ ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء ووسعتْ رحمتُهُ كلَّ شيء. ﴿هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾؛ أي: تحصل للمؤمنين بهٰذا الكتاب الهداية من الضلال وبيان الحق والباطل والغي والرشد، ويحصُل أيضاً لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذٰلك الضلال والشقاء.

﴿٥٣﴾ وهٰؤلاء الذين حقَّ عليهم العذاب لم يؤمنوا بهٰذا الكتاب العظيم ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلَّا استحقاقُهم أن يحلَّ بهم ما أخبر به القرآن، ولهٰذا قال: ﴿هل ينظُرون إلا تأويلَه﴾؛ أي: وقوع ما أخبر به؛ كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هٰذا تأويلُ رؤيايَ مِن قَبْلُ﴾. ﴿يومَ يأتي تأويلُهُ يقول الذين نسوه من قبل﴾: متندِّمين متأسِّفين على ما مضى متشفِّعين في مغفرة ذنوبهم مقرِّين بما أخبرت به الرسل: ﴿قد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا أو نُردُّ﴾: إلى الدنيا؛ ﴿فنعملَ غير الذي كُنَّا نعملُ﴾: وقد فات الوقتُ عن الرُّجوع إلى الدنيا؛ فما تنفعُهم شفاعة الشافعين. وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا غيرَ عملهم كذبٌ منهم، مقصودُهم به دفعُ ما حلَّ بهم؛ قال تعالى: ﴿ولو رُدُّوا لَعادوا لِما نُهوا عنه وإنَّهم لَكاذبونَ﴾. ﴿قد خسروا أنفسَهم﴾: حين فوَّتوها الأرباحَ وسَلَكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذٰلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هٰذا خسرانٌ لا جُبْرانَ لمصابِهِ. ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونَ﴾: في الدُّنيا مما تُمَنِّيهم أنفسُهم به، ويعدُهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبيَّن لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الربُّ المعبود وحده لا شريك له: ﴿إنَّ ربَّكم الله

الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾: وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما وبديع خلقهما ﴿في ستة أيام﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع؛ ﴿استوى﴾: تبارك وتعالى ﴿على العرش﴾: العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونيّة وأحكامه الدينيّة، ولهٰذا قال: ﴿يُغْشي الليلَ﴾: المظلم ﴿النهارَ﴾؛ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكُن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار. ﴿يطلُبُه حثيثاً﴾: كلَّما جاء الليل؛ ذهب النهار، وكلَّما جاء النهار؛ ذهب الليل... وهٰكذا أبداً على الدوام حتى يطوي الله هٰذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هٰذه الدار.

﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾؛ أي: بتسخيره وتدبيره الدالِّ على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دالٌّ على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دالٌّ على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضروريَّة وما دونها دالٌّ على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإلٰه الحقُّ الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿ألا له الخَلْق والأمر﴾؛ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويّها وسفليّها أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات؛ فالخلق يتضمَّن أحكامه الكونيَّة القدريَّة، والأمر يتضمَّن أحكامه الدينيَّة الشرعيَّة، وثم أحكام الجزاء، وذٰلك يكون في دار البقاء. ﴿تبارك الله﴾؛ أي: عَظُم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير؛ فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهٰذا قال: ﴿تبارك الله ربُّ العالمين﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدلُّ ذوي الألباب على أنه وحده المعبود المقصود في الحوائج كلِّها؛ أمر بما يترتب على ذٰلك، فقال:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٥﴾ الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تضرعاً﴾؛ أي: إلحاحاً في المسألة ودؤوباً في العبادة، ﴿وخُفية﴾؛ أي: لا جهراً وعلانية

يُخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصاً للّه تعالى. ﴿إنه لا يحبُّ المعتدين﴾؛ أي: المتجاوزين للحدِّ في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل اللّه مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء؛ فكلُّ هٰذا داخل في الاعتداء المنهيِّ عنه.

﴿٥٦﴾ ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾: بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾: بالطاعات؛ فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق؛ كما قال تعالى: ﴿ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر بما كسبتْ أيدي الناس﴾: كما أنَّ الطاعات تصلُح بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدُّنيا والآخرة. ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾؛ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها وخوفاً من ردِّها، لا دعاء عبد مدلٍّ على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزَّل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ.

وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء: الإخلاصُ فيه للّه وحده؛ لأنَّ ذٰلك يتضمَّنه الخفية، وإخفاءه وإسراره، وأن يكون القلبُ خائفاً طامعاً لا غافلاً ولا آمناً ولا غير مبالٍ بالإجابة، وهٰذا من إحسان الدعاء؛ فإن الإحسان في كل عبادة بَذْلُ الجهد فيها وأداؤها كاملةً لا نقصَ فيها بوجه من الوجوه. ولهٰذا قال: ﴿إنَّ رحمةَ اللّه قريبٌ من المحسنين﴾: في عبادة اللّه، المحسنين إلى عباد اللّه، فكلَّما كان العبد أكثر إحساناً؛ كان أقرب إلى رحمة ربِّه، وكان ربُّه قريباً منه برحمته. وفي هٰذا من الحثِّ على الإحسان ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧﴾ بين[1] تعالى أثراً من آثار قدرته ونفحة من نفحات رحمته، فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾؛ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن اللّه من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة اللّه، وترتاح لها قلوبهم قبل

(١) في (ب): «يبين».

نزوله. ﴿حتى إذا أقلَّت﴾: الرياح ﴿سحاباً ثقالاً﴾: قد أثاره بعضها، وألفه ريحٌ أخرى وألقحه ريح أخرى، ﴿سُقْناه لبلدٍ ميِّتٍ﴾: قد كادت تهلك حيواناتُهُ وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة اللّه. ﴿فأنزلنا به﴾؛ أي: بذٰلك البلد الميت ﴿الماء﴾: الغزير من ذٰلك السحاب، وسخَّر اللّه له ريحاً تدره وريحاً تفرِّقه بإذن اللّه. فأنبتنا به من كلِّ الثمرات: فأصبحوا مستبشرين برحمة اللّه، راتعين بخير اللّه. وقوله: ﴿كذٰلك نخرجُ الموتى لعلَّكم تَذَكَّرون﴾؛ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذٰلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتاً متمزِّقين. وهٰذا استدلال واضح؛ فإنه لا فرق بين الأمرين؛ فمنكِرُ البعثِ استبعاداً له مع أنه يرى ما هو نظيره من باب العناد وإنكار المحسوسات. وفي هٰذا الحثُّ على التذكُّر والتفكُّر في آلاء اللّه والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلدُ الطيِّب﴾؛ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه المطر؛ ﴿يخرج نباتُهُ﴾: الذي هو مستعدٌّ له ﴿بإذن ربِّه﴾؛ أي: بإرادة اللّه ومشيئته، فليست الأسباب مستقلَّةً بوجود الأشياء حتى يأذن اللّه بذٰلك. ﴿والذي خَبُثَ﴾: من الأراضي ﴿لا يخرُجُ إلَّا نَكِداً﴾؛ أي: إلا نباتاً خاسًا لا نفع فيه ولا بركة. ﴿كذٰلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرونَ﴾؛ أي: ننوِّعها، ونبيِّنها، ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون اللّه بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة اللّه؛ فهم الذين ينتفعون بما فصل اللّه في كتابه من الأحكام والمطالب الإلٰهية؛ لأنَّهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبَّرونها ويتأمَّلونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم.

وهٰذا مثالٌ للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادةُ الحياة كما أن الغيث مادة الحيا؛ فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتنبُتُ بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها، وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها؛ فإذا جاءها الوحي؛ لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمرُّ على السباخ والرمال والصخور فلا يؤثِّر فيها شيئاً، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بِقَدَرِها فاحتملَ السيلُ زبداً رابياً...﴾ الآيات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[١] ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملةً صالحةً؛ أيَّد ذٰلك بذِكْرِ ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذٰلك، وكيف أيَّد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم ولم ينقَدْ لهم، وكيف اتَّفقت دعوة المرسلين على دينٍ واحد ومعتقدٍ واحد.

﴿٥٩﴾ فقال عن نوح أول المرسلين: ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدُون الأوثان، ﴿**فقال**﴾: لهم: ﴿**يا قوم اعبدُوا الله**﴾؛ أي: وحدوه، ﴿**ما لكم من إلٰهٍ غيرُهُ**﴾: لأنه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوقٌ مدبَّر ليس له من الأمر شيء. ثم خوَّفهم إن لم يطيعوه عذابَ الله، فقال: ﴿**إني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم**﴾: وهٰذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم؛ حيث خاف عليهم العذاب الأبديَّ والشقاء السرمديَّ؛ كإخوانه من المرسلين، الذين يشفِقون على الخَلْق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم.

﴿٦٠﴾ فلما قال لهم هٰذه المقالة؛ ردُّوا عليه أقبح ردٍّ، فقال ﴿**الملأ من قومِهِ**﴾؛ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون، الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحقِّ وعدم انقيادهم للرسل: ﴿**إنا لنراك في ضلال مبين**﴾: فلم يكفِهِم قبَّحَهُمُ اللهُ أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرَّد الضلال، حتَّى جعلوه ضلالاً مبيناً واضحاً لكلِّ أحدٍ!! وهٰذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنَّما هٰذا الوصف منطبقٌ على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوَّروها ونحتوها بأيديهم من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصِرُ ولا تغني عنهم شيئاً، فنزَّلوها منزلة

---

(١) في (ب): إلى آخر قصته.

فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القُرُبات، فلولا أنَّ لهم أذهاناً تقوم بها حُجَّة اللّه عليهم؛ لَحُكِمَ عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل.

﴿٦١ ـ ٦٢﴾ فرد نوح عليهم رَدًّا لطيفاً وترفَّق لهم لعلهم ينقادون له، فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالةٌ﴾؛ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل من جميع الوجوه، وإنما أنا هادٍ مهتدٍ، بل هدايتُهُ عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانِهِ أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامَّة الكاملة، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنّي رسولٌ من ربِّ العالمينَ﴾؛ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربَّى جميع الخلق[1] بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها، ولهٰذا قال: ﴿أبلِّغُكم رسالاتِ ربِّي وأنصحُ لكم﴾؛ أي: وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلمُ من اللهِ مالا تعلمونَ﴾: فالذي يتعيَّن أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمونَ.

﴿٦٣﴾ ﴿أوَعَجِبْتُم أن جاءكم ذِكْرٌ من ربِّكم على رجل منكم﴾؛ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن[2] جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة على يد رجل منكم، تعرفون حقيقتَه وصدقَه وحالَه؛ فهٰذه الحال من عناية اللّه بكم وبرِّه وإحسانه الذي يُتَلَقَّى بالقبول والشكر. وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُم ولتتَّقوا ولعلَّكم تُرحمون﴾؛ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى اللّه ظاهراً وباطناً، وبذٰلك تحصُلُ عليهم، وتنزل رحمة اللّه الواسعة.

﴿٦٤﴾ فلم يفد فيهم ولا نَجَحَ، ﴿فكذَّبوه فأنجَيْناه والذين معه في الفُلْك﴾؛ أي: السفينة التي أمر اللّه نوحاً عليه السلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمِلَ من كلِّ صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومَنْ آمن معه، فحملهم فيها، ونجَّاهم اللّه بها. ﴿وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾: عن الهدى، أبصروا الحقَّ، وأراهم اللّه على يد نوح من الآيات البيناتِ ما به يؤمِنُ أولو الألباب، فسخروا منه، واستهزؤوا به، وكفروا.

---

(١) في (ب): «جميع العالمين».
(٢) في (ب): «أنه».

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا[1] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠
لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى
فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا
كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ﴿و﴾: أرسلنا ﴿إلى عادٍ﴾: ـ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ـ ﴿أخاهم﴾: في النسب ﴿هوداً﴾: عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، والطغيان في الأرض، فقال لهم: ﴿يا قوم اعبدُوا اللّه ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون﴾: سَخطَهُ وعذابَهُ إن أقمتم على ما أنتم عليه.

﴿٦٦﴾ فلم يستجيبوا ولا انقادوا، فقال ﴿الملأُ الذين كفروا من قومِهِ﴾: رادِّين لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سَفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾؛ أي: ما نراك إلَّا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظنِّنا أنك من جملة الكاذبين. وقد انقلبت عليهم الحقيقةُ واستحكم عماهم حيث رموا نبيَّهم عليه السلام بما هم متَّصفون به، وهو أبعدُ الناس عنه؛ فإنهم السفهاء حقًّا الكاذبون، وأيُّ سفهٍ أعظم ممَّن قابل أحقَّ الحقِّ بالردِّ والإنكار، وتكبَّر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبُهُ وقالبه لكلِّ شيطان مريدٍ، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبَدَ من لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار؟! وأيُّ كذب أبلغ من كذب من نسب هٰذه الأمور إلى اللّه تعالى؟!

﴿٦٧﴾ ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ﴾: بوجهٍ من الوجوه، بل هو الرسول

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

المرشدُ الرشيدُ، ﴿ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿أبلِّغُكم رسالاتِ ربِّي وأنا لكم ناصحٌ أمين﴾: فالواجب عليكم أن تتلقَّوا ذٰلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

﴿٦٩﴾ ﴿أوَعَجِبْتُم أن جاءكم ذِكْرٌ من ربِّكم على رجل منكُم لِيُنذِرَكُم﴾؛ أي: كيف تعجبون من أمر لا يُتَعَجَّبُ منه، وهو أن اللّه أرسل إليكم رجلاً منكم، تعرفون أمره، يذكِّركم بما فيه مصالحكم، ويحثُّكم على ما فيه النفع لكم، فتعجَّبتم من ذٰلك تعجُّب المنكرين. ﴿واذْكُروا إذْ جَعَلَكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ﴾؛ أي: واحمدوا ربَّكم، واشكُروه إذ مَكَّنَ لكم في الأرض، وجعلكم تخلُفون الأمم الهالكة الذين كذَّبوا الرسل، فأهلكهم اللّه، وأبقاكم لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا نعمة اللّه عليكم التي خصَّكم بها، وهي أن ﴿زادكم في الخلق بَسْطَةً﴾: في القوة وكبر الأجسام وشدَّة البطش، ﴿فاذكُروا آلاءَ اللّهِ﴾؛ أي: نعمه الواسعة وأياديه المتكررة، ﴿لعلَّكُم﴾: إذا ذَكَرْتُموها بشكرها وأداء حقِّها، ﴿تفلحونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب.

﴿٧٠﴾ فوعظهم وذكَّرهم وأمرهم بالتوحيد وذكر لهم وصف نفسه وأنه ناصح أمين، وحذَّرهم أن يأخذهم اللّهُ كما أخذ من قبلهم، وذكَّرهم نعم اللّه عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا، فقالوا متعجِّبين من دعوته ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أجئتَنا لنعبدَ اللّهَ وحدَهُ ونَذَرَ ما كان يعبدُ آباؤنا﴾: قبَّحهم اللّه، جعلوا الأمر الذي هو أوجبُ الواجبات وأكملُ الأمور من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدَّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد اللّه وحده لا شريك له وكذبوا نبيهم وقالوا: ﴿ائتنا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصادقين﴾: وهٰذا الاستفتاحُ منهم على أنفسهم.

﴿٧١﴾ فقال لهم هودٌ عليه السلام: ﴿قد وَقَعَ عليكم من ربِّكم رجسٌ وغضبٌ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعه؛ فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقتُ الهلاك. ﴿أتجادِلونَني في أسماءٍ سمَّيْتموها أنتم وآباؤكم﴾؛ أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها وعلى أصنام سمَّيْتُموها آلهة وهي لا شيء من الإلٰهية فيها ولا مثقال ذرَّة و﴿ما أنزل اللّه بها من سلطانٍ﴾؛ فإنها لو كانت صحيحةً؛ لأنزل اللّه بها سلطانًا، فعدم إنزاله له دليلٌ على بطلانها؛ فإنه ما من مطلوب ومقصود ـ وخصوصاً الأمورَ

الكبارَ ـ إلا وقد بيَّن اللّه فيها من الحجج ما يدلُّ عليها ومن السلطان ما لا تخفى معه، ﴿فانتظروا﴾: ما يقعُ بكم من العقاب الذي وَعَدْتكم به. ﴿إنِّي معكم من المنتظرين﴾: وفرق بين الانتظارَيْن؛ انتظارِ مَنْ يخشى وقوع العقاب ومَنْ يرجو من اللّه النصر والثواب.

﴿٧٢﴾ ولهٰذا فتح اللّه بين الفريقين فقال: ﴿فأنجَيناه﴾؛ أي: هوداً، ﴿والذين آمنوا معه ﴿برحمةٍ منا﴾: فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته، فأنجاهم برحمته، ﴿وقطَعْنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا﴾؛ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يُبْق منهم أحداً، وسَلَّطَ اللّه عليهم ﴿الريح العقيم. ما تَذَرُ من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم﴾، ﴿فأهْلِكوا فأصبحوا لا يُرى إلَّا مساكِنُهم فانْظُرْ كيف كان عاقبةُ المنذَرين﴾، الذين أقيمت عليهم الحُجج فلم ينقادوا لها، وأمِروا بالإيمان فلم يؤمنوا، فكان عاقِبَتُهم الهلاك والخزي والفضيحة، ﴿وأُتبِعوا في هٰذه الدُّنيا لعنةً ويومَ القيامةِ. ألا إنَّ عاداً كَفَروا ربَّهم ألا بُعْداً لعادٍ قوم هود﴾. وقال هنا: ﴿وقَطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنينَ﴾: بوجهٍ من الوجوه، بل وَصْفُهُمُ التكذيب والعناد، ونعتُهم الكِبْر والفساد.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ[(١)] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): إلى آخر قصتهم.

﴿٧٣﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾: القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكُنون الحِجْر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل اللّه إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾: نبيًّا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيره﴾: دعوتُهُ عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادةِ اللّه وبيان أنه ليس للعباد إله غير اللّه. ﴿قد جاءتْكم بينةٌ من ربِّكم﴾؛ أي: خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماويَّة لا يقدر الناس عليها، ثم فسَّرها بقوله: ﴿هٰذه ناقةُ اللّه لكم آية﴾؛ أي: هٰذه ناقةٌ شريفةٌ فاضلةٌ لإضافتها إلى اللّه تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة، وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يوم معلوم﴾، وكان عندهم بئر كبيرةٌ، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيُّهم صالح عليه السلام: ﴿فذَروها تأكلْ في أرض اللّه﴾: فلا عليكم من مؤونتها شيء، ﴿ولا تَمَسُّوها بسوءٍ﴾؛ أي: بعقر أو غيره، ﴿فيأخذَكُم عذابٌ أليم﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿واذكُروا إذ جَعَلَكُم خلفاءَ﴾: في الأرض تتمتَّعون بها وتدركون مطالبكم، ﴿من بعد عادٍ﴾: الذين أهلكهم اللّه وجعَلَكم خلفاء من بعدهم، ﴿وبوَّأكم في الأرض﴾؛ أي: مكَّن لكم فيها وسهَّل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون، ﴿تتَّخذونَ من سهولها قصوراً﴾؛ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال بيوتاً، ومن الجبال بيوتاً ينحتونها[1] كما هو مشاهدٌ إلى الآن أعمالهم التي في الجبال من المساكن والحِجْر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال. ﴿فاذكروا آلاء اللّه﴾؛ أي: نعمه وما خوَّلكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ولا تعثَوا في الأرض مفسدين﴾؛ أي: لا تُخَرِّبوا في الأرض بالفساد والمعاصي؛ فإن المعاصي تدع الديارَ العامرةَ بلاقِعَ، وقد أخلتْ ديارَهُم منهم، وأبقتْ مساكِنَهم موحشةً بعدَهم.

﴿٧٥﴾ ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومِهِ﴾؛ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للذين استضعفوا﴾: ولما كان المستضعَفون ليسوا كلُّهم

(١) في (ب): «التي ليست بجبال تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، وتنحتون الجبال بيوتاً». سقط من (أ)، واستدركه الشيخ بما أثبت.

مؤمنين؛ قالوا: ﴿لِمَنْ آمن منهم أتعلَمون أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربِّه﴾؛ أي: أهو صادقٌ أم كاذب؟ فقال المستضعفون: إنَّا بالذي ﴿أرسِلَ به مؤمنونَ﴾ من توحيد اللّه والخبر عنه وأمره ونهيه.

﴿٧٦﴾ ﴿قال الذين استكبَروا إنَّا بالذي آمنتُم به كافرونَ﴾: حَمَلَهُمُ الكِبْرُ أن لا ينقادوا للحقِّ الذي انقاد له الضعفاء.

﴿٧٧﴾ ﴿فعقروا الناقة﴾: التي توعَّدهم إن مسوها بسوء أن يصيبَهم عذابٌ أليم. ﴿وعَتَوا عن أمر ربِّهم﴾؛ أي: قسوا عنه واستكبروا عن أمره الذي مَنْ عتا عنه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم أحلَّ اللّه بهم من النَّكال ما لم يُحِلَّ بغيرِهم. ﴿وقالوا﴾: مع هٰذه الأفعال متجرِّئين على اللّه معجِزين له غير مبالين بما فعلوا بل مفتخرين بها: ﴿يا صالحُ ائتِنا بما تعِدُنا﴾: - إن كنت من الصادقين - من العذاب، فقال: ﴿تمتَّعوا في دارِكم ثلاثةَ أيَّام ذٰلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿فأخذتهم الرجفةُ فأصبحوا في دارِهِم[1] جاثمين﴾: على ركبهم قد أبادهم اللّه وقطع دابرهم.

﴿٧٩﴾ ﴿فتولَّى عنهم﴾: صالحٌ عليه السلام حين أحلَّ اللّه بهم العذاب، ﴿وقال﴾: مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً بعدما أهلكهم اللّه: ﴿يا قوم لقد أبلغتُكم رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم﴾؛ أي: جميع ما أرسلني اللّه به إليكم قد أبلغتُكم به وحرصت على هدايتكم واجتهدتُ في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿ولٰكن لا تحبُّونَ الناصحين﴾: بل رددتُم قول النُّصحاء، وأطعتم كلَّ شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسِّرين يذكرون في هٰذه القصة أنَّ الناقة خرجت من صخرةٍ صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخَّضت تمخُّض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرَّة، واليوم الثاني محمرَّة، والثالث مسودَّة، فكان كما قال.

وهٰذا[2] من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب اللّه، وليس في

(١) في (ب): «ديارهم».

(٢) في (ب): «وكل هذا». وقد طمس الشيخ (كل) في (أ).

القرآن ما يدلُّ على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحةً لَذَكَرها اللّه تعالى؛ لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذِكْرَهُ حتى يأتي من طريق مَنْ لا يوثَق بنقله، بل القرآن يكذِّب بعض هٰذه المذكورات؛ فإنَّ صالحاً قال لهم: ﴿تمتَّعوا في دارِكُم ثلاثة [أيام]﴾؛ أي: تنعَّموا وتلذَّذوا بهٰذا الوقت القصير جدًّا؛ فإنه ليس لكم من المتاع واللَّذَّة سوى هٰذا، وأيُّ لذَّة وتمتُّع لمن وعدهم نبيُّهم وقوع العذاب وذكر لهم وقوع مقدِّماته فوقعت يوماً فيوماً على وجهٍ يعمُّهم ويشمُلهم؛ لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب؟! هل هٰذا إلا مناقض للقرآن ومضادٌّ له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه. نعم؛ لو صحَّ شيء عن رسول اللّه ﷺ مما لا يناقض كتاب اللّه؛ فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فَخذوه وما نهاكم عنه فانتَهوا﴾. وقد تقدَّم أنه لا يجوز تفسير كتاب اللّه بالأخبار الإسرائيليَّة، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يُجْزَمُ بكذِبها؛ فإنَّ معاني كتاب اللّه يقينيَّة، وتلك أمور لا تصدَّق ولا تكذَّب؛ فلا يمكن اتفاقهما.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾: عليه الصلاة والسلام؛ إذ أرسلناه إلى قومه؛ يأمُرُهم بعبادة اللّه وحدَه، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقَهم بها أحدٌ من العالمين؛ فقال: ﴿أتأتونَ الفاحشةَ﴾؛ أي: الخصلة التي بلغت في العِظَم والشَّناعة إلى أن استغرقتْ أنواعَ الفحش، ﴿ما سَبَقَكم بها من أحدٍ من العالمين﴾: فكونُها فاحشةً من أشنع الأشياء، وكونُهم ابتدعوها، وابتَكَروها، وسَنُّوها لمن بعدَهم من أشنع ما يكونُ أيضاً.

﴿٨١﴾ ثم بيَّنها بقوله: ﴿إنَّكم لَتأتونَ الرجال شهوةً من دون النساء﴾؛ أي: كيف

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

تَذَرون النساء التي خلقهنَّ اللّه لكم، وفيهنَّ المستمتَعُ الموافق للشهوة والفطرة، وتقبِلون على أدبار الرجال، التي هي غايةُ ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌّ تخرج منه الأنتان والأخباث التي يُسْتَحى من ذكرِها فضلاً عن ملامستها وقربها. ﴿بل أنتم قومٌ مسرفونَ﴾؛ أي: متجاوِزون لما حدَّه اللّه، متجرِّئون على محارمه.

﴿٨٢﴾ ﴿وما[1] كانَ جوابَ قومِهِ إلَّا أن قالوا أخرجوهم من قريتِكم إنَّهم أناسٌ يتطهَّرونَ﴾؛ أي: يتنزَّهون عن فعل الفاحشة، ﴿وما نَقَموا منهم إلَّا أن يؤمنوا باللّهِ العزيز الحميد﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فأنجيناه وأهلَهُ إلَّا امرأتَهُ كانت من الغابرينَ﴾؛ أي: الباقين المعذَّبين؛ أمره اللّه أن يسري بأهله ليلاً؛ فإنَّ العذابَ مصبِّحٌ قومَه، فسرى بهم إلَّا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وأمطَرْنا عليهم مطراً﴾؛ أي: حجارة حارَّة شديدةً من سِجِّيل، وجعل اللّه عاليَها سافِلَها، ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المجرِمين﴾: الهلاك والخزي الدائم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ[2] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا
عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾
وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ
ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ

---

(١) في (ب): «فما».

(٢) في (ب): إلى آخر القصة.

ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿٨٥﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿شُعَيباً﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثَوْا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي، ولهٰذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذٰلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾: فإنَّ ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرُّباً إليه خيرٌ وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار.

﴿٨٦﴾ ﴿ولا تقعُدوا﴾: للناس ﴿بكلِّ صراطٍ﴾؛ أي: طريق من الطرق التي يكثُرُ سلوكها؛ تحذِّرون الناس منها، و﴿توعِدونَ﴾: من سلكها، ﴿وتَصُدُّون عن سبيل الله﴾: من أراد الاهتداء به، ﴿وتبغونَها عِوَجاً﴾؛ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجَّة، وتميلونها اتِّباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده، ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ورحمهم بها أعظمَ رحمةٍ، وتَصُدُّون لنصرتها والدعوة إليها والذبِّ عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها الصّادِّين الناس عنها؛ فإنَّ هٰذا كفرٌ لنعمة الله ومحادَّة لله وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلةً، وتشنِّعون على من سلكها، ﴿واذكُروا﴾: نعمة الله عليكم ﴿إذ كُنتُم قليلاً فكثَّرَكم﴾؛ أي: نمَّاكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقلِّلة لكم، ولا سلَّط عليكم عدوًّا يجتاحُكم، ولا فرَّقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم وإدرار الأرزاق وكثرة النسل. ﴿وانظروا كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾: فإنكم لا تجدون في جموعهم إلَّا الشتات، ولا في ربوعهم إلَّا الوَحْشة والانبتات، ولم يورثوا ذِكْراً حسناً، بل أُتبِعوا في هٰذه الدُّنيا لعنةً ويوم القيامة [أشد] خزياً وفضيحة.

﴿٨٧﴾ ﴿وإن كان طائفةٌ منكُم آمنوا بالذي أرسِلْتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا﴾: وهم الجمهور منهم، ﴿فاصبِروا حتى يحكُمَ اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمينَ﴾: فينصر المحقَّ، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿٨٨﴾ ﴿قال الملأُ الذين استَكْبَروا من قومِهِ﴾: وهم الأشرافُ والكبراءُ منهم،

الذين اتَّبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحقُّ ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة؛ ردُّوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبيِّهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجَنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتِنا أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا﴾: استعملوا قوَّتهم السَّبُعية في مقابلة الحقِّ، ولم يراعوا ديناً ولا ذمَّةً ولا حقًّا، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة، التي دلَّتهم على هٰذا القول الفاسد، فقالوا إمَّا أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنَّكم من قريتنا؛ فشعيبٌ عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يَسْلَم [من شرهم] حتى توعَّدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه الذي هو ومن معه أحقُّ به منهم. فقال لهم شعيبٌ عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أوَلَوْ كنَّا كارهينَ﴾؛ أي: أنتابعكم على دينكم وملَّتكم الباطلة ولو كُنَّا كارهين لها لعلمنا ببطلانها؛ فإنما يدعَى إليها من له نوعُ رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها والتشنيع على من اتَّبعها؛ فكيف يُدعى إليها.

﴿٨٩﴾ ﴿قدِ افترَيْنا على اللّه كذباً إن عُدْنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا اللّه منها﴾؛ أي: اشهدوا علينا أننا إن عُدنا [فيها] بعد ما نجَّانا اللّه منها وأنقذنا من شرِّها أننا كاذبون مفترون على اللّه الكذب؛ فإننا نعلمُ أنه لا أعظم افتراء ممَّن جعل للّه شريكاً وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولداً[١] ولا شريكاً في الملك. ﴿وما يكونُ لنا أن نعودَ فيها﴾؛ أي: يمتنع على مثلنا أن نعودَ فيها؛ فإنَّ هٰذا من المحال، فآيَسَهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوهٍ متعددةٍ.

من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.

ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً وأشهدهم أنه إنِ اتَّبَعَهم ومن معه فإنَّهم كاذبون.

ومنها اعترافُهم بمنَّة اللّه عليهم إذ أنقذهم اللّه منها، **ومنها** أنَّ عودَهم فيها بعدما هداهم اللّه من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة وما في قلوبهم من تعظيم اللّه تعالى والاعتراف له بالعبوديَّة وأنه الإلٰه وحده الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له، وأنَّ آلهة المشركين أبطل الباطل وأمحل المحال، وحيث إنَّ اللّهَ منَّ

(١) في (ب): «ولداً ولا صاحبة».

عليهم بعقول يعرفون بها الحقَّ والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة اللّٰه وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروجَ لأحدٍ عنها ولو تواترتِ الأسبابُ وتوافقت القوى؛ فإنَّهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهٰذا استثنى: ﴿وما يكونُ لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء اللّهُ ربُّنا﴾؛ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً﴾: فيعلم ما يصلُح للعباد، وما يدبِّرُهم عليه.

﴿على اللّه توكَّلْنا﴾؛ أي: اعتمدنا أنه سيثبِّتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصِمَنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكَّل على اللّه كفاه ويسَّر له أمر دينه ودنياه. ﴿ربَّنا افتحْ بينَنا وبين قومِنا بالحقِّ﴾؛ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق على الظالم المعاند للحق، ﴿وأنت خيرُ الفاتحين﴾: وفتحُهُ تعالى لعباده **نوعان**: **فتحُ العلم** بتبيين الحقِّ من الباطل والهدى من الضلال ومَنْ هو المستقيمُ على الصراط ممَّن هو منحرفٌ عنه. **والنوع الثاني**: فتحُهُ بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين. فسألوا اللّه أن يفتحَ بينَهم وبين قومهم بالحقِّ والعدل، وأن يريَهم من آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿٩٠﴾ ﴿وقال الملأُ الذين كفروا من قومه﴾: محذِّرين عن اتِّباع شعيب: ﴿لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرونَ﴾: هٰذا ما سوَّلت لهم أنفسهم؛ أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كلَّ الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذٰلك حين وقع بهم النَّكال.

﴿٩١﴾ ﴿فأخذتْهُمُ الرجفةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمينَ﴾؛ أي: صرعى ميِّتين هامدين.

﴿٩٢﴾ قال تعالى ناعياً حالَهم: ﴿الذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوْا فيها﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتَّعوا في عَرَصاتهم، ولا تفيَّئوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، فأخذهم العذاب[1] فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللَّذَّات إلى مستقرِّ الحزن والشقاء والعقاب والدرَكات، ولهٰذا قال: ﴿الذين كذَّبوا شُعيباً كانوا هم الخاسرينَ﴾؛ أي: الخسار محصورٌ فيهم؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذٰلك هو الخسران

---

(١) في (ب): «حين فاجَأهم العذاب».

المبين، لا مَنْ قالوا لهم: ﴿لئنِ اتَّبعتُم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرونَ﴾.

﴿٩٣﴾ فحين هلكوا تولَّى عنهم نبيُّهم عليه الصلاة والسلام، ﴿وقال﴾ معاتباً وموبِّخاً ومخاطباً لهم بعد موتهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربِّي﴾؛ أي: أوصلتها إليكم وبيَّنتها حتَّى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه وخالطت أفئدتكم، ﴿ونصحتُ لكم﴾: فلم تقبلوا نُصحي ولا انقدتم لإرشادي، بل فسقتُم وطغيتم؛ ﴿فكيف آسى على قوم كافرينَ﴾؛ أي: فكيف أحزن على قوم لا خيرَ فيهم، أتاهم الخيرُ فردُّوه ولم يقبلوه، ولا يَليقُ بهم إلا الشرُّ؛ فهٰؤلاء غير حقيقين أن يُحْزَنَ عليهم، بل يُفْرَحُ بإهلاكهم ومَحْقِهم؛ فعياذاً بك اللهمَّ من الخزي والفضيحة! وأيُّ شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ﴾: يدعوهم إلى عبادة اللّه، وينهاهم عن ما هم فيه من الشرِّ، فلم ينقادوا له؛ إلَّا ابتلاهم اللّه ﴿بالبأساءِ والضرَّاءِ﴾؛ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا، ﴿لعلهم﴾: إذا أصابتهم؛ خضعتْ نفوسُهم؛ فتضرعوا إلى اللّه، واستكانوا للحق.

﴿٩٥﴾ ﴿ثم﴾: إذا لم يُفِدْ فيهم واستمرَّ استكبارُهم وازداد طغيانُهم، ﴿بدَّلْنا مكانَ السيئةِ الحسنةَ﴾: فأدرَّ عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلايا[1]، ﴿حتى عفَوْا﴾؛ أي: كثروا وكثرتْ أرزاقُهم وانبسطوا في نعمة اللّه وفضله ونسوا ما مرَّ عليهم من البلايا[1]، ﴿وقالوا قد مسَّ آباءنا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾؛ أي: هٰذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين؛ تارة يكونون في سرَّاء، وتارة في ضرَّاء، وتارة في فرح، ومرة في ترح؛ على حسب تقلُّبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج والنكير، حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدُّنيا أسرَّ ما كانت إليهم. أخذْناهم بالعذاب ﴿بغتة وهم

(١) في (ب): «البلاء».

لا يشعُرون﴾؛ أي: لا[1] يخطُرُ لهم الهلاك على بالٍ، وظنُّوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٦﴾ لما ذكر تعالى أنَّ المكذِّبين للرسل يُبتلون بالضراء موعظةً وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً؛ ذكر أنَّ أهل القُرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمالُ، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرَّم الله [تعالى]؛ لفتحَ عليهم بركاتِ السَّماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبتَ لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيشُ بهائمهُم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعبٍ ولا كدٍّ ولا نصبٍ، ولٰكنهم لم يؤمنوا ويتَّقوا، ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسِبون﴾: بالعقوبات والبلايا ونزع البركات وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلَّا؛ فلو آخذهم بجميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابَّةٍ، ﴿ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحر بما كَسَبَتْ أيدي الناس لِيُذيقَهم بعضَ الذي عملوا لعلَّهم يرجِعون﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿أفأمِنَ أهلُ القرى﴾؛ أي: المكذبة بقرينة السياق، ﴿أن يأتِيَهم بأسُنا﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿بَياتاً وهم نائمون﴾؛ أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم.

﴿٩٨﴾ ﴿أوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتِيَهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبونَ﴾: أيُّ شيءٍ يؤمِّنُهم من ذٰلك وهم قد فعلوا أسبابه وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضُه الهلاكَ.

﴿٩٩﴾ ﴿أفأمنوا مَكْرَ الله﴾: حيث يستدرِجُهم من حيث لا يعلمونَ، ويُملي لهم إنَّ كيده متين. ﴿فلا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرون﴾: فإنَّ من أمِنَ من عذاب الله؛ فإنه لم يصدِّق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهٰذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أنَّ العبد لا ينبغي له أن يكون

(١) في (ب): «لم».

آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزالُ خائفاً وَجِلاً أن يُبتلى ببليَّةٍ تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: يا مقلب القلوب! ثبِّتْ قلبي على دينك، وأن يعمل ويسعى في كلِّ سبب يخلِّصه من الشرِّ عند وقوع الفتن؛ فإنَّ العبد ولو بلغت به الحال ما بلغتْ؛ فليس على يقين من السلامة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين[1] بعد هلاك الأمم الغابرين[2]: ﴿أوَلَمْ يَهْدِ للذين يرِثون الأرض من بعدِ أهلها أن لو نشاءُ أصبْناهم بذُنوبهم﴾؛ أي: أوَلم يتبيَّن ويتَّضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلَهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولٰئك المهلَكين، أوَلم يهتدوا أنَّ اللّه لو شاء لأصابَهم بذُنوبهم؛ فإنَّ هٰذه سنته في الأولين والآخرين. وقوله: ﴿ونطبَعُ على قلوبهم فهم لا يسمعونَ﴾؛ أي: إذا نبَّههم اللّه فلم ينتبهوا، وذكَّرهم فلم يتذكَّروا، وهداهم بالآيات والعِبَر فلم يهتَدوا؛ فإنَّ اللّه تعالى يعاقِبُهم ويطبعُ على قلوبهم فيعلوها الرَّانُ والدَّنَسُ حتى يُخْتَمَ عليها فلا يدخُلها حقٌّ ولا يصلُ إليها خيرٌ ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنَّما يسمعون ما به تقوم الحجَّةُ عليهم.

﴿١٠١﴾ ﴿تلك القرى﴾: الذين تقدَّم ذِكْرُهم، ﴿نَقُصُّ عليك من أنبائها﴾: ما يحصُلُ به عبرة للمعتبرين، وازدجارٌ للظالمين، وموعظة للمتقين، ﴿ولقد جاءتْهم رسُلُهم بالبيناتِ﴾؛ أي: [ولقد] جاءت هٰؤلاء المكذبين رسُلُهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيَّدهم اللّه بالمعجزات الظاهرة والبيِّنات المبيِّنات للحقِّ بياناً كاملاً، ولكنهم لم يُفِدْهم هٰذا ولا أغنى عنهم شيئاً؛ ﴿فما كانوا ليؤمِنوا بما كذَّبوا من قبلُ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وردِّهم الحقّ أول مرة ما كان يهديهم[3] للإيمان جزاءً لهم على ردِّهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا

(١) في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف: الغابرين: الباقين.
(٢) في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف: الغابرين: الماضين.
(٣) في (ب): «ما كان الله ليهديهم».

به أولَ مرَّةٍ ونَذَرُهم في طغيانِهِم يعمَهونَ﴾، ﴿كذلك يطبعُ اللّه على قلوب الكافرين﴾: عقوبةً منه، وما ظلمهم اللّه، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿١٠٢﴾ ﴿وما وَجَدْنا لأكثرِهم من عهدٍ﴾؛ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل اللّه إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام لوصية اللّه التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله. ﴿وإن وَجَدْنا أكْثَرَهُم لفاسقينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة اللّه، متَّبعين لأهوائهم بغير هدىً من اللّه؛ فاللّه تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتّباع عهده وهداه، فلم يمتثلْ لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقتْ لهم من اللّه سابقةُ السعادة، وأما أكثر الخلق؛ فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحلَّ اللّه بهم من عقوباتِهِ المتنوّعة ما أحلَّ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ(١) فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن
لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن
كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ
﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ
﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ
أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو
بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ
﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ

(١) في (ب): إلى آخر قصته.

إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ
لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا
وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا
طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى
ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ
مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا
صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ
ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ
أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ
وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ
مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ
ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ

بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن
كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ
دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ
ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ
وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا
رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ
بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ
ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ
لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ
شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن
تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي
وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾
ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ
وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن
قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ
كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ
سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾
وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ
مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ
يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ
ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ
ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم الإمام العظيم والرسول الكريم إلى قوم عتاةٍ جبابرةٍ ـ وهم فرعون وملؤه من أشرافهم وكبرائهم ـ

فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهَدْ له نظيرٌ. ﴿فظلموا بها﴾: بأن لم ينقادوا لحقِّها الذي مَن لم ينقدْ له فهو ظالمٌ، بل استكبروا عنها، ﴿فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ المفسدينَ﴾: كيف أهلَكَهُمُ اللّه وأتبَعَهم الذمَّ واللعنة في الدنيا، ويوم القيامة بئس الرِّفْدُ المرفود.

﴿١٠٤﴾ وهٰذا مجمل فصَّله بقوله: ﴿وقال موسى﴾: حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان: ﴿يا فرعونُ إنِّي رسولٌ من ربِّ العالَمين﴾؛ أي: إني رسولٌ من مُرسِلٍ عظيم، وهو ربُّ العالَمين، الشامل للعالم العلويِّ والسفليِّ، مربِّي جميع خلقِهِ بأنواعِ التدابير الإلٰهيَّة، التي من جملتها أنه لا يترُكُهم سدىً، بل يرسل إليهم الرسل مبشِّرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحدٌ أن يتجرَّأ عليه ويدَّعي أنه أرسله ولم يرسله.

﴿١٠٥﴾ فإذا كان هٰذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيقٌ عليَّ أن لا أكذب عليه ولا أقول عليه إلا الحقَّ؛ فإني لو قلتُ غير ذٰلك؛ لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر؛ فهٰذا موجبٌ لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببيِّنة من اللّه واضحةٍ على صحَّة ما جاء به من الحقِّ، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانُهم به واتِّباعُهم له، وإرسالُ بني إسرائيل الشعب الذي فضَّله اللّه على العالمين أولاد الأنبياء وسلسلة يعقوب عليه السلام الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحدٌ منهم.

﴿١٠٦﴾ فقال له فرعون: ﴿إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأت بها إن كنتَ من الصادقين﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿فألقى﴾ موسى ﴿عصاه﴾: في الأرض، ﴿فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ﴾؛ أي: حية ظاهرةٌ تسعى وهم يشاهدونها.

﴿١٠٨﴾ ﴿ونزع يده﴾: من جيبه، ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: من غير سوءٍ؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالَّتان على صحة ما جاء به موسى وصدقِهِ، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين.

﴿١٠٩﴾ ولٰكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهٰذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إنَّ هٰذا لساحرٌ عليمٌ﴾؛ أي: ماهرٌ في سحره.

﴿١١٠﴾ ثم خوَّفوا ضعفاءَ الأحلام وسفهاء العقول بأنه ﴿يريدُ﴾ موسى بفعلِهِ هٰذا ﴿أن يخرِجَكم من أرضكم﴾؛ أي: يريد أن يجليكم[1] من أوطانكم، ﴿فماذا تأمرونَ﴾؟ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضررهم بزعمهم عنهم؛ فإنَّ ما جاء به إن لم يقابَلْ بما يبطِلُه ويدحضه، وإلا؛ دخل في عقول أكثر الناس.

﴿١١١ ـ ١١٢﴾ فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أرْجِهِ وأخاه﴾؛ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشُرون أهل المملكة ويأتون بكل سَحَّارٍ عليم؛ أي: يجيئون بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى ﴿اجعلْ بيننا وبينَكَ موعداً لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكاناً سُوىً. قال موعِدُكم يومُ الزينةِ وأن يُحْشَرَ الناس ضحىً. فتولَّى فرعونُ فجمَعَ كيدَه ثم أتى﴾.

﴿١١٣﴾ وقال هنا: ﴿وجاء السحرةُ فرعونَ﴾: طالبين منه الجزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿إنَّ لنا لأجراً إن كُنَّا نحنُ الغالبينَ﴾.

﴿١١٤﴾ فقالَ فرعونُ: ﴿نعم﴾: لكم أجر، ﴿وإنَّكم لمن المقرَّبين﴾: فوعَدَهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذُلوا، وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

﴿١١٥﴾ فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، ﴿قالوا﴾: على وجه التألِّي وعدم المبالاة بما جاء به موسى، ﴿يا موسى إما أن تُلْقِيَ﴾: ما معك، ﴿وإما أن نكونَ نحنُ الملقينَ﴾.

﴿١١٦﴾ فقالَ موسى: ﴿ألقوا﴾: لأجل أن يرى الناسُ ما معهم وما مع موسى، ﴿فلما ألقَوْا﴾: حبالَهم وعصيَّهم إذا هي من سحرهم كأنها حياتٌ تسعى، فسحروا ﴿أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحرٍ عظيم﴾: لم يوجدْ له نظيرٌ من السحر.

﴿١١٧﴾ ﴿وأوحَينا إلى موسى أن ألقِ عصاك﴾: فألقاها، ﴿فإذا هي﴾: حيَّةٌ تسعى فتلقفت جميعَ ما يأفِكونَ؛ أي: يكذبون به ويموِّهون.

﴿١١٨﴾ ﴿فوقع الحقُّ﴾؛ أي: تبين، وظهر، واستعلن في ذٰلك المجمع، ﴿وبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾.

---

(١) في (ب): «ليجليكم».

﴿١١٩﴾ ﴿فغُلِبوا هنالك﴾؛ أي: في ذٰلك المقام، ﴿وانقلبوا صاغرينَ﴾؛ أي: حقيرين قد اضمحلَّ باطلُهم وتلاشى سحرهم ولم يحصُل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

﴿١٢٠ ـ ١٢٢﴾ وأعظم من تبيَّن له الحقُّ العظيم أهل الصنف والسحر [الذين] يعرفون من أنواع السحر وجزئياتِهِ ما لا يعرفه غيرُهم، فعرفوا أن هٰذه آية عظيمة من آيات اللّه، لا يدان لأحد بها، فألقي ﴿السحرةُ ساجدينَ. قالوا آمنا بربِّ العالمين. ربِّ موسى وهارون﴾؛ أي: وصدَّقنا بما بُعِثَ به موسى من الآيات البينات.

﴿١٢٣﴾ فقال لهم ﴿فرعونُ﴾ متهدِّداً لهم على الإيمان: ﴿آمنتُم به قبل أن آذنَ لكم﴾: كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرَّر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع وأمره نافذٌ فيهم ولا خروج لأحدٍ عن قوله وحكمه، وبهٰذه الحالة تنحطُّ الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهٰذا قال اللّه عنه: ﴿فاستخفَّ قومَه فأطاعوه﴾، وقال هنا: ﴿آمنتُم به قبلَ أن آذنَ لكم﴾؛ أي: فهذا سوءُ أدبٍ منكم وتجرُّؤ عليَّ، ثم موَّه على قومه وقال: ﴿إنَّ هٰذا لَمَكرٌ مكرتُموه في المدينة لتُخرِجوا منها أهلها﴾؛ أي: إن موسى كبيركم الذي علَّمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلِبوا له فيظهرَ فتتَّبعونه ثم يتَّبعكم الناس أو جمهورهم، فتُخْرِجوا منها أهلها، وهٰذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحدٍ منهم، وأنهم جُمِعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلٰهيَّة، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا وتبيَّن لهم الحق فاتبعوه. ثم توعَّدهم فرعون بقوله: فلسوف ﴿تعلمونَ﴾: ما أحِلُّ بكم من العقوبة.

﴿١٢٤﴾ ﴿لأقطِّعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خلافٍ﴾: زعم الخبيثُ أنَّهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يُصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثم لأصَلِّبَنَّكُم﴾: في جذوع النخل؛ لتختَزوا بزعمه ﴿أجمعينَ﴾؛ أي: لا أفعل هٰذا الفعل بأحدٍ دون أحدٍ، بل كلُّكم سيذوق هٰذا العذاب.

﴿١٢٥﴾ فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهدَّدهم: ﴿إنَّا إلى ربِّنا منقلبونَ﴾؛ أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فالله خيرٌ وأبقى؛ فاقضِ ما أنت قاضٍ.

﴿١٢٦﴾ ﴿وما تَنقِمُ منَّا﴾؛ أي: وما تعيب منَّا على إنكارك علينا وتوعُّدك لنا؛

فليس لنا ذنبٌ ﴿إلَّا أنْ آمنَّا بآيات ربِّنا لما جاءتْنا﴾[١]؛ فإنْ كان هٰذا ذنباً يُعاب عليه ويستحقُّ صاحبه العقوبة؛ فهو ذنبُنا. ثم دعوا اللّه أن يثبِّتهم ويصبِّرهم، فقالوا: ﴿ربَّنا أفرغْ﴾؛ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾؛ أي: عظيماً كما يدلُّ عليه التنكير؛ لأنَّ هٰذه محنة عظيمة تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير؛ ليثبت الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانِهِ ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وتوفَّنا مسلمينَ﴾؛ أي: منقادين لأمرك متَّبعين لرسولك. والظاهر أنه أوقع بهم ما توعَّدهم عليه، وأنَّ اللّه تعالى ثبَّتهم على الإيمان.

﴿١٢٧﴾ هٰذا وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات اللّه وجحدوا بها ظلماً وعلوًّا وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أتذرُ موسى وقومَه ليفسِدوا في الأرض﴾: بالدعوة إلى اللّه وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض وما هم عليه هو الفساد، ولكنَّ الظالمين لا يبالون بما يقولون، ﴿وَيَذَرَكَ وآلهتَكَ﴾؛ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، فقال فرعونُ مجيباً لهم بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالةٍ لا ينمون فيها ويأمنُ فرعونُ وقومُه بزعمه من ضررهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أبناءَهم ونستحيي نساءَهم﴾؛ أي: نستبقيهنَّ فلا نقتلهنَّ؛ فإذا فعلْنا ذٰلك؛ أمنَّا مِن كثرتِهِم، وكنَّا مستخدمين لباقيهم ومسخِّرين لهم على ما نشاء من الأعمال، ﴿وإنَّا فوقَهم قاهرونَ﴾: لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة. وهٰذا نهاية الجَبَروت من فرعون والعتوِّ والقسوة.

﴿١٢٨﴾ فقال ﴿موسى لقومه﴾: موصياً لهم ـ في هٰذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ولا مقاومة ـ بالمقاومة الإلهية والاستعانة الربانيَّة: ﴿استعينوا باللّه﴾؛ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم ودفع ما يضرُّكم، وثِقوا باللّه أنه سيتمُّ أمركم، ﴿واصبروا﴾؛ أي: الزموا الصبر على ما يحلُّ بكم منتظرين للفرج. ﴿إنَّ الأرض للّه﴾: ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكَّموا فيها، ﴿يورِثُها مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾؛ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولٰكن العاقبة للمتَّقين؛ فإنهم وإن امتُحِنوا مدة ابتلاء من اللّه وحكمة؛ فإنَّ النصر لهم، ﴿والعاقبةُ﴾: الحميدة لهم على قومهم. وهٰذه وظيفة العبد؛ أنَّه عند القدرة أن يفعل

---

(١) في (ب): «آمنا بربنا».

من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه وعند العجز أن يصبر ويستعين اللّٰه وينتظر الفرج.

﴿١٢٩﴾ ﴿قالوا﴾: لموسى متضجِّرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيَّته: ﴿أوذينا من قبل أن تأتِيَنا﴾: فإنهم يسوموننا سوء العذاب يذبِّحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ﴿ومن بعدِ ما جئتنا﴾: كذٰلك، فقال لهم موسى مرجياً لهم بالفرج[1] والخلاصِ من شرِّهم: ﴿عسى ربُّكم أن يُهْلِكَ عدوَّكم ويستخلِفَكم في الأرض﴾؛ أي: يمكِّنكم فيها ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿فينظرَ كيف تعملونَ﴾: هل تشكُرون أم تكفُرون؟ وهٰذا وعدٌ أنجزه اللّٰه لمَّا جاء الوقت الذي أراده اللّٰه.

﴿١٣٠﴾ قال اللّٰه تعالى في بيان ما عامل به آلَ فرعون في هٰذه المدة الأخيرة ـ إنها على عادته وسنته في الأمم أن يأخُذَهم ﴿بالبأساء والضرَّاء لعلهم يضَّرَّعون﴾ الآيات ـ: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾؛ أي: بالدُّهور والجدب، ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون﴾؛ أي: يتَّعظون أنَّ ما حلَّ بهم وأصابهم معاتبة من اللّٰه لهم لعلَّهم يرجِعون عن كفرهم، فلم ينجعْ فيهم ولا أفاد، بل استمرُّوا على الظُّلم والفساد.

﴿١٣١﴾ ﴿فإذا جاءتهم الحسنةُ﴾؛ أي: الخصب وإدرار الرزق، ﴿قالوا لنا هٰذه﴾؛ أي: نحن مستحقُّون لها، فلم يشكروا اللّٰه عليها، ﴿وإن تصِبْهم سيئةٌ﴾؛ أي: قحط وجدب، ﴿يطَّيَّروا بموسى ومن معه﴾؛ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى واتباع بني إسرائيل له. قال اللّٰه تعالى: ﴿ألا إنَّما طائِرُهم عند اللّٰه﴾؛ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذٰلك، بل أكثرهم لا يعلمونَ؛ أي: فلذٰلك قالوا ما قالوا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وقالوا﴾: مبيِّنين لموسى أنهم لا يزالون ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتِنا به من آيةٍ لِتَسْحَرَنا بها فما نحنُ لك بمؤمنين﴾؛ أي: قد تقرَّر عندنا أنك ساحرٌ؛ فمهما جئت بآية؛ جزمنا أنها سحرٌ؛ فلا نؤمن لك ولا نصدِّق. وهٰذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿١٣٣﴾ ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾؛ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم

---

(١) في (ب): «مرجياً الفرج».

وزروعهم وأضرَّهم[١] ضرراً كثيراً، ﴿والجراد﴾: فأكل ثمارَهم وزروعَهم ونباتهم، ﴿والقُمَّلَ﴾: قيل: إنه الدُّباء؛ أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿والضفادع﴾: فملأت أوعيتهم وأقلقتهم وآذتهم أذيَّة شديدةً، ﴿والدم﴾: إما أن يكونَ الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين: إنَّ ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلَّا دماً ولا يطبخون [إلّا بدم]. ﴿آياتٍ مفصَّلاتٍ﴾؛ أي: أدلَّة وبيِّنات على أنَّهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حقٌّ وصدقٌ. ﴿فاستكبروا﴾: لما رأوا الآيات، ﴿وكانوا﴾: في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾: فلذٰلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغيِّ والضلال.

﴿١٣٤﴾ ﴿ولما وقع عليهم الرِّجْزُ﴾؛ أي: العذاب؛ يحتمل أنَّ المراد به الطاعون كما قاله كثيرٌ من المفسِّرين، ويحتمل أن يُراد به ما تقدَّم من الآيات الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدَّم؛ فإنها رجزٌ وعذابٌ، وإنهم كلَّما أصابهم واحد منها؛ ﴿قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عَهدَ عندك﴾؛ أي: تشفَّعوا بموسى بما عَهدَ الله عنده من الوحي والشرع. ﴿لئن كشفتَ عنَّا الرِّجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل﴾: وهم في ذٰلك كذبةٌ لا قصدَ لهم إلا زوالُ ما حلَّ بهم من العذاب، وظنُّوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿١٣٥﴾ ﴿فلما كشَفْنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجل هم بالغوهُ﴾؛ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبَّداً، وإنما هو موقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾: العهد الذي عاهدوا عليه موسى ووعدوه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل؛ فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمرُّوا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿١٣٦﴾ ﴿فانتقمنا منهم﴾؛ أي: حين جاء الوقت الموقَّت لهلاكهم؛ أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعُهم هو وجنوده. ﴿فأرسلَ فرعونُ في المدائن حاشرين﴾ يجمعونَ الناس لِيَتْبَعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إنَّ هٰؤلاء لَشِرْذمةٌ قليلون. وإنَّهم لنا لغائظونَ. وإنَّا لجميعٌ حاذرون. فأخرَجْناهم من جناتٍ وعيون. وكنوزٍ ومقام كريم. كذٰلك وأورَثْناها بني إسرائيل. فأتْبعوهم مشرقينَ. فلما تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى إنا لَمُدْرَكونَ. قال

[١] في (ب): «وأضرّ بهم».

كلاً إن معي ربي سيهدين. فأوحَيْنا إلى موسى أنِ اضرِبْ بعصاك البحرَ فانفلق فكان كلُّ فرقٍ كالطودِ العظيم. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين﴾. وقال هنا: ﴿فأغرَقْناهم في اليمِّ بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله، وإعراضهم عمَّا دلَّت عليه من الحقِّ.

﴿١٣٧﴾ ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفونَ﴾: في الأرض؛ أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب، أورثهم الله ﴿مشارقَ الأرض ومغاربها﴾: والمراد بالأرض ها هنا أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين؛ أي: ملَّكهم الله جميعها ومكَّنهم فيها، ﴿التي باركنا فيها وتمَّتْ كلمةُ ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾: حين قال لهم موسى: ﴿استعينوا باللَّهِ واصبِروا إنَّ الأرضَ للَّه يورِثها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين﴾، ﴿ودمَّرْنا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُهُ﴾: من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة، ﴿وما كانوا يعرِشون﴾: فتلك بيوتهم [خاوية] بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

﴿١٣٨﴾ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: بعدما أنجاهم الله من عدوِّهم فرعون وقومه وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون، ﴿فأتَوْا﴾؛ أي: مرُّوا ﴿على قوم يعكُفون على أصنام لهم﴾؛ أي: يقيمون عندها ويتبرَّكون بها ويعبُدونها، فقالوا من جهلهم وسَفَهِهم لنبيِّهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿يا موسى اجعلْ لنا إلٰهاً كما لهم آلهةٌ﴾؛ أي: اشرع لنا أن نتَّخذ أصناماً آلهة كما اتَّخذها هؤلاء، فقال لهم موسى: ﴿إنَّكم قومٌ تجهلونَ﴾: وأيُّ جهل أعظم من جَهِل ربَّه وخالقَه، وأراد أن يسوِّيَ به غيره ممَّن لا يملِكُ نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟!

﴿١٣٩﴾ ولهٰذا قال لهم موسى: ﴿إنَّ هٰؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملونَ﴾: لأن دعاءهم إياها باطلٌ وهي باطلة بنفسها؛ فالعمل باطلٌ وغايته باطلةٌ.

﴿١٤٠﴾ ﴿قال أغيرَ الله أبغيكم إلٰهاً﴾؛ أي: أطلب لكم إلٰهاً غير الله المألوه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وهو فضَّلكم على العالمين﴾: فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكرِ، وذٰلك بإفراد الله وحدَه[١] بالعبادة والكفرِ بما يُدعى من دونه.

---

(١) في (ب): «وذلك بإفراده وحده».

﴿١٤١﴾ ثم ذكَّرهم ما امتنَّ اللّه به عليهم فقال: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعونَ﴾؛ أي: من فرعون وآله، ﴿يسومونكم سوءَ العذابِ﴾؛ أي: يوجِّهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يذبحون ﴿أبناءكم ويَسْتَحيون نساءَكم وفي ذٰلِكم﴾؛ أي: النجاة من عذابهم، ﴿بلاءٌ من ربِّكم عظيمٌ﴾؛ أي: نعمةٌ جليلةٌ ومنحةٌ جزيلةٌ، أو وفي ذٰلك العذاب الصادر منهم لكم بلاءٌ من ربِّكم عليكم عظيم.

﴿١٤٢﴾ فلما ذكَّرهم موسى ووعظهم؛ انتَهَوْا عن ذٰلك، ولما أتمَّ اللّه نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛ أرادَ تبارك وتعالى أن يُتِمَّ نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعيَّة والعقائد المرضيَّة، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمَّها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعدَّ موسى ويتهيَّأ لوعد اللّه ويكون لنزولها موقع كبير لديهم وتشوق إلى إنزالها، ولما ذهب موسى إلى ميقات ربِّه، قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُفْني في قَومي﴾؛ أي: كنْ خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وأصلِحْ﴾؛ أي: اتَّبع طريق الصلاح، ﴿ولا تتَّبعْ سبيلَ المفسدين﴾: وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿١٤٣﴾ ﴿ولمَّا جاء موسى لميقاتنا﴾: الذي وقَّتْناه له لإنزال الكتاب، ﴿وكلَّمَه ربُّه﴾: بما كلَّمه من وحيه وأمره ونهيه؛ تشوَّق إلى رؤية اللّه، ونَزَعَتْ نفسُه لذٰلك حبًّا لربِّه ومودَّة لرؤيته، فـ﴿قال ربِّ أرني أنظرْ إليك﴾، فقال اللّه: ﴿لن تَراني﴾؛ أي: لن تقدِرَ الآن على رؤيتي؛ فإنَّ اللّه تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هٰذه الدار على نشأة لا يقدرون بها ولا يثبتون لرؤية اللّه، وليس في هٰذا دليلٌ على أنَّهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلَّت النصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة على أن أهل الجنة يرون ربَّهم تبارك وتعالى ويتمتَّعون بالنظر إلى وجهه الكريم. وأنه يُنْشِئُهم نشأةً كاملةً يقدرون معها على رؤية اللّه تعالى، ولهٰذا رتَّب اللّه الرؤية في هٰذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعاً لموسى في عدم إجابتِهِ للرؤية: ﴿ولٰكِنِ انظرْ إلى الجبل فإنِ استقرَّ مكانَه﴾: إذا تجلَّى اللّهُ له، ﴿فسوف تراني فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل﴾: الأصمِّ الغليظ، ﴿جعله دكًّا﴾؛ أي: انهال مثل الرمل انزعاجاً من رؤية اللّه وعدم ثبوتِ لها، ﴿وخرَّ موسى﴾: حين رأى ما رأى، صَعِقاً فتبيَّن له حينئذٍ أنه إذا لم يثبت الجبلُ لرؤية اللّه؛ فموسى أولى أن لا يثبتَ لذٰلك، واستغفر ربَّه لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافقْ موضعاً، و﴿قالَ سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتعظيماً عما لا يليق بجلالك، ﴿تبتُ إليك﴾: من جميع الذنوب وسوء الأدب معك، ﴿وأنا

أول المؤمنين﴾؛ أي: جدَّد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمَّل اللّهُ له مما كان يجهله قبل ذٰلك.

﴿١٤٤﴾ فلما منعه اللّه من رؤيته بعدما كان متشوقاً إليها؛ أعطاه خيراً كثيراً، فقال: ﴿يا موسى إنِّي اصطفيتُك على الناس﴾؛ أي: اخترتك واجتبيتك وفضَّلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾: التي لا أجعلها ولا أخصُّ بها إلا أفضل الخلق، ﴿وبكلامي﴾: إيَّاك من غير واسطة، وهٰذه فضيلة اختُصَّ بها موسى الكليم، وعُرِف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخُذْ ما آتيتُك﴾: من النعم، وخذ ما آتيتُك من الأمر والنهي بانشراح صدرٍ، وتلقَّه بالقَبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾: للّه على ما خصَّك وفضَّلك.

﴿١٤٥﴾ ﴿وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيء﴾: يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾: ترغِّب النفوس في أفعال الخير وترهِّبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكلِّ شيء﴾: من الأحكام الشرعيَّة والعقائد والأخلاق والآداب، ﴿فخذْها بقوَّةٍ﴾؛ أي: بجدٍّ واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمُرْ قومَك يأخذوا بأحسنها﴾: وهي الأوامر الواجبة والمستحبَّة؛ فإنها أحسنها. وفي هٰذا دليلٌ على أن أوامر اللّه في كل شريعة كاملة عادلة حسنة. ﴿سأريكم دارَ الفاسقينَ﴾: بعدما أهلكهم اللّه وأبقى ديارهم عبرةً بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفَّقون المتواضعون.

﴿١٤٦﴾ وأما غيرهم؛ فقال عنهم: ﴿سأصرِفُ عن آياتي﴾؛ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسيَّة والفهم لآيات الكتاب، ﴿الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحقِّ﴾؛ أي: يتكبَّرون على عباد اللّه وعلى الحقِّ وعلى من جاء به؛ فمن كان بهٰذه الصفة؛ حَرَمَهُ اللّه خيراً كثيراً، وخَذَلَه، ولم يَفْقَهْ من آيات اللّه ما ينتفع به، بل ربَّما انقلبت عليه الحقائقُ واستحسن القبيحَ، ﴿وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها﴾: لإعراضهم واعتراضهم ومحادَّتهم للّه ورسوله، ﴿وإن يَرَوْا سبيلَ الرُّشد﴾؛ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى اللّه وإلى دار كرامته، ﴿لا يتَّخذوه [سبيلاً]﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه، ﴿وإن يَرَوْا سبيلَ الغَيِّ﴾؛ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء، ﴿يتَّخذوه سبيلاً﴾. والسبب في انحرافهم هٰذا الانحراف، ﴿ذٰلك بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾: فردُّهم لآيات اللّه وغفلتُهم عمَّا يُراد بها واحتقارهم لها هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك طريق الرُّشْدِ ما أوجب.

﴿١٤٧﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾: العظيمة الدالَّة على صحَّة ما أرسلنا به رسلنا، ﴿ولقاء الآخرة حَبِطَتْ أعمالُهم﴾: لأنَّها على غير أساس، وقد فقد شرطها، وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه. ﴿هل يُجزَوْنَ﴾: في بطلان أعمالهم وحصول ضدِّ مقصودهم ﴿إلَّا ما كانوا يعملونَ﴾: فإن أعمال مَنْ لا يؤمن باليومِ الآخر لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غايةٌ تنتهي إليه؛ فلذٰلك اضمحلَّت وبطلت.

﴿١٤٨﴾ ﴿واتَّخذ قوم موسى مِن بعدِهِ من حُلِيِّهم عجلاً جسداً﴾: صاغه السامِرِيُّ وألقى عليه قبضةً من أثر الرسول فصار ﴿له خُوارٌ﴾ وصوتٌ، فعبدوه واتَّخذوه إلٰهاً، وقال: هٰذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فنسي موسى، وذهب يطلبه، وهٰذا من سفههم وقلة بصيرتهم؛ كيف اشتبه عليهم ربُّ الأرض والسماوات بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهٰذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتيَّة ولا الفعليَّة ما يوجِب أن يكون إلٰهاً: ﴿ألم يَرَوْا أنَّه لا يكلِّمهم﴾؛ أي: وعدم الكلام نقصٌ عظيمٌ؛ فهم أكمل حالة من هٰذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلَّم، ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾؛ أي: لا يدلُّهم طريقاً دينيًا ولا يحصِّل لهم مصلحةً دنيويَّةً؛ لأن من المتقرِّر في العقول والفطر أنَّ اتِّخاذَ إلٰهٍ لا يتكلم ولا ينفع ولا يضرُّ من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهٰذا قال: ﴿اتَّخذوه وكانوا ظالمينَ﴾: حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً. وفيها دليلٌ على أنَّ من أنكر كلام الله؛ فقد أنكر خصائص إلٰهيَّة الله تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليلٌ على عدم صلاحيَّة الذي لا يتكلَّم للإلٰهيَّة.

﴿١٤٩﴾ ﴿ولمَّا﴾: رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هٰذه الحال، وأخبرهم بضلالهم؛ ندموا، و﴿سُقِطَ في أيديهم﴾؛ أي: من الهمِّ والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا﴾: فتنصَّلوا إلى الله وتضرَّعوا، ﴿وقالوا لئن لم يرحَمْنا ربُّنا﴾: فيدُلَّنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفِّقْنا لصالح الأعمال، ﴿ويغفِرْ لنا﴾: ما صدر منا من عبادة العجل؛ ﴿لَنَكونَنَّ من الخاسرينَ﴾: الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿١٥٠﴾ ﴿ولما رجع موسى إلى قومِهِ غضبان أسِفاً﴾؛ أي: ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم لتمام غيرته عليه [الصلاة و] السلام وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بئسَما خَلَفْتُموني من بعدي﴾؛ أي: بئس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم؛ فإنها حالةٌ تفضي إلى الهلاك الأبدي والشقاء السرمديِّ. ﴿أعَجِلْتُم أمرَ ربِّكُم﴾: حيث وَعَدَكم بإنزال الكتاب فبادرتُم برأيكم الفاسد إلى هٰذه الخصلة القبيحة،

﴿وألقى الألواحَ﴾؛ أي: رماها من الغضب، ﴿وأخذ برأس أخيه﴾: هارونَ ولحيتِهِ، ﴿يجرُّه إليه﴾: وقال له: ﴿ما منعك إذ رأيتَهم ضلُّوا. أن لا تتَّبِعَني أفعصيتَ أمري﴾: لك بقولي: ﴿اخلُفْني في قومي وأصْلِحْ ولا تتَّبِعْ سبيلَ المفسدين﴾؟! فقال: ﴿يا ابنَ أمَّ لا تأخُذْ بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ أن تقولَ فرَّقْتَ بين بني إسرائيل ولم ترقُبْ قولي﴾ و ﴿قال﴾ هنا[1]: ﴿ابنَ أمَّ﴾: هٰذا ترقيقٌ لأخيه بذكر الأمِّ وحدها، وإلَّا فهو شقيقه لأمِّه وأبيه. ﴿إنَّ القوم استضعفوني﴾؛ أي: احتقروني حين قلتُ لهم: يا قوم! إنما فُتِنْتُم به، وإنَّ ربَّكم الرحمٰن؛ فاتَّبِعوني وأطيعوا أمري، ﴿وكادوا يَقْتُلونَني﴾؛ أي: فلا تظنَّ بي تقصيراً، ﴿فلا تُشْمِتْ بيَ الأعداء﴾: بنهرِك لي ومسِّك إيَّايَ بسوءٍ فإنَّ الأعداء حريصون على أن يجدوا عليَّ عثرةً أو يطَّلعوا لي على زَلَّة، ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾: فتعامِلُني معاملتهم.

﴿١٥١﴾ فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعِهِ بأخيه قبل أن يعلم براءتَهُ مما ظنَّه فيه من التقصير، و ﴿قال ربِّ اغفِرْ لي ولأخي﴾: هارون، ﴿وأدخِلْنا في رحمتِكَ﴾؛ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيطُ بنا من كل جانب؛ فإنها حصنٌ حصينٌ من جميع الشرور وثَمَّ كلُّ خير وسرور. ﴿وأنت أرحمُ الراحمين﴾؛ أي: أرحم بنا من كلِّ راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمَّهاتنا وأولادنا وأنفسنا.

﴿١٥٢﴾ قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إنَّ الذين اتَّخذوا العجل﴾؛ أي: إلٰهاً، ﴿سينالُهم غضبٌ من ربِّهم وذلَّةٌ في الحياة الدُّنيا﴾: كما أغضبوا ربَّهم واستهانوا بأمره. ﴿وكذٰلك نجزي المفترين﴾: فكلُّ مفترٍ على الله كاذب على شرعه متقوِّل عليه ما لم يقلْ؛ فإنَّ له نصيباً من الغضب من الله والذُّلِّ في الحياة الدنيا.

﴿١٥٣﴾ وقد نالهم غضبُ الله حيث أمرهم أن يقتُلوا أنفسهم، وأنَّه لا يرضى الله عنهم إلَّا بذٰلك، فقتل بعضُهم بعضاً، وانجلت المعركة على قتلى كثيرةٍ، ثم تاب الله عليهم بعد ذٰلك، ولهٰذا ذكر حكماً عامًّا يدخُلون فيه هم وغيرهم، فقال: ﴿والذين عمِلوا السيئاتِ﴾: من شرك وكبائر وصغائر، ﴿ثم تابوا من بعدها﴾: بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها وعزموا على أن لا يعودوا، ﴿وآمنوا﴾: بالله وبما أوجبَ الله الإيمان به، ولا يتمُّ الإيمان إلا بأعمال القلوب وأعمال الجوارح المترتِّبة

(١) في (ب): «قال هنا: قال».

على الإيمان. ﴿إنَّ ربَّك من بعدها﴾؛ أي: بعد هٰذه الحالة ـ حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ـ ﴿لغفورٌ﴾: يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قُراب الأرض. ﴿رحيمٌ﴾: بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿١٥٤﴾ ﴿ولما سَكَتَ عن موسى الغضبُ﴾؛ أي: سكن غضبه وتراجعت نفسُهُ، وعَرَفَ ما هو فيه؛ اشتغل بأهمِّ الأشياء عنده، فَأخَذَ ﴿الألواحَ﴾: التي ألقاها، وهي ألواحٌ عظيمة المقدار جليلةٌ ﴿في نُسْخَتِها﴾؛ أي: مشتملة ومتضمِّنة ﴿هدىً ورحمةٌ﴾؛ أي: فيها الهدى من الضَّلالة، وبيان الحقِّ من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولٰكن؛ ليس كل أحدٍ يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبلُ ذٰلك، وينقاد له، ويتلقَّاه بالقَبول، ﴿الذين هُم لربِّهم يرهَبونَ﴾؛ أي: يخافون منه ويخشونه، وأما مَنْ لم يخفِ الله ولا المقام بين يديه؛ فإنه لا يزداد بها إلا عتوًّا ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿١٥٥﴾ ﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل، وتراجعوا إلى رُشْدِهم، ﴿اختار موسى﴾ منهم ﴿سبعين رجلاً﴾: من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربِّهم، ووعدهم الله ميقاتاً يحضُرون فيه، فلما حضروا؛ قالوا: يا موسى! أرِنا الله جهرةً! فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأساؤوا الأدب معه، فأخذتهم الرجفةُ، فصعقوا وهلكوا، فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرَّع إلى الله ويتبتَّل ويقول: ﴿ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ﴾: أن يحضُروا، ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين. ﴿أتُهْلِكُنا بما فعل السفهاءُ منَّا﴾؛ أي: ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرَّع إلى الله، واعتذر بأنَّ المتجرِّئين على الله ليس لهم عقولٌ كاملةٌ تردعُهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنةٌ يخطر بها الإنسان ويخاف من ذهاب دينه، فقال: ﴿إنْ هي إلَّا فتنتُك تُضِلُّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاءُ أنت وَلِيُّنا فاغْفِرْ لنا وارْحَمْنا وأنت خير الغافرين﴾؛ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضَّل، فكأنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا ربِّ بالقصد الأول لنا كلِّنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حَضَرَه عقله ورشده وتمَّ على ما وهبته من التوفيق؛ فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضَعُفَ عقلُه وسَفِه رأيُهُ وصرفته الفتنة؛ فهو الذي فعل ما فعل لذينك السببين، ومع هٰذا؛ فأنت أرحم الراحمين وخير الغافرين؛ فاغفر لنا وارحمنا! فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم.

﴿١٥٦﴾ وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتبْ لنا في هٰذه الدنيا حسنةً﴾: من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح، ﴿وفي الآخرة﴾: حسنة، وهي ما أعد اللّه لأوليائه الصالحين من الثواب. ﴿إنَّا هُدْنا إليك﴾؛ أي: رجعنا مقرِّين بتقصيرنا منيبين في جميع أمورنا، ﴿قال﴾ اللّه تعالى: ﴿عذابي أصيبُ به من أشاءُ﴾: ممَّن كان شقيًّا متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعتْ كلَّ شيء﴾: من العالم العلويِّ والسفليِّ؛ البر والفاجر، المؤمن والكافر؛ فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة اللّه وغمره فضله وإحسانه، ولٰكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهٰذا قال عنها: ﴿فسأكتُبها للذين يتَّقون﴾: المعاصي صغارها وكبارها، ﴿ويؤتون الزَّكاة﴾: الواجبة مستحقيها، ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

﴿١٥٧﴾ ومن تمام الإيمان بآيات اللّه معرفة معناها والعمل بمقتضاها، ومن ذٰلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه: ﴿الذين يتَّبِعون الرسول النبيَّ الأميَّ﴾: احترازٌ عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهٰذا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبيِّ محمد ﷺ شرطٌ في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتَّبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها اللّه لهم، ووصفه بالأمي لأنَّه من العرب الأمة الأميَّة التي لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب. ﴿الذي يجِدونَهُ مكتوباً عندَهم في التوراة والإنجيل﴾: باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلِّها ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يأمُرُهم بالمعروف﴾: وهو كل ما عُرِفَ حسنُهُ وصلاحه ونفعه. ﴿وينهاهم عن المنكر﴾: وهو كلُّ ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والبر والنصيحة وما أشبه ذٰلك، وينهى عن الشرك باللّه وقتل النفوس بغير حق والزِّنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخلق والكذب والفجور ونحو ذٰلك؛ فأعظم دليل يدلُّ على أنه رسول اللّه ما دعا إليه وأمر به ونهى عنه وأحلَّه وحرَّمه؛ فإنه يُحِلُّ الطيبات: من المطاعم والمشارب والمناكح. ﴿ويحرِّمُ عليهم الخبائث﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال. ﴿ويَضَعُ عنهم إصْرَهُم والأغلال التي كانت عليهم﴾؛ أي: ومِنْ وَصْفِهِ أنَّ دينه سهلٌ سَمْحٌ ميسَّر لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فالذين آمنوا به وعزَّروه﴾؛ أي: عظَّموه وبجَّلوه، ﴿ونصروه واتَّبعوا النور الذي

أنزلَ معه﴾: وهو القرآن الذي يُستضاء به في ظلمات الشَّكِّ والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات. ﴿أولٰئك هم المفلحون﴾: الظافرون بخير الدُّنيا والآخرة، والناجون من شرِّهما؛ لأنَّهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأما مَن لم يؤمنْ بهٰذا النبيِّ الأميِّ، ويعزِّره، وينصره، ولم يتَّبع النور الذي أنزل معه؛ فأولٰئك هم الخاسرون.

﴿١٥٨﴾ ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهَّم متوهِّم أن الحكم مقصورٌ عليهم، أتى بما يدلُّ على العموم، فقال: ﴿قلْ يا أيُّها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً﴾؛ أي: عربيّكم وعجميّكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، ﴿الذي له ملكُ السمٰوات والأرض﴾: يتصرَّف فيهما بأحكامه الكونيَّة والتدابير السلطانيَّة وبأحكامه الشرعيَّة الدينيَّة، التي من جملتها أن أرسل إليكم رسولاً عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذِّركم من كلِّ ما يباعدكم منه ومن دار كرامته. ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله وحده لا شريك له، ولا تُعرَفُ عبادته إلا من طريق رسله. ﴿يحيي ويميتُ﴾؛ أي: من جملة تدابيره الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحدٌ، التي جعل الله الموت جسراً ومعبراً، يُعبَرُ منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدَّق الرسول محمداً ﷺ قطعاً. ﴿فآمنوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأميِّ﴾: إيماناً في القلب متضمناً لأعمال القلوب والجوارح، ﴿الذي يؤمِنُ بالله وكلماته﴾؛ أي: آمنوا بهٰذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿واتَّبِعوه لعلكم تهتدونَ﴾: في مصالِحِكم الدينيَّة والدنيويَّة؛ فإنكم إذا لم تتَّبعوه؛ ضللتم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة، ﴿يهدون بالحقِّ وبه يعدِلونَ﴾؛ أي: يهدون [به] الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدِلون به بينهم في الحكم بينهم قضاياهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْناهم أئمةً يهدون بأمرِنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾.

وفي هٰذا فضيلةٌ لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأنَّ الله تعالى جعل منهم هُداةً يهدون بأمره. وكأنَّ الإتيان بهٰذه الآية الكريمة فيه نوعُ احتراز مما تقدَّم؛ فإنه تعالى ذكر فيما تقدَّم جملةً من معايب بني إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهَّم متوهِّم أن هٰذا يعمُّ جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

﴿١٦٠﴾ ﴿وقطَّعناهم﴾؛ أي: قسَّمناهم ﴿اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾؛ أي: اثنتي

عشرة قبيلةً متعارفةً متوالفةً، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة، ﴿وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومُهُ﴾؛ أي: طلبوا منه أن يدعو اللّه تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذٰلك لأنَّهم ـ واللّه أعلم ـ في محلٍّ قليل الماء، فأوحى اللّه لموسى إجابة لِطلبَتِهِم: ﴿أنِ اضربْ بعصاك الحجرَ﴾: يُحتمل أنه حجرٌ معيَّن، ويُحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان، فضربه، ﴿فانبَجَستْ﴾؛ أي: انفجرت من ذٰلك الحجر ﴿اثنتا عشرة عيناً﴾: جارية سارحة، ﴿قد علم كلُّ أناسٍ مشرَبَهم﴾؛ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكلٍّ منهم عيناً، فعلموها، واطمأنُّوا واستراحوا من التعب والمزاحمة، وهٰذا من تمام نعمة اللّه عليهم، ﴿وظلَّلْنا عليهم الغمام﴾: فكان يستُرهم من حرِّ الشمس، ﴿وأنزلنا عليهم المنَّ﴾: وهو الحلوى، ﴿والسَّلوى﴾: وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذِّها، فجمع اللّه لهم بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم على وجه الراحة والطمأنينة، وقيل لهم: ﴿كلوا من طيِّبات ما رَزَقْناكم وما ظلمونا﴾: حين لم يشكُروا اللّه ولم يقوموا بما أوجب اللّه عليهم. ﴿ولٰكن كانوا أنفسَهم يظلمونَ﴾: حيث فوَّتوها كلَّ خير وعرَّضوها للشرِّ والنقمة، وهٰذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿١٦١﴾ ﴿وإذ قيلَ لهم اسكنوا هٰذه القريةَ﴾؛ أي: ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي إيلياء، ﴿وكلوا منها حيث شئتُم﴾؛ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش؛ فلذٰلك أمرهم اللّه أن يأكلوا منها حيث شاؤوا، ﴿وقولوا﴾: حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطُطْ عنَّا خطايانا واعفُ عنا، ﴿وادخُلوا الباب سجَّداً﴾؛ أي خاضعين لربكم مستكينين لعزَّته شاكرين لنعمته؛ فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذٰلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿نغفر لكم خطيئاتِكُم سنزيدُ المحسنينَ﴾: من خير الدنيا والآخرة.

﴿١٦٢﴾ فلم يمتثلوا هٰذا الأمر الإلٰهيَّ، بل بدَّل الذين ظلموا منهم؛ أي: عصوا اللّه واستهانوا بأمره ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾: فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم حطة: حبَّة في شعيرة، وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبديلهم للفعل من باب أولى، ولهٰذا دخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِم، ﴿فأرسلنا عليهم﴾: حين خالفوا أمر اللّه وعَصَوْه ﴿رِجزاً من السماء﴾؛ أي: عذاباً شديداً إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماويَّة، وما ظلمهم اللّه بعقابه، وإنَّما

كان ذلك ﴿بما كانوا يظلمونَ﴾[(١)].

﴿١٦٣﴾ ﴿واسألهُم﴾؛ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عن القرية التي كانت حاضرةَ البحر﴾؛ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إيَّاهم، ﴿إذ يَعْدونَ في السبتِ﴾: وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظِّموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاهُم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم يومَ سبتهم شُرَّعاً؛ أي: كثيرة طافية على وجه البحر. ﴿ويوم لا يَسْبِتونَ﴾؛ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لا تأتيهم﴾؛ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً. ﴿كذٰلك نبلوهُم بما كانوا يفسُقون﴾: ففسقُهم هو الذي أوجب أن يبتلِيَهم[(٢)] الله وأن تكون لهم هٰذه المحنة، وإلَّا؛ فلو لم يفسُقوا؛ لعافاهم الله، ولما عرَّضهم للبلاء والشرِّ.

﴿١٦٤﴾ فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك؛ فإذا جاءت يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشِّباك؛ لم يأخذوها في ذٰلك اليوم؛ فإذا جاء يوم الأحد؛ أخذوها، وكثر فيهم ذٰلك، وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتَدَوا وتجرَّؤوا وأعلنوا بذٰلك. وفرقةٌ أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم. وفرقةٌ اكتفتْ بإنكار أولٰئك عليهم ونهيهم لهم وقالوا: ﴿لم تَعِظونَ قوماً اللهُ مهلِكُهم أو معذِّبهم عذاباً شديداً﴾: كأنَّهم يقولون: لا فائدة في وعظ مَن اقتحم محارم الله ولم يُصْغِ للنصيح بل استمرَّ على اعتدائه وطغيانه؛ فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أوَ عذاب شديد. فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿معذرةً إلى ربِّكم﴾؛ أي: لنُعْذَرَ فيهم، ﴿ولعلَّهم يتَّقون﴾؛ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية؛ فلا نيأس من هدايتهم؛ فربَّما نجع فيهم الوعظ وأثر فيهم اللوم، وهٰذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة وإقامة حجةٍ على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذٰلك الأمر والنهي.

﴿١٦٥﴾ ﴿فلما نسوا ما ذُكِروا به﴾؛ أي: تركوا ما ذُكِّروا به واستمروا على غَيِّهم واعتدائهم، ﴿أنجَينا الذين ينهون عن السوء﴾: وهٰكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ﴿وأخذنا الذين

---

(١) في (ب): «﴿بما كانوا يفسقون﴾: أي يخرجون عن طاعة الله إلى معصيته من غير ضرورة ألجأتهم ولا داعٍ دعاهم سوى الخبث والشرِّ الذي كان كامناً في نفوسهم». وقد أعرض الشيخ عن ذكر هذه العبارة في (أ). [حيث فسَّرَ الآية: ﴿يفسقون﴾ وصواب الآية ﴿يظلمون﴾. والله أعلم].

(٢) في (ب): «أن يبليهم».

ظلموا﴾: وهم الذين اعتدَوْا في السبت ﴿بعذابٍ بئيس﴾؛ أي: شديد ﴿بما كانوا يفسُقون﴾.

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: لم تعِظون قوماً اللّه مهلكهم؛ فاختلف المفسرون في نجاتِهِم وهلاكهم، والظاهرُ أنهم كانوا من الناجين؛ لأنَّ اللّه خصَّ الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدلَّ على أن العقوبة خاصَّة بالمعتدين في السبت، ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضُ كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تَعِظونَ قوماً اللّه مهلِكُهم أو معذِّبهم عذاباً شديداً﴾: فأبدَوْا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنَّهم كارهون أشدَّ الكراهة لفعلهم، وأنَّ اللّه سيعاقبهم أشدَّ العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فلما عَتَوْا عما نُهوا عنه﴾؛ أي: قسوا فلم يلينوا ولا اتَّعظوا، ﴿قلنا لهم﴾ قولاً قدريًّا: ﴿كونوا قردةً خاسئين﴾: فانقلبوا بإذن اللّه قردةً وأبعدهم اللّه من رحمته.

﴿١٦٧﴾ ثم ذكر ضَرْبَ الذلة والصغار على من بقي منهم، فقال: ﴿وإذ تأذَّنَ ربُّك﴾؛ أي: أعلم إعلاماً صريحاً، ﴿ليبعثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومُهم سوء العذاب﴾؛ أي: يهينُهم ويذلُّهم، ﴿إنَّ ربَّك لسريع العقاب﴾: لمن عصاه، حتى إنه يعجِّل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنَّه لغفورٌ رحيم﴾: لمن تاب إليه وأناب؛ يغفر له الذُّنوب، ويستُر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبَّل منه الطاعات ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل اللّه بهم ما وعدهم به؛ فلا يزالون في ذلٍّ وإهانة، تحت حكمِ غيرهم، لا تقوم لهم رايةٌ ولا ينصر لهم عَلَمٌ.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطَّعناهم في الأرض أمماً﴾؛ أي: فرَّقناهم ومزَّقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾: القائمون بحقوق اللّه وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾؛ أي: دون الصلاح: إما مقتصدون، وإما الظالمون[1] لأنفسهم. ﴿وبَلَوْناهم﴾: على عادتنا وسنَّتنا ﴿بالحسنات والسيئات﴾؛ أي: باليُسْر والعُسْر، ﴿لعلَّهم يرجِعون﴾: عما هم عليه مقيمون من الرَّدى، ويراجعون ما خُلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصدٍ.

﴿١٦٩﴾ حتى خلف ﴿من بعدِهم خَلْفٌ﴾: زاد شرُّهم ﴿ورِثوا﴾: بعدهم

---

(١) في (ب): «ظالمون».

﴿الكتابَ﴾: وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرَّفون فيه بأهوائهم، وتُبْذَلُ لهم الأموال ليفتُوا ويحكموا بغير الحقِّ، وفشت فيهم الرشوة. ﴿يأخُذون عَرَضَ هٰذا الأدنى ويقولونَ﴾: مقرِّين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَيُغْفَرُ لنا﴾: وهٰذا قول خالٍ من الحقيقة؛ فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة؛ فلو كان ذٰلك؛ لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولٰكنهم إذا أتاهم عرضٌ آخر ورشوةٌ أخرى؛ يأخذوه، فاشتروا بآيات اللّه ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير! قال اللّه تعالى في الإنكار عليهم وبيان جراءتهم: ﴿ألم يؤخَذْ عليهم ميثاقُ الكتاب أن لا يقولوا على اللّه إلا الحقَّ﴾: فما بالُهم يقولون عليه غير الحقِّ اتِّباعاً لأهوائهم وميلاً مع مطامعهم؟! ﴿و﴾ الحالُ أنهم قد ﴿دَرَسوا ما فيه﴾: فليس عليهم فيه إشكالٌ، بل قد أتوا أمرهم متعمِّدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهٰذا أعظمُ للذنب وأشدُّ للَّوم وأشنع للعقوبة، وهٰذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإيثار الحياة الدُّنيا على الآخرة، ولهٰذا قال: ﴿والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتَّقون﴾: ما حرَّم اللّه عليهم من المآكل التي تُصاب وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل اللّه وغير ذٰلك من أنواع المحرمات. ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقولٌ توازن بين ما ينبغي إيثاره وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه والتقديم له على غيره؟! فخاصيَّة العقل النظر للعواقب، وأما من نَظَرَ إلى عاجل طفيف منقطع يفوِّت نعيماً عظيماً باقياً؛ فأنّى له العقل والرأي؟!

﴿١٧٠﴾ وإنما العقلاءُ حقيقة من وصفهم اللّه بقوله: ﴿والذين يمسِّكون بالكتاب﴾؛ أي: يتمسَّكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم، ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب وأفراح الأرواح وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسُّك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهٰذا خصها[(١)] بالذِّكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان وإقامتها داعيةٌ لإقامة غيرها من العبادات. ولما كان عملهم كلُّه إصلاحاً؛ قال تعالى: ﴿إنّا لا نُضيعَ أجر المصلحين﴾: في أقوالهم وأعمالهم ونيَّاتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهٰذه الآية وما أشبهها دلَّت على أنَّ اللّه بعث رسله عليهم الصلاة والسلام

(١) في (ب): «ولهذا خصَّ اللّهُ».

بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنَّهم بُعِثوا بصلاح الدارين؛ فكلُّ مَن كان أصلح؛ كان أقرب إلى اتِّباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿**وإذ نَتَقْنا الجبل فوقَهم**﴾: حين امتنعوا من قَبول ما في التوراة، فألزمهم الله العمل، وَنَتقَ فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم: ﴿**كأنه ظُلَّة وظنُّوا أنه واقعٌ بهم**﴾، وقيل لهم: ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوَّة**﴾؛ أي: بجدٍّ واجتهاد. ﴿**واذكُروا ما فيه**﴾: دراسة ومباحثة واتصافاً بالعمل به، ﴿**لعلَّكم تتَّقون**﴾: إذا فعلتُم ذٰلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿١٧٢ ـ ١٧٣﴾ يقول تعالى: ﴿**وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدمَ من ظهورهم ذُرِّيَّتهم**﴾؛ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرناً بعد قرنٍ. ﴿**و**﴾: حين أخرجهم من بطون أمَّهاتهم وأصلاب آبائهم، ﴿**أشهدهم على أنفسِهِم ألستُ بربِّكم**﴾؛ أي: قرَّرهم بإثبات ربوبيَّته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربُّهم وخالقهم ومليكهم. قالوا: بلى؛ قد أقررنا بذٰلك؛ فإنَّ الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم، فكلُّ أحدٍ فهو مفطورٌ على ذٰلك، ولٰكن الفطرة قد تُغيَّر وتُبدَّل بما يطرأ على العقول والعقائد الفاسدة[1]، ولهٰذا ﴿**قالوا بلى شَهِدْنا أن تَقولوا يوم القيامةِ إنَّا كنَّا عن هٰذا غافلين**﴾؛ أي: إنما امتحنَّاكم حتى أقررتم بما تقرَّر عندكم من أنَّ الله تعالى ربُّكم؛ خشية أن تنكِروا يوم القيامة فلا تقرُّوا بشيء من ذٰلك، وتزعمون أن حجَّة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون؛ فاليوم قد انقطعت حجَّتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم. أو تحتجون أيضاً بحجَّة أخرى، فتقولون: ﴿**إنَّما أشركَ آباؤنا من قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً من بعدِهم**﴾: فحذونا حَذْوَهم، وتبعناهم في باطلهم. ﴿**أفتهلِكُنا بما فعل المبطلون**﴾؟ فقد أودع الله في فطركم ما يدلُّكم على أن ما مع آبائكم باطلٌ، وأنَّ الحقَّ ما

(١) في (ب): «بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة».

جاءت به الرسل، وهٰذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ويعلو عليه. نعم؛ قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالِّين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنُّه هو الحقَّ، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج اللّه وبيِّناته وآياته الأفقيَّة والنفسيَّة؛ فإعراضه عن ذٰلك وإقباله على ما قاله المبطلون، ربَّما صيَّره بحالة يُفضِّل بها الباطل على الحق.

هٰذا هو الصواب في تفسير هٰذه الآيات، وقد قيل: إن هٰذا يوم أخذ اللّه الميثاق على ذريَّة آدم حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا بذٰلك فاحتجَّ عليهم بما أمرهم به في ذٰلك الوقت على ظلمهم في كفرهم وعنادهم في الدنيا والآخرة! ولٰكن ليس في الآية ما يدلُّ على هٰذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة اللّه تعالى، والواقع شاهدٌ بذٰلك؛ فإنَّ هٰذا العهد والميثاق الذي ذَكَروا أنه حين أَخْرَجَ اللّهُ ذُرِّيَّةَ آدم من ظهره[1] حين كانوا في عالم كالذَّرِّ لا يذكُره أحدٌ ولا يخطُرُ ببال آدميٍّ؛ فكيف يحتجُّ اللّه عليهم بأمرٍ ليس عندهم به خبرٌ ولا له عينٌ ولا أثرٌ؟!

﴿١٧٤﴾ ولهٰذا؛ لما كان هٰذا أمراً واضحاً جليًّا؛ قال تعالى: ﴿وكذٰلك نفصِّل الآيات﴾؛ أي: نبيِّنها ونوضِّحها، ﴿ولعلَّهم يرجعون﴾: إلى ما أودع اللّه في فِطَرِهم وإلى ما عاهدوا اللّه عليه فيرتدعوا عن القبائح.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٧٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتِنا﴾؛ أي: علمناه [علم] كتاب اللّه فصار العالم الكبير والحبر النحرير فانسلخ منها فأتبعه الشيطان؛ أي: انسلخ من الاتِّصاف الحقيقيِّ بالعلم بآيات اللّه؛ فإنَّ العلم بذٰلك

---

(١) وقد ذكر المفسرون أحاديث وآثار على أخذ الميثاق من ذرية آدم وهم في صلب أبيهم. انظر «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٢) تحقيق أحمد شاكر. وابن كثير (٣/ ٥٠٠)، و«أحكام أهل الذمة» لابن القيم (٢/ ٥٢٥)، و«معارج القبول» للحكمي (١/ ٤٠). وانظر «الصحيحة» للألباني (١٦٢٣).

يصيِّر صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات؛ فترك هٰذا كتاب اللّه وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يُخْلَعُ اللباس، فلما انسلخ منها؛ أَتْبَعَهُ الشيطانُ؛ أي: تسلَّط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين، فأزَّه إلى المعاصي أزًّا، ﴿فكان من الغاوين﴾: بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

﴿١٧٦﴾ وهٰذا لأنَّ اللّه تعالى خَذَلَه ووَكَلَه إلى نفسه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ولو شِئْنا لرَفَعْناه بها﴾: بأن نوفِّقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصَّن من أعدائه، ﴿ولٰكنَّه﴾: فعل ما يقتضي الخذلان؛ فأخلدَ إلى الأرضِ؛ أي: إلى الشهوات السفليَّة والمقاصد الدنيويَّة، ﴿واتَّبع هواه﴾: وترك طاعة مولاه. ﴿فَمَثَله﴾: في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿كمثل الكلب إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تترُكْهُ يلهثْ﴾؛ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهٰذا لا يزال حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه لا يسدُّ فاقتَهُ شيءٌ من الدُّنيا. ﴿ذٰلك مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآياتنا﴾: بعد أن ساقها اللّه إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذَّبوا بها وردُّوها لهوانهم على اللّه واتِّباعهم لأهوائهم بغير هدى من اللّه. ﴿فاقصُص القَصَص لعلَّهم يتفكَّرون﴾: في ضرب الأمثال وفي العبر والآيات؛ فإذا تفكَّروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مَثَلاً القومُ الذين كذَّبوا بآياتِنا وأنفسَهم كانوا يظلمونَ﴾؛ أي: ساء وقَبُح مَثَلُ مَن كذب بآيات اللّه، وظلم نفسه بأنواع المعاصي؛ فإنَّ مَثَلَهم مَثَلُ السَّوْء.

وهٰذا الذي آتاه اللّه آياته يُحتمل أنَّ المرادَ به شخصٌ معيَّن قد كان منه ما ذكره اللّهُ فقص اللّهُ قصَّته تنبيهاً للعباد، ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك أنه اسم جنس، وأنَّه شاملٌ لكلِّ من آتاه اللّهُ آياته فانسلخ منها.

وفي هٰذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأنَّ ذٰلك رفعة من اللّه لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزولٌ إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه. وفيه أنَّ اتِّباع الهوى وإخلادَ العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿مَن يهدِ اللّه﴾: بأن يوفِّقه للخيرات ويعصمه من المكروهات ويعلِّمه ما لم يكن يعلم، ﴿فهو المهتدي﴾: حقًّا؛ لأنه آثر هدايته تعالى، ﴿ومن يُضْلِلْ﴾: فيخذله ولا يوفِّقه للخير،

﴿فأولٰئك هم الخاسرون﴾: لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذٰلك هو الخسران المبين.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿١٧٩﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالِّين المتَّبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذَرَأنا﴾؛ أي: أنشأنا، وبثثنا ﴿لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس﴾: صارت البهائم أحسن حالة منهم. ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها﴾؛ أي: لا يصلُ إليها فقهٌ ولا علمٌ إلَّا مجرَّد قيام الحجة، ﴿ولهم أعينٌ لا يبصرون بها﴾: ما ينفعُهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿ولهم آذانٌ لا يسمعون بها﴾: سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿أولٰئك﴾: الذين بهٰذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾؛ أي: البهائم التي فقدت العقول، وهٰؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسُلِبوا خاصية العقل. ﴿بل هم أضلُّ﴾: من البهائم؛ فإنَّ الأنعام مستعملة فيما خُلِقت له، ولها أذهانٌ تدرك بها مضرَّتها من منفعتها؛ فلذٰلك كانت أحسن حالاً منهم. و ﴿أولٰئك هم الغافلون﴾: الذين غفلوا عن أنفع الأشياء؛ غفلوا عن الإيمان باللّٰه وطاعته وذِكْره، خُلِقَتْ لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكونَ عوناً لهم على القيام بأوامر اللّٰه وحقوقه، فاستعانوا بها على ضدِّ هٰذا المقصود؛ فهٰؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممَّن ذرأ اللّٰه لجهنَّم وخلقهم لها؛ فخلقهم للنار وبأعمال أهلها يعملون، وأما مَن استعمل هٰذه الجوارح في عبادة اللّٰه وانصبغ قلبُهُ بالإيمان باللّٰه ومحبَّته ولم يغفل عن اللّٰه؛ فهٰؤلاء أهل الجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ هٰذا بيانٌ لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى؛ أي: له كل اسم حسن، وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذٰلك كانت حسنى؛ فإنها لو دلَّت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً؛ لم تكن حسنى، وكذٰلك لو دلَّت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح؛ لم تكن حسنى؛ فكلُّ اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتُقَّ منها، مستغرقٌ لجميع معناها، وذٰلك نحو: ﴿العليم﴾ الدال على أنَّ له علماً محيطاً عامًّا لجميع الأشياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في

السماء، و﴿الرحيم﴾[1] الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكلِّ شيء، و﴿القدير﴾ الدال على أن له قدرة عامَّة لا يُعجِزُها شيء... ونحو ذٰلك. ومن تمام كونها حسنى أنَّه لا يُدعى إلا بها، ولذٰلك قال: ﴿فادعوه بها﴾: وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيُدعى في كل مطلوب بما يناسب ذٰلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهمَّ! اغفر لي، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم. وتب عليَّ يا توَّاب! وارزقني يا رزاق! والطفْ بي يا لطيف! ونحو ذٰلك.

وقوله: ﴿وَذَروا الذين يُلحِدون في أسمائِهِ سيُجْزَوْن ما كانوا يعملون﴾؛ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه. وحقيقة الإلحاد: الميلُ بها عما جُعِلَتْ له، إمَّا بأن يسمَّى بها من لا يستحقُّها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبِّه بها غيرها؛ فالواجب أن يُحذر الإلحاد فيها ويُحذر الملحدون فيها. وقد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»[2].

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿١٨١﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها مكمِّلة لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحقِّ فيعلمون الحقَّ ويعملون به ويعلِّمونه ويدعون إليه وإلى العمل به. ﴿وبه يعدلون﴾: بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذٰلك. وهٰؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدُّجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر، وهم الصدِّيقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة؛ كل بحسب حاله وعلوِّ منزلته؛ فسبحان من يختصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ

(١) في (ب): «وكالرحيم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿١٨٢﴾ أي: والذين كذَّبوا بآيات اللّه الدالّة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردُّوها ولم يقبلوها، ﴿سنستدرِجُهم من حيث لا يعلمون﴾: بأن يدر لهم الأرزاق.

﴿١٨٣﴾ ﴿وأملي لهم﴾؛ أي: أمهلهم حتى يظنُّوا أنهم لا يؤخَذون ولا يعاقَبون، فيزدادون كفراً وطغياناً وشرًّا إلى شرِّهم، وبذٰلك تزيد عقوبتهم ويتضاعف عذابهم، فيضرُّون أنفسهم من حيث لا يعلمون[١]. ولهٰذا قال: ﴿إن كيدي متينٌ﴾؛ أي: قويٌّ بليغٌ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أوَ لَمْ يتفكَّروا ما بصاحبهم﴾: [محمدٍ] ﷺ ﴿من جِنَّةٍ﴾؛ أي: أولم يُعْمِلوا أفكارهم وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيءٌ؛ هل هو مجنونٌ؟! فلينظروا في أخلاقه وهديه ودلِّه وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه؛ فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمَّها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكلِّ خير، ولا ينهى إلا عن كلِّ شرٍّ! أفبهٰذا يا أولي الألباب جِنَّة[٢]؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين والماجد الكريم والرءوف الرحيم؟! ولهٰذا قال: ﴿إن هو إلا نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: يدعو الخلق إلى ما يُنجيهم من العذاب، ويحصِّل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أولم ينظروا في مَلَكوت السمٰوات والأرض﴾: فإنهم إذا نظروا إليها؛ وجدوها أدلة دالة على توحيد ربِّها وعلى ما لَه من صفات الكمال. ﴿و﴾: كذٰلك لينظروا إلى جميع ﴿ما خَلَقَ اللّه من شيء﴾: فإن جميع أجزاء العالم يدلُّ أعظم دِلالة على علم اللّه وقدرته وحكمته وسَعَةِ رحمته وإحسانه ونفوذ مشيئته وغير ذٰلك من صفاته العظيمة الدالَّة على تفرُّده بالخلق والتدبير الموجبة لأن يكون هو المعبودَ المحمودَ المسبَّح الموحَّد المحبوب. وقوله: ﴿وأنْ عسى أن يكونَ قد اقترب أجَلُهم﴾؛ أي: ليـنظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقتربَ أجلُهم ويفجأهم الموتُ وهم في غفلةٍ معرضونَ؛ فلا يتمكَّنون حينئذٍ من استدراك الفارط. ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنون﴾؛ أي: إذا لم يؤمنوا بهٰذا الكتاب الجليل؛ فبأيِّ حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟! أم بحديث كل مفترٍ دجَّال؟!

---

(١) في (ب): «لا يشعرون».
(٢) في (ب): «من جنَّةٍ».

﴿١٨٦﴾ ولكن الضالَّ لا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يُضلِلِ الله فلا هاديَ له ويَذَرُهم في طغيانِهِم يعمهونَ﴾؛ أي: متحيِّرون[(١)]، يتردَّدون لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حقٍّ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾؛ أي: المكذبون لك المتعنِّتون ﴿عن الساعة أيان مُرْساها﴾؛ أي: متى وقتها التي تجيء به؟ ومتى تحِلُّ بالخلق؟ ﴿قل إنَّما علمُها عند ربي﴾؛ أي: إنه تعالى المختصُّ بعلمها، ﴿لا يجلِّيها لوقتها إلا هو﴾؛ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قُدِّر أن تقوم فيه إلا هو. ﴿ثَقُلَتْ في السمٰوات والأرض﴾؛ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض واشتدَّ أمرُها أيضاً عليهم فهم من الساعة مشفقون. ﴿لا تـأتـيكم إلَّا بغتةً﴾؛ أي: فجأة من حيث لا يشعرون لم يستعدُّوا لها ولم يتهيؤوا لها[(٢)]. ﴿يسألونك كأنَّك حَفِيٌّ عنها﴾؛ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحفٍ عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربِّك وما ينفعُ السؤال عنه غير مبال بالسؤال [عنها، ولا حريص على ذلك، فَلِمَ لا يقتدون بك؟ ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال] الخالي من المصلحة المتعذِّر علمه؛ فإنَّه لا يعلمها نبيٌّ مرسلٌ ولا مَلَكٌ مقرَّب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه. ﴿قل إنَّما علمُها عند الله ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾: فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هٰؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهمِّ ويَدَعون ما يجبُ عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحدٍ أن يدركه ولا هُم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملِكُ لنفسي نفعاً ولا ضرًّا﴾: فإني فقير مدبَّر، لا يأتيني خيرٌ إلا من الله، ولا يَدْفَعُ عني الشرَّ إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى. ﴿ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسَّني السوءُ﴾؛ أي:

---

(١) في (ب): «متحيرين».

(٢) في (ب): «ولم يتهيؤوا لقيامها».

لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرتُ من كلِّ ما يفضي إلى سوءٍ ومكروهٍ؛ لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه، ولٰكني لعدم علمي قد ينالني ما ينالني من السوء وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدُّنيا ومنافعها؛ فهٰذا أدلُّ دليل على أني لا علم لي بالغيب. ﴿إن أنا إلا نذيرٌ﴾: أنذر العقوبات الدينيَّة والدنيويَّة والأخرويَّة، وأبيِّن الأعمال المفضية إلى ذٰلك وأحذِّر منها. وبشير بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولٰكن ليس كلُّ أحدٍ يقبل هٰذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذٰلك ويقبله المؤمنون.

وهٰذه الآيات الكريمات مبيِّنة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرٍّ؛ فإنَّه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع مَنْ لم ينفعه اللّه، ولا يدفعُ الضرَّ عمَّن لم يدفعه اللّه عنه، ولا له من العلم إلَّا ما علَّمه اللّه [تعالى]، وإنما ينفع مَنْ قَبِلَ ما أرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذٰلك؛ فهٰذا نفعه عليه السلام[1] الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلَّاء والإخوان، بما حثَّ العباد على كلِّ خير، وحذَّرهم عن كلِّ شرٍّ، وبيَّنه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾
أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿١٨٩﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾: أيها الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرُّقكم، ﴿من نفسٍ واحدةٍ﴾: وهو آدمُ أبو البشر ﷺ، ﴿وجعل منها زوجها﴾؛ أي: خلق من آدم زوجته حواء. لأجل أن يسكن إليها، لأنها إذا كانت منه؛ حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكونَ أحدهما إلى الآخر، فانقاد كلٌّ منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة. ﴿فلما تغشَّاها﴾؛ أي: تجلَّلها مجامعاً لها؛ قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة ـ وذٰلك الجماع ـ النسل، فحملت ﴿حملاً خفيفاً﴾، وذٰلك في ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى ولا يثقلها. ﴿فلما﴾

(١) في (ب): «فهذا نفعه ﷺ».

استمرَّت [به] و﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها؛ فحينئذٍ صار في قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حيًّا صحيحاً سالماً لا آفة فيه، فدَعَوَا ﴿الله ربَّهما لئن آتيْتنا﴾: ولداً: ﴿صالحاً﴾؛ أي: صالح الخلقة تامّها لا نقص فيه، ﴿لنكونَنَّ من الشاكرين﴾.

﴿١٩٠﴾ ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾: على وَفْق ما طَلَبَا وتمَّت عليهما النعمة فيه، ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾؛ أي: جعلا للّه شركاء في ذٰلك الولد الذي انفرد اللّه بإيجاده والنعمة به وأقرَّ به أعين والديه، فعبَّداه لغير اللّه: إمّا أن يسمياه بعبد غير اللّه؛ كعبد الحارث وعبد العزَّى وعبد الكعبة ونحو ذٰلك، أو يشركا في اللّه في العبادة بعدما منَّ اللّه عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحدٌ من العباد، وهٰذا انتقالٌ من النوع إلى الجنس؛ فإنَّ أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل [إلى] الكلام في الجنس، ولا شكَّ أنَّ هٰذا موجود في الذُّرية كثيراً؛ فلذٰلك قرَّرهم اللّه على بطلان الشرك، وأنهم في ذٰلك ظالمون أشدَّ الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال أم في الأفعال؛ فإنَّ الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودَّة والرحمة ما يسكُنُ بعضُهم إلى بعض ويألفه ويلتذُّ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللَّذة والأولاد والنسل، ثم أوجد الذُّرية في بطون الأمهات وقتاً موقَّتاً تتشوَّف إليه نفوسهم ويدعون اللّه أن يخرِجَه سويًّا صحيحاً، فأتمَّ اللّه عليهم النعمة، وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحقُّ أن يعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحداً ويخلصوا له الدين؟!

﴿١٩١ ـ ١٩٢﴾ ولكنَّ الأمر جاء على العكس، فأشركوا باللّه ﴿مالا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقونَ. ولا يستطيعون لهم﴾؛ أي: لعابديها ﴿نصراً ولا أنفسَهم ينصرونَ﴾: فإذا كانت لا تخلق شيئاً ولا مثقال ذرَّة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبُدُها ولا عن أنفسها؛ فكيف تُتَّخذ مع اللّه آلهة؟! إنْ هٰذا إلا أظلم الظلم وأسفه السفه.

﴿١٩٣﴾ وإن تدعوا أيُّها المشركون، هٰذه الأصنام التي عبدتم من دون اللّه ﴿إلى الهدى لا يتَّبعوكم سواءٌ عليكم أدعوتُموهم أم أنتم صامتونَ﴾: فصار الإنسانُ أحسنَ حالةً منها؛ لأنَّها لا تسمع ولا تبصِرُ ولا تَهْدي ولا تُهْدَى، وكل هٰذا إذا تصوَّره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً؛ جزم ببطلان إلٰهيتها وسفاهة مَنْ عبدها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

﴿١٩٤﴾ وهٰذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان؛ يقول تعالى: ﴿إنَّ الذين تَدعون من دونِ اللّه عبادٌ أمثالكم﴾؛ أي: لا فرق بينكم وبينهم؛ فكلُّكم عبيدٌ للّه مملوكون؛ فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحقُّ من العبادة شيئاً؛ ﴿فادْعوهم فليستجيبوا لكم﴾: فإن استجابوا لكم وحصَّلوا مطلوبكم، وإلَّا؛ تبيَّن أنكم كاذبون في هٰذه الدعوى مفترون على اللّه أعظم الفرية.

﴿١٩٥﴾ وهٰذا لا يحتاج إلى تبيين فيه[1]؛ فإنَّكم إذا نظرتُم إليها؛ وجدتُم صورتها دالَّةً على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجلٌ تمشي بها، ولا أيدٍ تبطش بها، ولا أعينٌ تبصر بها، ولا آذان تسمع بها؛ فهي عادمةٌ لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها؛ فهي عبادٌ أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء؛ فلأيِّ شيء عبدتموها؟!
﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونِ فلا تُنظِرونِ﴾؛ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

﴿١٩٦﴾ لأنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الذي يتولَّاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار. ﴿الذي نزَّل الكتابَ﴾: الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من تولِّيه وتربيته لعباده الخاصة الدينيَّة. ﴿وهو يتولَّى الصالحين﴾: الذين صلحت نيَّاتهم وأعمالهم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللّهُ وليُّ الذين آمنوا يخرِجُهم من الظُّلمات إلى النور﴾؛ فالمؤمنون الصالحون لـمَّا تولَّوا ربَّهم بالإيمان والتقوى ولم يتولَّوا غيره ممَّن لا ينفع ولا يضرُّ؛ تولَّاهم اللّه ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهم كلَّ مكروه؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ اللّه يدافِعُ عن الذين آمنوا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ

(١) في (ب): «إلى التبيين فيه».

إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿١٩٧ ـ ١٩٨﴾ وهٰذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هٰذه الأصنام التي يعبُدونها من دون اللّه شيئاً من العبادة؛ لأنها ليس لها استطاعةٌ ولا اقتدارٌ في نصر أنفسهم ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة؛ فلو دعوتَها إلى الهدى؛ لم تهتدِ، وهي صورٌ لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرونَ حقيقةً؛ لأنهم صوَّروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاءً؛ فإذا رأيتها؛ قلت: هٰذه حيَّة؛ فإذا تأملتها؛ عرفت أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة؛ فبأيِّ رأي اتَّخذها المشركون آلهةً مع اللّه؟! ولأيِّ مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقرَّبوا لها بأنواع العبادات؟! فإذا عُرِفَ هٰذا؛ عُرِفَ أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولَّاه فاطر السماوات والأرض متولِّي أحوال عباده الصالحين؛ لم يقدروا على كيده بمثقال ذرَّةٍ من الشرِّ؛ لكمال عجزهم وعجزها وكمال قوَّة اللّه واقتداره وقوَّة من احتمى بجلاله وتوكَّل عليه، وقيل: إنَّ معنى قوله: ﴿وتَراهُم ينظُرونَ إليكَ وهم لا يبصِرونَ﴾: إنَّ الضمير يعود إلى المشركين المكذِّبين لرسول اللّه ﷺ، فتحسبهم ينظُرون إليك يا رسول اللّه نظر اعتبارٍ يتبيَّن به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسَّمه المتوسِّمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿١٩٩﴾ هٰذه الآية جامعة لِحُسْنِ الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم: فالذي ينبغي أن يعامَلَ به الناس: أن يأخذَ العفوَ؛ أي: ما سمحتْ به أنفسُهم وما سَهُلَ عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلِّفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكُر من كلِّ أحدٍ ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دونَ ذٰلك، ويتجاوزُ عن تقصيرِهم ويغضُّ طرفه عن نقصهم ولا يتكبَّر على الصغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللُّطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. ﴿وأمُرْ بالعُرْفِ﴾؛ أي: بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حث على خير من صلة رحم أو برِّ والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأي مصيب أو معاونة على برٍّ وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة. ولما كان لا بدَّ من أذيَّة الجاهل؛ أمر اللّه تعالى أن يقابَلَ الجاهل

بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله؛ لا تؤذه، ومن حَرَمَك لا تحرِمْه، ومن قطعك فَصِلْه، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعاملَ به العبدُ شياطين الجن؛ فقال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿٢٠٠﴾ أي: أيَّ وقت وفي أيِّ حال، ﴿ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ﴾؛ أي: تحس منه بوسوسةٍ وتثبيطٍ عن الخير أو حثٍّ على الشرِّ وإيعازٍ إليه، ﴿فاستعذ بالله﴾؛ أي: التجىء واعتصم بالله واحتم بحماه. فإنَّه سميعٌ لما تقول، ﴿عليمٌ﴾: بنيَّتك وضعفك وقوة التجائك له فسيحميك من فتنته ويقيك من وسوسته؛ كما قال تعالى: ﴿قل أعوذُ بربِّ الناس...﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٠١﴾ ولما كان العبدُ لا بدَّ أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرَّته وغفلته؛ ذكر تعالى علامة المتَّقين من الغاوين، وأن المتَّقي إذا أحسَّ بذنب ومسَّه طائفٌ من الشيطان فأذنب بفعل محرَّم أو ترك واجب؛ تذكَّر من أي باب أُتِيَ ومن أيِّ مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكَّر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر، واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً؛ قد أفسد عليه كلَّ ما أدركه منه.

﴿٢٠٢﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذُّنوب لا يزالون يمدُّونهم في الغيِّ ذنباً بعد ذنبٍ، ولا يقصرون عن ذٰلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها وهم لا يقصرون عن فعل الشرِّ.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿٢٠٣﴾ أي: لا يزال هٰؤلاء المكذِّبون لك في تعنُّت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالَّة على الهدى والرشاد؛ فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالَّة على

صدقك؛ لم ينقادوا. ﴿وإذا لم تأتهم بآيةٍ﴾: من آيات الاقتراح التي يعيِّنونها، ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾؛ أي: هلاَّ اخترت الآية فصارت الآية الفلانية أو المعجزة الفلانية، كأنك أنت المنزِّل للآيات المدبِّر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو [أنَّ المعنى]: لولا اخترعتها من نفسك، ﴿قل إنَّما أتَّبع ما يوحى إليَّ من ربي﴾: فأنا عبدٌ مُتَّبِعٌ مدبَّر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وَطَلَبَتْهُ حكمته البالغة؛ فإن أردتم آية لا تضمحلُّ على تعاقب الأوقات وحجة لا تبطل في جميع الآنات؛ فهذا: القرآن العظيم والذكر الحكيم.

﴿بصائرُ من ربِّكم﴾: يستبصر به في جميع المطالب الإلهيَّة والمقاصد الإنسانيَّة، وهو الدليل والمدلول؛ فمن تفكَّر فيه وتدبَّره؛ علم أنه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجَّة على كلِّ من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلَّا؛ فمن آمن؛ فهو ﴿هدىً﴾ له من الضلال ﴿ورحمةٌ﴾ له من الشقاء؛ فالمؤمن مهتدٍ بالقرآن، متَّبع له، سعيدٌ في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمنْ به؛ فإنه ضالٌّ شقيٌّ في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

﴿٢٠٤﴾ هٰذا الأمر عامٌّ في كلِّ من سمع كتاب الله يتلى؛ فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يُلْقِيَ سَمْعَه ويحضِرَ قلبَه ويتدبَّر ما يستمع؛ فإنَّ من لازم على هٰذين الأمرين حين يُتلى كتاب الله؛ فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً وإيماناً مستمرًّا متجدداً وهدىً متزايداً وبصيرةً في دينه، ولهٰذا رتَّب الله حصول الرحمة عليهما، فدلَّ ذٰلك على أن مَنْ تُلي عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خيرٌ كثير.

ومن أوكدِ ما يؤمر [به] مستمع القرآن أن يستمعَ له وينصتَ في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامُهُ؛ فإنَّه مأمورٌ بالإنصات حتى إنَّ أكثر العلماء يقولون: إنَّ اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿٢٠٥﴾ الذكر للّه تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر اللّه عبده ورسوله محمداً أصلاً وغيره تبعاً بذكر ربِّه في نفسه؛ أي: مخلصاً خالياً، ﴿تضرُّعاً﴾؛ أي: متضرعاً بلسانك مكرِّراً لأنواع الذكر، ﴿وخِيفةً﴾: في قلبك؛ بأن تكون خائفاً من اللّه، وَجِلَ القلب منه خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به. ﴿ودون الجهر من القول﴾ ـ؛ أي: كن متوسطاً، لا تجهرْ بصلاتك ولا تخافِتْ بها وابتغ بين ذٰلك سبيلاً ـ ﴿بالغدو﴾: أول النهار، ﴿والآصال﴾: آخره، وهٰذان الوقتان [لذكرِ اللّهِ] فيهما مزيَّةٌ وفضيلةٌ على غيرهما. ﴿ولا تكن من الغافلينَ﴾: الذين نَسُوا اللّه فأنساهم أنفُسَهم؛ فإنَّهم حُرِموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمَّن كلُّ السعادة والفوز في ذكره وعبوديَّته، وأقبلوا على مَن كلُّ الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وهٰذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعِيَها حقَّ رعايتها، وهي الإكثار من ذكر اللّه آناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرِّعاً متذللاً ساكناً متواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدبٍ ووَقارٍ وإقبال على الدُّعاء والذِّكر وإحضارٍ له بقلبه وعدم غفلة؛ فإنَّ اللّه لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ.

﴿٢٠٦﴾ ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته، وهم الملائكة. فلتعلموا أن اللّه لا يريدُ أن يتكثَّر بعبادتكم من قلَّة، ولا ليتعزَّز بها من ذِلَّة، وإنما يريدُ نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إنَّ الذين عند ربِّك﴾: من الملائكة المقرَّبين وحملة العرش والكروبيين، ﴿لا يستكبِرون عن عبادته﴾: بل يُذْعِنون لها وينقادون لأوامر ربِّهم، ﴿ويسبِّحونه﴾: الليل والنهار لا يفترون. ﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجُدون﴾: فليقتَدِ العبادُ بهٰؤلاء الملائكة الكرام، وليداوِموا على عبادة الملك العلاَّم.

تم تفسير سورة الأعراف.

وللّه الحمد والشكر والثناء. وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

﴿١﴾ الأنفال: هي الغنائم التي يُنَفِّلُها اللّٰهُ لهٰذه الأمة من أموال الكفار. وكانت هٰذه الآيات في هٰذه السورة قد نزلت في قصَّة بدرٍ، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاعٌ، فسألوا رسولَ اللّٰه ﷺ عنها، فأنزل اللّٰه: ﴿يسألونَكَ عن الأنفالِ﴾: كيف تُقْسَمُ؟ وعلى مَن تُقْسَمُ؟ ﴿قل﴾: لهم الأنفال للّٰه ورسولِهِ يضعانِها حيث شاءا؛ فلا اعتراض لكم على حكم اللّٰه ورسوله، بل عليكم إذا حكم اللّٰه ورسوله أن ترضوا بحكمهما وتسلِّموا الأمر لهما، وذٰلك داخلٌ في قوله: ﴿فاتَّقوا اللّٰه﴾: بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وأصلِحوا ذاتَ بينِكم﴾؛ أي: أصلِحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر بالتوادد والتحاب والتواصل؛ فبذٰلك تجتمع كلمتُكم ويزولُ ما يحصُلُ بسبب التقاطع من التخاصُم والتشاجُر والتنازع.

ويدخُلُ في إصلاح ذاتِ البين تحسينُ الخُلُق لهم والعفو عن المسيئين منهم؛ فإنه بذٰلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر، والأمر الجامع لذٰلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسولَه إن كنتم مؤمنين﴾: فإنَّ الإيمان يدعو إلى طاعة اللّٰه ورسوله؛ كما أنَّ من لم يطع اللّٰه ورسوله فليس بمؤمنٍ، ومن نقصت طاعتُهُ للّٰه ورسوله؛ فذٰلك لنقص إيمانه.

﴿٢﴾ ولما كان الإيمانُ قسمين: إيماناً كاملاً يترتَّب عليه المدح والثناء والفوزُ التامُّ، وإيماناً دون ذٰلك؛ ذَكَرَ الإيمانَ الكامل، فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾: الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان، ﴿الذين إذا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قلوبُهم﴾؛ أي: خافت ورهبت فأوجبت لهم خشية اللّٰه تعالى الانكفافَ عن المحارم؛ فإنَّ خوف اللّٰه تعالى أكبر علاماته أن يَحْجُزَ صاحبَه عن الذنوب. ﴿وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ

زادتهم إيماناً﴾: ووجه ذٰلك أنَّهم يلقون له السمع ويحضِرون قلوبهم لتدبُّره؛ فعند ذٰلك يزيد إيمانهم؛ لأنَّ التدبُّر من أعمال القلوب، ولأنَّه لا بدَّ أنْ يبيِّن لهم معنىً كانوا يجهلونَه ويتذكَّرون ما كانوا نَسوه أو يُحْدِثَ في قلوبهم رغبةً في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربِّهم أو وَجَلاً من العقوبات وازدجاراً عن المعاصي، وكلُّ هٰذا مما يزداد به الإيمان. ﴿وعلى ربِّهم﴾: وحده لا شريك له ﴿يتوكَّلون﴾؛ أي: يعتَمِدون في قلوبهم على ربِّهم في جلب مصالحهم ودفع مضارِّهم الدينيَّة والدنيويَّة، ويثقون بأنَّ اللّٰه تعالى سيفعلُ ذٰلك، والتوكُّل هو الحامل للأعمال كلِّها؛ فلا توجَدُ ولا تكْمُلُ إلا به.

﴿٣﴾ ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾: من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة؛ كحضور القلب فيها، الذي هو رُوح الصلاة ولُبُّها، ﴿ومما رزقْناهم ينفقونَ﴾: النفقاتِ الواجبةَ؛ كالزكوات والكفَّارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيمانهم، والمستحبَّة؛ كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿٤﴾ ﴿أولئك﴾: الذين اتَّصفوا بتلك الصفات، ﴿هم المؤمنون حقًّا﴾: لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق اللّٰه وحقوق عباده.

وقدَّم تعالى أعمال القلوب لأنَّها أصلٌ لأعمال الجوارح وأفضلُ منها. وفيها دليلٌ على أن الإيمان يزيدُ وينقُصُ؛ فيزيدُ بفعل الطاعة وينقُصُ بضدِّها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهَدَ إيمانه ويُنْميه. وأنَّ أولى ما يحصُلُ به ذٰلك تدبُّر كتاب اللّٰه تعالى والتأمُّل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقًّا، فقال: ﴿لهم درجاتٌ عند ربِّهم﴾؛ أي: عاليةٌ بحسب علوِّ أعمالهم. ﴿ومغفرةٌ﴾: لذُنوبهم، ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾: وهو ما أعدَّ اللّٰه لهم في دار كرامته مما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بِشرٍ. ودلَّ هٰذا على أنَّ مَن لم يصِلْ إلى درجتهم في الإيمان وإن دَخَلَ الجنة؛ فلن ينال ما نالوا من كرامةِ اللّٰه التامَّةِ.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

قدَّم تعالى أمام هٰذه الغزوة الكبرى المباركة الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأنَّ مَن قام بها؛ استقامت أحوالُه وصَلَحَتْ أعمالُه، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

﴿٥ ـ ٦﴾ فكما أنَّ إيمانهم هو الإيمان الحقيقي وجزاءهم هو الحقُّ الذي وعدهم الله به؛ كذٰلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدرٍ بالحقِّ الذي يحبُّه الله تعالى وقد قدَّره وقضاه، وإنْ كان المؤمنون لم يخطُرْ ببالهم في ذٰلك الخروج أنَّه يكون بينهم وبين عدوِّهم قتالٌ؛ فحين تبيَّن لهم أنَّ ذٰلك واقعٌ؛ جعل فريقٌ من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذٰلك ويكرهون لقاء عدوِّهم كأنَّما يُساقونَ إلى الموت وهم ينظُرون! والحال أن هٰذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبيَّن لهم أن خروجهم بالحقِّ ومما أمر الله به ورضيه؛ فبهٰذه الحال ليس للجدال فيها محلٌّ؛ لأنَّ الجدال محلُّه وفائدته عند اشتباه الحقِّ والتباس الأمر، فأما إذا وَضَحَ وبان؛ فليس إلا الانقياد والإذعان. هٰذا؛ وكثير من المؤمنين لم يجرِ منهم من هٰذه المجادلة شيءٌ ولا كرهوا لقاء عدوِّهم، وكذٰلك الذين عاتبهم الله انقادوا للجهاد أشدَّ الانقياد، وثبَّتهم الله، وقيَّض لهم من الأسباب ما تطمئنُّ به قلوبهم كما سيأتي ذكرُ بعضها.

﴿٧﴾ وكان أصلُ خروجهم يتعرَّضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام؛ ندب النبيُّ ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم سبعون بعيراً يعتقبون عليها ويحملون عليها متاعَهم، فسمع بخبرهم قريشٌ، فخرجوا لمنع عيرهم في عَدَدٍ كثيرٍ وعُدَدٍ وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف، فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين: إما أن يظفروا بالعير، أو بالنفير، فأحبوا العير لقلَّة ذات يد المسلمين ولأنَّها غير ذات الشوكة. ولٰكن الله تعالى أحبَّ لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبُّوا، أراد أن يظفروا بالنَّفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدُهم. فيريد اللهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماتِهِ فينصر أهله، ﴿ويقطَعَ دابرَ الكافرين﴾؛ أي: يستأصل أهلَ الباطل ويُري عبادَهُ من نصرِهِ للحقِّ أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

﴿٨﴾ ﴿لِيُحِقَّ الحقَّ﴾: بما يُظْهِرُ من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿ويُبْطِلَ الباطلَ﴾: بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، ﴿ولو كره المجرمون﴾: فلا يبالي الله بهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ
رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي
مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝١٤﴾.

﴿٩﴾ أي: اذكروا نعمة اللّه عليكم لمَّا قارب التقاؤكم بعدوِّكم؛ استغثتُم بربِّكم وطلبتُم منه أن يعينكم وينصركم، ﴿فاستجاب لكم﴾: وأغاثكم بعدَّة أمور؛ منها: أنَّ اللّه أمدَّكم ﴿بألفٍ من الملائكة مردفينَ﴾؛ أي: يَرْدُفُ بعضُهم بعضاً.

﴿١٠﴾ ﴿وما جعله اللّه﴾؛ أي: إنزال الملائكة ﴿إلا بشرى﴾؛ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿ولتطمئنَّ به قلوبُكم﴾: وإلَّا؛ فالنصر بيد اللّه، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ. ﴿إن اللّه عزيزٌ﴾: لا يغالبُه مغالبٌ، بل هو القهار الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا، ﴿حكيمٌ﴾: حيث قدَّر الأمور بأسبابها ووضع الأشياء مواضعها.

﴿١١﴾ ومن نصرِهِ واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً ﴿يُغَشِّيكم﴾؛ أي: فيُذْهِب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾: لكم وعلامةً على النصر والطمأنينة. ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهِّركم به من الحَدَث والخَبَث، وليطهِّركم به من وساوس الشيطان ورجزه، ﴿ولِيَرْبِطَ على قلوبكم﴾؛ أي: يثبِّتها؛ فإنَّ ثبات القلب أصلُ ثبات البدن، ﴿ويُثَبِّتَ به الأقدام﴾: فإن الأرض كانت سهلةً دهسةً، فلما نزل عليها المطر؛ تلبَّدت، وثبتت به[1] الأقدام.

﴿١٢﴾ ومن ذلك أنَّ اللّه أوحى إلى الملائكة: ﴿أنِّي معكم﴾: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فثبِّتوا الذين آمنوا﴾؛ أي: ألقوا في قلوبهم وألهموهم الجراءة على

(١) في (ب): «وثبتت بها».

عدوّهم ورغّبوهم في الجهاد وفضله. ﴿سأُلقي في قلوبِ الذين كَفَروا الرُّعْبَ﴾: الذي هو أعظم جندٍ لكم عليهم؛ فإنَّ اللّه إذا ثبَّت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين؛ لم يقدِرِ الكافرون على الثَّبات لهم، ومَنَحَهُمُ اللّه أكتافهم، ﴿فاضربوا فوقَ الأعناق﴾؛ أي: على الرقاب، ﴿واضرِبوا منهم كلَّ بنانٍ﴾؛ أي: مفصل. وهٰذا خطابٌ: إما للملائكة الذين أوحى [اللّهُ] إليهم أن يثبِّتوا الذين آمنوا فيكون في ذٰلك دليلٌ أنَّهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجِّعهم اللّه ويعلِّمهم كيف يقتلون المشركين وأنهم لا يرحمونهم.

﴿١٣﴾ ذٰلك لأنَّهم شاقُّوا اللّهَ ورسولَه؛ أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة، ﴿ومَن يشاقِقِ اللّهَ ورسوله فإنَّ اللّه شديد العقاب﴾: ومن عقابه تسليطُ أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿١٤﴾ ﴿ذٰلكم﴾: العذاب المذكور، ﴿فَذوقوهُ﴾: أيُّها المشاققون للّه ورسولِهِ عذاباً معجَّلاً. ﴿وأنَّ للكافرين عذابَ النارِ﴾.

وفي هٰذه القصة من آيات اللّه العظيمة ما يدلُّ على أن ما جاء به محمدٌ ﷺ رسول اللّه حقًّا:

منها: أنَّ اللّه وعَدَهم وعداً فأنجزَهُموه.

ومنها: ما قال اللّه تعالى: ﴿قد كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فئتينِ التَقَتا فئةٌ تقاتِلُ في سبيل اللّهِ وأخرى كافرةٌ يَرَوْنَهم مِثْلَيْهِم رَأيَ العين...﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة اللّه للمؤمنين لما استغاثوه بما ذَكَره من الأسباب.

وفيها الاعتناءُ العظيم بحال عباده المؤمنين وتقييضُ الأسباب التي بها ثَبَتَ إيمانُهم، وثبتتْ أقدامُهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف اللّه بعبده أن يُسَهِّلَ عليه طاعته وييسِّرها بأسبابٍ داخليَّة وخارجيَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ يأمر تعالى عبادَهُ المؤمنين بالشجاعة الإيمانيَّة والقوَّة في أمره والسعي في

جَلْب الأسباب المقويَّة للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُمُ الذين كَفَروا زحفاً﴾؛ أي: في صفِّ القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض، ﴿فلا تولُّوهم الأدبارَ﴾: بل اثبُتوا لقتالِهِم واصبِروا على جِلادِهم؛ فإنَّ في ذٰلك نُصرةً لدين اللّه وقوَّةً لقلوب المؤمنين وإرهاباً للكافرين.

﴿١٦﴾ ﴿ومَن يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَهُ إلا متحرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باء﴾؛ أي: رجع ﴿بغضبٍ من اللّه ومأواه﴾؛ أي: مقره ﴿جهنَّم وبئس المصير﴾.

وهٰذا يدلُّ على أن الفرار من الزحف من غير عذرٍ من أكبر الكبائر؛ كما وردت بذٰلك الأحاديث الصحيحة[1]، وكما نصَّ هنا على وعيده بهٰذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية أن المتحرِّف للقتال ـ وهو الذي ينحرفُ من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له في القتال وأنكى لعدوِّه ـ فإنه لا بأس بذٰلك؛ لأنه لم يولِّ دُبُرَهُ فارًّا، وإنما ولَّى دُبُره ليستعلي على عدوِّه أو يأتيه من محلٍّ يصيب فيه غِرَّته أو ليخدِعَه بذٰلك أو غير ذٰلك من مقاصد المحاربين. وأن المتحيِّز إلى فئةٍ تمنعه وتعينه على قتال الكفار؛ فإنَّ ذٰلك جائزٌ؛ فإن كانت الفئة في العسكر؛ فالأمر في هٰذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محلِّ المعركة؛ كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكرٍ آخر من عسكر المسلمين؛ فقد ورد من آثار الصحابة ما يدلُّ على أنَّ هٰذا جائزٌ، ولعلَّ هٰذا يقيَّدُ بما إذا ظنَّ المسلمون أنَّ الانهزام أحمدُ عاقبة وأبقى عليهم، أما إذا ظنُّوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم؛ فيبعد في هٰذه الحال أن تكون من الأحوال المرخَّص فيها؛ لأنه على هٰذا لا يتصوَّر الفرار المنهيُّ عنه. وهٰذه الآية مطلقةٌ، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات...» وذكر منها التولي يوم الزحف.

﴿١٧﴾ يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدرٍ وقتلهم المسلمونَ: ﴿فلم تقتُلوهم﴾: بحولِكم وقوَّتكم، ﴿ولٰكنَّ اللّه قتلهم﴾: حيث أعانكم على ذٰلك بما تقدَّم ذكره، ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولٰكنَّ اللّه رمى﴾: وذٰلك أنَّ النبيَّ ﷺ وقتَ القتال دخل العريش، وجعل يدعو اللّه، ويناشده في نصرته[1]، ثم خرج منه، فأخذ حَفْنَةً من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها اللّه إلى وجوههم، فما بقي منهم واحدٌ إلَّا وقد أصاب وجهَهُ وفمه وعينيه منها[2]؛ فحينئذ انكسر حدهم وفتر زَندُهم وبان فيهم الفشل والضعف فانهزموا. يقول تعالى لنبيِّه: لستَ بقوَّتك حين رميتَ الترابَ أوصلتَهُ إلى أعينهم، وإنَّما أوصلناه إليهم بقوَّتنا واقتدارنا. ﴿وَلِيُبْلِيَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً﴾؛ أي: إن اللّه تعالى قادرٌ على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرةِ قتال، ولٰكنَّ الله أراد أن يمتحنَ المؤمنين ويوصِلَهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً. ﴿إنَّ اللّه سميعٌ عليمٌ﴾: يسمع تعالى ما أسرَّ به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدِّها، فيقدِّر على العباد أقداراً موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلاًّ بحسب نيَّته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذٰلكم﴾: النصر من اللّه لكم، ﴿وأنَّ اللّه موهنُ كيدِ الكافرين﴾؛ أي: مُضْعِفُ كلِّ مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعلُ مكرهم محيقاً بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إن تستفتحوا﴾: أيُّها المشركون؛ أي: تطلبون[3] من اللّه أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين، ﴿فقد جاءكم الفتحُ﴾: حين أوقع اللّه بكم من عقابِهِ ما كان نَكالاً لكم وعبرةً للمتقين. ﴿وإن تنتهوا﴾: عن الاستفتاح ﴿فهو خيرٌ لكم﴾: لأنَّه ربَّما أمهلكم ولم تُعَجِّلْ لكم النقمةُ. ﴿وإن تعودوا﴾: إلى الاستفتاح وقتال حزب اللّه المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾: في نصرهم عليكم، ﴿ولن تُغْنِيَ عنكم فئتُكم﴾؛ أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم شيئاً. ﴿وأنَّ اللّه مع المؤمنين﴾: ومن كان اللّه معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفاً قليلاً عدده.

وهٰذه المعيَّة التي أخبر اللّه أنه يؤيِّد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٩٥٣)، ومسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس.
(٢) كما في «معجم الطبراني» (١١/ ٢٨٥) عن ابن عباس قال الهيثمي (٦/ ٨٤): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وانظر «فقه السيرة» للغزالي (٢٣٩) فقد صححه الألباني.
(٣) في (ب): «تطلبوا».

أعمال الإيمان؛ فإذا أديل العدوُّ على المؤمنين في بعض الأوقات؛ فليس ذٰلك إلا تفريطاً من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلَّا؛ فلو قاموا بما أمر اللّه به من كلِّ وجهٍ؛ لما انهزمَ لهم رايةٌ انهزاماً مستقرًّا ولا أدِيلَ عليهم عدوُّهم أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين؛ أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيَّته، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا اللّهَ ورسولَه﴾: بامتثال أمرِهما واجتنابِ نهيِهما. ﴿ولا تَوَلَّوْا عنه﴾؛ أي: عن هٰذا الأمر الذي هو طاعة اللّه وطاعة رسوله، ﴿وأنتم تسمعونَ﴾: ما يُتلى عليكم من كتاب اللّه وأوامره ووصاياه ونصائحه؛ فتولِّيكم في هٰذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿٢١﴾ ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمِعْنا وهم لا يسمعون﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرَّدِ الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فإنها حالة لا يرضاها اللّه ولا رسوله، فليس الإيمانُ بالتمنِّي والتحلِّي، ولٰكنَّه ما وَقَرَ في القلوب، وصدَّقته الأعمال.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله﴾: مَنْ لم تُفِدْ فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الصُّمُّ﴾: عن استماع الحق، ﴿البكم﴾: عن النطق به، ﴿الذين لا يعقلونَ﴾: ما ينفعهم ويؤثرونه على ما يضرُّهم؛ فهٰؤلاء شرٌّ عند اللّه من شرار الدواب[1]؛ لأنَّ اللّه أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها في طاعة اللّه، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذٰلك الخير الكثير؛ فإنَّهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البريَّة، فأبوا هٰذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شرِّ البريَّة. والسمعُ الذين نفاه اللّه عنهم سمعُ المعنى المؤثِّر في القلب، وأما سمعُ الحجَّة؛ فقد قامت حجَّة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته.

﴿٢٣﴾ وإنما لم يُسمعْهم السماعَ النافعَ؛ لأنَّه لم يعلم فيهم خيراً يَصْلُحون به

---

(١) في (ب): «من جميع الدّواب».

لسماع آياته. ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمَعَهم ولو أسمَعَهم﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لتَوَلَّوا﴾: عن الطاعة ﴿وهم معرضونَ﴾: لا التفات لهم إلى الحقِّ بوجه من الوجوه. وهٰذا دليلٌ على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلَّا لمن لا خير فيه الذي لا يزكو لديه ولا يثمرُ عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هٰذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذٰلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إذا دعاكم لما يُحييكم﴾: وصفٌ ملازمٌ لكل ما دعا الله ورسوله إليه وبيانٌ لفائدته وحكمته؛ فإن حياة القلب والروح بعبوديَّة الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام. ثم حذَّر عن عدم الاستجابة لله وللرسول، فقال: ﴿واعلموا أنَّ الله يَحول بين المرء وقلبِهِ﴾: فإياكم أن تردُّوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيُحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذٰلك، وتختلف قلوبكم؛ فإن الله يَحولُ بين المرء وقلبه؛ يقلِّب القلوب حيث شاء، ويصرِّفها أنَّى شاء، فليكثرِ العبد من قول: يا مقلِّب القلوب! ثبِّتْ قلبي على دينك. يا مصرِّف القلوب! اصرفْ قلبي إلى طاعتك[1]. ﴿وأنَّه إليه تُحشرون﴾؛ أي: تُجمعون ليوم لا ريبَ فيه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

﴿٢٥﴾ ﴿واتَّقوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً﴾: بل تصيب فاعل الظُّلم وغيره، وذٰلك إذا ظهر الظلم فلم يغيَّر؛ فإنَّ عقوبته تعمُّ الفاعل وغيره. وتقوى هٰذه الفتنة بالنهي عن المنكر وقمع أهل الشرِّ والفساد وأن لا يُمَكَّنوا من المعاصي والظُّلم مهما أمكن. ﴿واعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب﴾: لمن تعرَّض لمساخطِهِ وجانبَ رضاه.

---

(١) كما في «المسند» (٣/ ١١٢)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٢٢٥) ولفظ: «يا مصرف القلوب اصرف قلبي على طاعتك» عند مسلم (٦٢٥٤) باختلاف يسير.

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى ممتنًّا على عباده في نصرهم بعد الذِّلَّة وتكثيرهم بعد القِلَّة وإغنائهم بعد العيلة: ﴿واذكُروا إذ أنتم قليلٌ مستَضْعَفون في الأرض﴾؛ أي: مقهورون تحت حكم غيركم، ﴿تخافون أن يَتَخَطَّفَكم الناسُ﴾؛ أي: يأخذونكم، ﴿فآواكم وأيَّدكم بنصرِهِ ورزَقَكم من الطَّيِّبات﴾: فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، ﴿لعلَّكم تشكرونَ﴾: اللّه على مِنَّتِهِ العظيمة وإحسانه التامِّ بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدُّوا ما ائتمنهم اللّه عليه من أوامره ونواهيه؛ فإنَّ الأمانة قد عرضها اللّه على السماوات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنها وأشفَقْنَ منها وحملها الإنسانُ إنَّه كان ظلوماً جهولاً؛ فمن أدَّى الأمانة؛ استحقَّ من اللّه الثواب الجزيل، ومن لم يؤدِّها، بل خانها؛ استحقَّ العقاب الوبيل، وصار خائناً للّه وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتَّصفت نفسه بأخس الصفات وأقبح الشيات، وهو الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

﴿٢٨﴾ ولما كان العبد ممتَحَناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبَّتُه[1] ذٰلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته؛ أخبر اللّه تعالى أنَّ الأموال والأولاد فتنةٌ يبتلي اللّه بهما عباده، وأنها عاريَّة ستؤدَّى لمن أعطاها وتردُّ لمن استَوْدَعها. ﴿وأنَّ اللّه عنده أجرٌ عظيمٌ﴾: فإن كان لكم عقلٌ ورأيٌ؛ فآثِروا فضله العظيم على لذَّة صغيرةٍ فانيةٍ مضمحلَّةٍ؛ فالعاقل يوازِنُ بين الأشياء، ويؤثِرُ أولاها بالإيثار وأحقَّها بالتقديم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٩﴾ امتثالُ العبد لتقوى ربه عنوان السعادة وعلامة الفلاح، وقد رتَّب اللّه على

(١) في (ب): «محبة».

التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أنَّ مَن اتَّقى اللّه؛ حصل له أربعةُ أشياء، كلُّ واحدٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها: **الأول**: الفُرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرِّق به صاحبه بين الهدى والضلال والحقِّ والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة. **الثاني والثالث**: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخلٌ في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسَّر تكفير السيئات بالذُّنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. **الرابع**: الأجر العظيم والثوابُ الجزيل لمن اتَّقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيُّها الرسول ما مَنَّ اللّه بك[1] عليك، ﴿**إذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا**﴾: حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبيِّ ﷺ: إما أن يُثْبِتوه عندهم بالحبس ويوثِقوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا بزعمهم من شرِّه! وإما أن يخرِجوه ويُجْلوه من ديارهم؛ فكلٌّ أبدى من هٰذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيُهم على رأيٍ رآه شريرهم أبو جهل لعنه اللّه، وهو أن يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ من قبائل قريش فتى، ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قِتلةَ رجل واحدٍ؛ ليتفرَّق دمُهُ في القبائل، فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديتِهِ، فلا يقدرون على مقاومة جميع قريش[2]، فترصَّدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه، فجاءه الوحي من السماء، وخَرَجَ عليهم، فَذَرَّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى اللّه أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه؛ جاءهم آتٍ وقال: خيَّبكم اللّه! قد خرج محمدٌ وذَرَّ على رؤوسكم الترابَ! فنفض كلٌّ منهم التراب [عن][3] رأسه[4]، ومنع اللّه رسولَه منهم، وأذِنَ له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيَّده اللّه بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوةً وقَهَرَ أهلها فأذعنوا له وصاروا تحت حكمِهِ بعد أن خرج مستخفياً منهم خائفاً على نفسه؛ فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالبٌ. وقوله:

(١) كذا في النسختين. والصواب: «به». (٢) في (ب): «سائر قريش».
(٣) كذا في (ب) وفي (أ): «على رأسه».
(٤) مرسل عن محمد بن كعب القرظي، انظر «السيرة النبوية» للدكتور أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٧)، و (الطبقات) لابن سعد (١/ ٢٢٨).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى في بيان عناد المكذِّبين للرسول ﷺ: ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا﴾: الدالَّة على صدق ما جاء به الرسول، ﴿قالوا قد سَمِعْنا لو نشاء لَقُلْنا مثل هٰذا إن هٰذا إلا أساطيرُ الأوَّلين﴾: وهٰذا من عنادهم وظلمهم؛ وإلَّا؛ فقد تحدَّاهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبيَّن عجزهم؛ فهٰذا القول الصادر من هٰذا القائل مجرَّد دعوى كذَّبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أميٌّ، لا يقرأ، ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهٰذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ.

﴿٣٢﴾ ﴿وإذْ قالوا اللهمَّ إن كان هٰذا﴾: الذي يدعو إليه محمدٌ، ﴿هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتِنا بعذابٍ أليم﴾: قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب؛ فلو أنَّهم إذا قاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرةٍ ويقينٍ منه قالوا لمن ناظَرَهم وادَّعى أن الحقَّ معه: إنْ كان هٰذا هو الحقَّ من عندك؛ فاهِدْنا له؛ لكان أولى لهم وأستر لظلمهم؛ فمذ قالوا: ﴿اللهمَّ إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك...﴾ الآية؛ عُلم بمجرَّد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء الجهلة الظالمون.

﴿٣٣﴾ فلو عاجلهم الله بالعقاب؛ لما أبقى منهم باقيةً، ولكنَّه تعالى دَفَعَ عنهم العذابَ بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿وما كان الله لِيُعَذِّبَهم وأنت فيهم﴾: فوجوده ﷺ [بين أظهرهم] أَمَنَةٌ لهم من العذاب، وكانوا مع قولهم هٰذه المقالة التي يظهِرونها على رؤوس الأشهاد يدرون بقُبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرونَ الله تعالى؛ فلهٰذا قال[1]: ﴿وما كان الله لِيُعَذِّبَهم وهم

(١) في (ب): «فيستغفرون الله، قال تعالى».

يستغفرونَ﴾: فهٰذا مانعٌ يمنع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابُه.

﴿٣٤﴾ ثم قال: ﴿وما لهم أن لا يعذِّبَهم اللّه﴾؛ أي: أيُّ شيء يمنعُهم من عذاب اللّه وقد فعلوا ما يوجِبُ ذٰلك؟ وهو صدُّ الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدَّهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهٰذا قال: ﴿وما كانوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿أولياءه﴾: يُحتمل أنَّ الضمير يعود إلى اللّه؛ أي: أولياء اللّه، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام؛ أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. ﴿إن أولياؤُهُ إلا المتَّقون﴾: وهم الذين آمنوا باللّه ورسوله وأفردوا اللّه بالتوحيد والعبادة وأخلصوا له الدين. ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ﴾: فلذٰلك ادَّعوا لأنفسهم أمراً غيرُهم أولى به.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ يعني: أن اللّه تعالى إنما جعل
العبادة؛ فالمؤمنون هم الذين قاموا بهٰذا ا
عنه؛ فما كان صلاتُهم فيه، التي هي أ
أي: صفيراً وتصفيقاً؛ فعلَ الجهلة الأغبياء
معرفة بحقوقه ولا احترام لأفضل البقاع
فكيف ببقيَّة العبادات؟! فبأيِّ شيء كانوا
في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن ا
اللّه به من الصفات الحميدة والأفعال
ومكَّنهم منه، وقال [لهم] بعدما مكَّن له
نَجَسٌ فلا يَقْرَبوا المسجدَ الحرامَ بعد عام
كنتُم تكفرون﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّ
وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم ومبارزتهم للّه ولرسوله وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمتِهِ، وأنَّ وبالَ مكرِهم سيعود عليهم، ولا يَحيقُ المكر السِّيئ إلَّا بأهله، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا ينفقون أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل اللّه﴾؛ أي: ليبطلوا الحقَّ، وينصروا الباطل، ويَبْطُلَ توحيدُ الرحمٰن، ويقومَ دينُ عبادة الأوثان.

﴿فسينفقونها﴾؛ أي: فسيصدِرون هٰذه النفقة، وتَخِفُّ عليهم، لتمسُّكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون ﴿عليهم حسرةً﴾؛ أي: ندامةً وخزياً وذلاً، ﴿ثم يُغلَبون﴾: فتذهب أموالهم وما أمَّلوا، ويعذَّبون في الآخرة أشدَّ العذاب، ولهٰذا قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنَّم يُحشرون﴾؛ أي: يجمعون إليها ليذوقوا عذابها، وذٰلك لأنَّها دار الخبث والخبثاء.

﴿٣٧﴾ والله تعالى يريد أن يَميز الخبيثَ من الطيب، ويجعلَ كلَّ واحدةٍ على حِدَةٍ وفي دار تخصُّه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض من الأعمال والأموال والأشخاص، ﴿فَيَرْكُمَهُ جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذٰلك هو الخسران المبين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ هٰذا من لطفه تعالى بعباده؛ لا يمنعُهُ كفرُ العباد ولا استمرارُهم في العناد من أن يدعُوهم إلى طريق الرشاد والهدى وينهاهم عما يُهْلِكُهم من أسباب الغيِّ والرَّدى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن يَنتَهوا﴾: عن كفرهم، وذٰلك بالإسلام للّه وحده لا شريك له، ﴿يُغفَرْ لهم ما قد سَلَفَ﴾: منهم من الجرائم. ﴿وإن يعودوا﴾: إلى كفرهم وعنادهم، ﴿فقد مضت سُنَّةُ الأولين﴾: بإهلاك الأمم المكذِّبة؛ فلينتظروا ما حلَّ بالمعاندين؛ فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون. فهٰذا خطابُهُ للمكذِّبين.

﴿٣٩﴾ وأمَّا خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين؛ فقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾؛ أي: شركٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه، ويذعنوا لأحكام الإسلام.

﴿ويكونَ الدِّينُ كلُّه لله﴾: فهٰذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين: أن يُدْفَعَ شرُّهم عن الدين، وأن يُذَبَّ عن دين الله الذي خَلَقَ الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان. ﴿فإن انتهوا﴾: عن ما هم عليه من الظلم، ﴿فإنَّ الله بما يعملون بصير﴾: لا تخفى عليه منهم خافيةٌ.

﴿٤٠﴾ ﴿وإن تولَّوا﴾: عن الطاعة، وأوضعوا في الإضاعة، ﴿فاعلموا أنَّ الله مولاكم نعم المولى﴾: الذي يتولَّى عباده المؤمنين، ويوصِلُ إليهم مصالحهم وييسِّر[1] لهم منافعهم الدينيَّة والدنيويَّة. ﴿ونعم النصيرُ﴾: الذي ينصُرُهم فيدفع عنهم كيدَ الفجّار وتكالب الأشرار، ومَن كان الله مولاه وناصره؛ فلا خوفٌ عليه، ومَنْ كان الله عليه؛ فلا عزَّ له ولا قائمة له.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى: ﴿واعلموا أنَّما غنمتُم من شيءٍ﴾؛ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحقٍّ قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فأنَّ لله خُمُسَه﴾؛ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون؛ لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدلَّ على أن الباقي لهم، يُقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهمٌ، وللفارس سهمان لفرسه وسهم له، **وأما** هٰذا الخمس؛ فيقسم خمسة أسهم: سهمٌ لله ولرسوله يُصْرَف في مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة؛ لأنَّ الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيّان عنه، فعُلِمَ أنه لعباد الله؛ فإذا لم يعيِّن الله له مصرفاً؛ دلَّ على أن مَصْرِفَه للمصالح العامة. **والخمس الثاني**: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أنَّ العلة فيه مجرَّد القرابة، فيستوي فيه غنيُّهم وفقيرهم ذكرهم وأنثاهم. **والخمس الثالث**: لليتامى،

(١) في (ب): «وتُيَسِّرُ».

وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغارٌ، جعل اللّه لهم خُمُسَ الخمس رحمةً بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فُقِدَ من يقوم بمصالحهم. **والخمس الرابع**: للمساكين؛ أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار ذكور وإناث. **والخمس الخامس**: لابن السبيل، و[هو][1] الغريب المنقطَعُ به في غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرُجُ عن هٰذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذٰلك تَبَعٌ للمصلحة، وهٰذا هو الأولى.

وجعل اللّه أداء الخُمُس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إن كُنتم آمنتُم باللّه وما أنزلْنا على عبدِنا يوم الفرقان﴾: وهو يوم بدرٍ، الذي فرّق اللّه به بين الحقّ والباطل، وأظهر الحقَّ وأبطل الباطل. ﴿يوم التقى الجمعانِ﴾: جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كان إيمانُكم باللّه وبالحقِّ الذي أنزله اللّه على رسوله يوم الفرقان الذي حصل فيه من الآيات والبراهين ما دلَّ على أن ما جاء به هو الحقُّ. ﴿واللّه على كلِّ شيء قدير﴾: لا يغالبه أحدٌ إلا غلبه.

﴿٤٢﴾ ﴿إذ أنتم بالعُدْوَةِ الدُّنيا﴾؛ أي: بعُدْوَة الوادي القريبة من المدينة. وهم بعدوته؛ أي: جانبه البعيدة من المدينة؛ فقد جمعكم وادٍ واحدٌ. ﴿والركب﴾: الذي خرجتُم لطلبه، وأراد اللّه غيره ﴿أسفلَ منكم﴾: مما يلي ساحل البحر. ﴿ولو تواعدتُم﴾: أنتم وإيَّاهم على هٰذا الوصف وبهٰذه الحال، ﴿لاختلفتُم في الميعادِ﴾؛ أي: لا بدَّ من تقدُّم أو تـأخُّر أو اختيار منزل أو غير ذٰلك مما يعرض لكم أو لهم يصدُفُكم عن ميعادهم[2]. ولٰكنَّ: اللّهَ جمعكم على هٰذه الحال، ﴿لِيَقْضِيَ الله أمرا كان مفعولا﴾؛ أي: مقدراً في الأزل لا بدَّ من وقوعه. ﴿لِيَهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة﴾؛ أي: ليكون حجَّة وبيِّنة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذرٌ عند اللّه. ﴿ويحيا مَنْ حَيَّ عن بيّنةٍ﴾؛ أي: يزداد المؤمن بصيرةً ويقيناً بما أرى اللّه الطائفتين من أدلَّة الحقِّ وبراهينه ما هو تذكرة لأولي الألباب. ﴿وإن اللّه لسميعٌ عليمٌ﴾: سميعٌ لجميع الأصوات باختلاف اللُّغات على تفنُّن الحاجات، عليمٌ بالظواهر والضمائر والسرائر والغيب والشهادة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «هم». والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «عن ميعادكم».

ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ وكان اللّه قد أرى رسولَه المشركين في الرؤيا العدو قليلاً، فبشَّر بذلك أصحابه، فاطمأنَّت قلوبُهم وثبتت أفئدتهم. ﴿ولو أراكَهم اللّهُ كثيراً﴾: فأخبرتَ بذلك أصحابك، ﴿لَفَشِلْتُم ولَتَنازَعْتُم في الأمر﴾: فمنكم من يرى الإقدامَ على قتالهم ومنكم من لا يرى ذلك، والتنازع مما يوجب الفشل[1]، ﴿ولكنَّ اللّه سلَّم﴾؛ أي: لطف[2] بكم. ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها من ثبات وجَزَع وصدق وكذب، فعلم اللّه من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانِهِ بكم وصدق رؤيا رسوله، فأرى اللّه المؤمنين عدوَّهم قليلاً في أعينهم، ويقلِّلكم يا معشر المؤمنين في أعينهم؛ فكلٌّ من الطائفتين ترى الأخرى قليلة؛ لِتُقْدِمَ كلٌّ منهما على الأخرى. ﴿ليقضيَ اللّهُ أمراً كان مفعولاً﴾: من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ له اسم يذكر، فيتيسَّر بعد ذلك انقيادُهم إذا دُعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفاً بالباقين، الذين مَنَّ اللّه عليهم بالإسلام. ﴿وإلى اللّه تُرْجَعُ الأمور﴾؛ أي: جميع أمور الخلائق تَرْجِعُ إلى اللّه، فَيميزُ الخبيثَ من الطيب، ويحكمُ في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جَوْر فيه ولا ظلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ومنكم من لا يرى ذلك، فوقع من الاختلاف والتنازع».

(٢) في (ب): «فلطف».

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقيتُم فئةً﴾؛ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم، ﴿فاثبُتوا﴾: لقتالها، واستعمِلوا الصبر وحبس النفس على هٰذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتُها العزُّ والنصر، واستعينوا على ذٰلك بالإكثار من ذكر اللّه. ﴿لعلَّكم تفلحون﴾؛ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم؛ فالصبرُ والثبات والإكثار من ذِكْر اللّه من أكبر الأسباب للنصر.

﴿٤٦﴾ ﴿وأطيعوا اللّه ورسوله﴾: في استعمال ما أمرا به والمشي خلف ذٰلك في جميع الأحوال، ﴿ولا تنازعوا﴾: تنازعاً يوجِبُ تشتُّت القلوب وتفرقها، ﴿فتفشلوا﴾؛ أي: تجبُنوا، ﴿وتذهبَ ريحُكم﴾؛ أي: تنحلُّ عزائمكم وتُفرَّقُ قوتكم ويُرْفَعُ ما وُعِدتم به من النصر على طاعة اللّه ورسوله، ﴿واصبروا﴾: نفوسَكم على طاعة اللّه. ﴿إنَّ اللّه مع الصابرين﴾: بالعون والنصر والتأييد.

﴿٤٧﴾ واخشعوا لربكم واخضعوا له، ﴿ولا تكونوا كالذين خَرَجوا من ديارهم بطراً ورِئاءَ الناس ويصدُّون عن سبيل اللّه﴾؛ أي: هٰذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهٰذا الذي أبرزهم من ديارِهم؛ لقصدِ الأشَرِ والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم، والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدُّوا عن سبيل اللّه من أراد سلوكه. ﴿واللّه بما يعملون محيطٌ﴾: فلذٰلك أخبركم بمقاصدهم، وحذَّركم أن تشبَّهوا بهم؛ فإنه سيعاقبهم على ذٰلك أشدَّ العقوبة، فليكنْ قصدُكم في خروجكم وجهَ اللّه تعالى، وإعلاء دين اللّه، والصدَّ عن الطرق الموصلة إلى سَخَطِ اللّه وعقابِهِ، وجَذْبَ الناس إلى سبيل اللّه القويم الموصل لجنات النعيم.

﴿٤٨﴾ ﴿وإذ زيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم﴾: حسَّنها في قلوبهم [وخدعهم]، ﴿وقال لا غالبَ لكمُ اليومَ من الناس﴾: فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئةٍ لا يقاومكم فيها محمدٌ ومن معه. ﴿وإني جارٌ لكم﴾: من أن يأتيكم أحدٌ ممَّن تخشون غائلته؛ لأنَّ إبليس قد تبدَّى لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوةٍ كانت بينهم، فقال لهم الشيطان: أنا جارٌ لكم! فاطمأنت نفوسُهم وأتوا على حَرْدٍ قادرينَ. فلما ﴿تراءتِ الفئتان﴾: المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريلَ عليه السلام يَزَع الملائكة؛ خاف خوفاً شديداً، ﴿ونكص على عقبيه﴾؛ أي: ولى مدبراً، ﴿وقال﴾: لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾؛ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم؛ ﴿إني أخاف الله﴾؛ أي: أخاف أن يعاجِلَني بالعقوبة في الدنيا، ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان [قد] سوَّلَ لهم، ووسوس في صدورهم أنَّه لا غالبَ لهم اليوم من الناس وأنَّه جار لهم، فلما أوردهم موارِدَهم؛ نكص عنهم، وتبرَّأ منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَثَل الشيطان إذْ قال للإنسانِ اكفُرْ فلمَّا كَفَرَ قال إنِّي بريءٌ منك إني أخافُ اللّه ربَّ العالمين فكانَ عاقِبَتَهُما أنَّهما في النارِ خالِدَيْن فيها وذٰلك جزاء الظالمين﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ وشبهةٌ من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قلَّتهم على قتال المشركين مع كثرتهم: ﴿غرَّ هٰؤلاء دينُهم﴾؛ أي: أوردهم الدينُ الذي هم عليه هٰذه الموارد التي لا يدان لهم بها ولا استطاعةَ لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم واللّه الأخفاءُ عقولاً الضعفاءُ أحلاماً؛ فإنَّ الإيمان يوجبُ لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلةِ التي لا يقدِمُ عليها الجيوش العظام؛ فإنَّ المؤمن المتوكِّل على اللّه الذي يعلم أنه ما من حولٍ ولا قوةٍ ولا استطاعةٍ لأحدٍ إلا باللّه تعالى، وأنَّ الخلق لو اجتمعوا كلُّهم على نفع شخص بمثقال ذرَّةٍ؛ لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوه؛ لم يضرُّوه؛ إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه عليه، وعلم أنَّه على الحقِّ، وأن اللّه تعالى حكيمٌ رحيمٌ في كلِّ ما قدَّره وقضاه؛ فإنَّه لا يبالي بما أقدم عليه من قوَّةٍ وكثرةٍ، وكان واثقاً بربِّه مطمئن القلب لا فزعاً ولا جباناً، ولهٰذا قال: ﴿ومن يتوكَّلْ علي اللّه فإنَّ اللّه عزيزٌ﴾: لا يغالِبُ قوتَه قوةٌ. ﴿حكيمٌ﴾: فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: الذين كفروا بآيات اللّه حين توفَّاهم الملائكةُ الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم والملائكة ﴿يضرِبون وجوهَهم وأدبارَهم﴾: يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم! ونفوسُهم متمنِّعة متعصِّية[1] على الخروج؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم. ولهٰذا قال: ﴿وذوقوا عذابَ الحريق﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق.

(١) في (ب): «مستعصية».

﴿٥١﴾ ذٰلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدَّمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت.

﴿٥٢﴾ وهٰذه سنة اللّه في الأولين والآخرين؛ فإنَّ دأب هٰؤلاء المكذِّبين؛ أي: سنتهم وما أجرى اللّه عليهم من الهلاك بذنوبهم، ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾: من الأمم المكذبة، ﴿كفروا بآياتِ اللّه فأخذَهم اللّه﴾: بالعقاب ﴿بذنوبهم إنَّ اللّه قويٌ شديد العقاب﴾: لا يعجِزُه أحدٌ يريد أخذه. ﴿ما من دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿ذٰلك﴾: العذاب الذي أوقعه اللّه بالأمم المكذِّبة[1] وأزال عنهم ما هم فيه من النِّعم والنعيم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإنَّ ﴿اللّه لم يكن مغيِّراً نعمةً أنعمها على قوم﴾: من نعم الدِّين والدُّنيا، بل يبقيها ويزيدُهم منها إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾: من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة اللّه، ويبدِّلوا بها كفراً، فيسلُبُهم إيَّاها ويغيِّرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، وللّه الحكمة في ذٰلك والعدل والإحسان إلى عباده[2]؛ حيث لم يعاقبهم إلَّا بظُلمهم، وحيث جَذَبَ قلوب أوليائه إليه بما يذيقُ العباد من النَّكال إذا خالفوا أمره. ﴿وأنَّ اللّه سميعٌ عليمٌ﴾: يسمع جميعَ ما نطق به الناطقون، سواءٌ من أسرَّ القول ومن جهر به. ويعلم ما تنطوي عليه الضمائرُ وتخفيه السرائرُ، فيُجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمُهُ، وجرت به مشيئتُهُ.

﴿٥٤﴾ ﴿كدأب آل فرعون﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿والذين من قبلهم كذَّبوا بآيات ربِّهم﴾: حين جاءتهم، ﴿فأهلَكْناهم بذنوبهم﴾: كل بحسب جرمه، ﴿وأغرَقنا آلَ فرعون وكلٌ﴾: من المهلَكين المعذَّبين ﴿كانوا ظالمين﴾: لأنفسهم ساعين في هلاكها، لم يظلمْهُمُ اللّه ولا أخَذَهم بغير جُرم اقترفوه؛ فليحذرِ المخاطَبون أن يشابهوهم في الظلم، فيُحِلَّ اللّه بهم من عقابه ما أحلَّ بأولٰئك الفاسقين.

---

(١) في (ب): «المكذبين».
(٢) في (ب): «على عباده».

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ [يَذَّكَّرُونَ][1] ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥ ـ ٥٦﴾ هٰؤلاء الذين جمعوا هٰذه الخصالَ الثلاث ـ الكفر وعدم الإيمان والخيانة ـ بحيث لا يثبُتون على عهدٍ عاهدوه ولا قول قالوه هم ﴿شرُّ الدوابِّ عند الله﴾: فهم شرٌّ من الحمير والكلاب وغيرها؛ لأنَّ الخير معدوم منهم، والشرَّ متوقَّع فيهم.

﴿٥٧﴾ فإذهابُ هٰؤلاء ومحقُهم هو المتعيِّن؛ لئلَّا يسري داؤهم لغيرهم، ولهٰذا قال: ﴿فإمَّا تثقفَنَّهم في الحربِ﴾؛ أي: تجدنَّهم في حال المحاربة؛ بحيث لا يكون لهم عهدٌ وميثاقٌ. ﴿فشَرِّدْ بهم مَنْ خلفَهم﴾؛ أي: نكِّل بهم غيرهم، وأوقِعْ بهم من العقوبة ما يصيرون[2] عبرةً لمن بعدهم، ﴿لعلَّهم﴾؛ أي: من خلفهم [يتقون][3] صنيعهم؛ لئلَّا يصيبهم ما أصابهم. وهٰذه من فوائد العقوبات والحدود المرتَّبة على المعاصي أنها سببٌ لازدجار من لم يعمل المعاصي بل وزجراً لمن عملها أن لا يعاوِدَها. ودل تقييدُ هٰذه العقوبة في الحرب أنَّ الكافر ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر؛ أنه إذا أُعْطِيَ عهداً؛ لا يجوز خيانته وعقوبته.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهدٌ وميثاقٌ على ترك القتال، فخفتَ منهم خيانةً؛ بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدلُّ على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فانبِذْ إليهم﴾: عهدَهم؛ أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنَّه لا عهدَ بينك وبينهم ﴿على سواءٍ﴾؛ أي: حتى يستوي علمُك وعلمُهم بذٰلك، ولا يحلُّ لك أن تغدرهم أو تسعى في شيء مما مَنَعَهُ موجبُ العهدِ حتى تخبرهم بذٰلك. ﴿إنَّ الله لا يُحِبُّ الخائنين﴾: بل يُبْغِضُهم أشدَّ البغض؛ فلا بدَّ من أمرٍ بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة. ودلَّت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة [المحققة][4] منهم؛ لم يحتج أن

(١) في النسختين: «يتقون».
(٢) كذا في النسختين وفي (أ) زيادة «به» بخط مغاير فوق السطر.
(٣) كذا في النسختين.
(٤) كذا في (ب). وفي (أ): «المحقة».

ينبذ إليهم عهدَهم؛ لأنَّه لم يخفَ منهم، بل عُلِمَ ذٰلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿على سواءٍ﴾، وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرُكم. ودلَّ مفهومُها أيضاً أنه إذا لم يخفْ منهم خيانةً؛ بأنْ لم يوجدْ منهم ما يدلُّ على ذٰلك؛ أنَّه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء [به] إلى أن تتمَّ مدتُه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٩﴾ أي: لا يحسب الكافرون بربِّهم المكذِّبون بآياته أنهم سبقوا اللّه وفاتوه؛ فإنهم لا يعجزونه، واللّه لهم بالمرصاد، وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانُهم وتزوُّدهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به إلى المنازل العالية واتصافُهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها؛ فلهٰذا قال لعباده المؤمنين:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ أي: ﴿وأعدُّوا﴾: لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتُم من قوَّةٍ﴾؛ أي: كل ما تقدرون عليه من القوَّة العقليَّة والبدنيَّة وأنواع الأسلحة ونحو ذٰلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذٰلك أنواع الصناعات التي تُعمل فيها أصنافُ الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجويَّة والمراكب البريَّة والبحريَّة [والحصون] والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدَّم المسلمون ويندفعُ عنهم به شرُّ أعدائهم وتعلُّم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «ألا إنَّ القوَّة الرمي»[(١)]. ومن ذٰلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ومِن رِباط الخيل تُرهِبونَ به عدوَّ اللّه وعدوَّكم﴾: وهٰذه العلة موجودةٌ فيها في ذٰلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء. والحكمُ يدور مع علَّته؛ فإذا كان موجوداً شيء[(٢)] أكثر إرهاباً منها ـ كالسيارات البريَّة والهوائيَّة المعدَّة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد؛ كانت مأموراً

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر.

(٢) في (ب): «شيئاً»؟ وعدلت في (أ): «شيء» بخط مغاير.

بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة؛ وجب ذٰلك؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب. وقوله: ﴿تُرْهِبونَ به عدوَّ اللّهِ وعدوَّكم﴾: ممن تعلمون أنهم أعداؤكم، ﴿وآخرين مِن دونهم لا تعلمونَهم﴾: ممَّن سيقاتلونكم بعد هٰذا الوقت الذي يخاطبهم اللّه به، ﴿اللّه يعلمُهم﴾: فلذٰلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يُعين على قتالهم بذلُ النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهٰذا قال تعالى مرغباً في ذٰلك: ﴿وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل اللّه﴾: قليلاً كان أو كثيراً، ﴿يوفَّ إليكم﴾: أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل اللّه تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وأنتم لا تُظلمون﴾؛ أي: لا تُنْقَصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦١﴾ يقول تعالى ﴿وإن جنحوا﴾؛ أي: الكفار المحاربون؛ أي: مالوا إلى السَّلْم؛ أي: الصلح وترك القتال، ﴿فاجنحْ لها وتوكَّلْ على اللّه﴾؛ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربِّك؛ فإنَّ في ذٰلك فوائد كثيرةً: **منها**: أن طلب العافية مطلوبٌ كلَّ وقت؛ فإذا كانوا هم المبتدئين في ذٰلك؛ كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذٰلك إجماماً لِقُواكم واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذٰلك[1]. **ومنها**: أنَّكم إذا أصلحتُم وأمن بعضكم بعضاً وتمكَّن كلٌّ من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه؛ فكلُّ مَن له عقلٌ وبصيرة إذا كان معه إنصافٌ؛ فلا بدَّ أن يؤثره على غيره من الأديان؛ لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم. وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه؛ فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتَّبعون له، فصار هٰذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين.

﴿٦٢ ـ ٦٣﴾ ولا يُخاف من السلم إلا خَصْلة واحدة، وهي أن يكون الكفار

(١) في (ب): «احتيج لذلك».

قصدهم بذٰلك خَدْع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم اللّه أنَّه حسبُهم وكافيهم خداعهم، وأنَّ ذٰلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وإن يريدوا أن يَخدَعوك فإنَّ حسبَك اللّه﴾؛ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهمَّاتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئنُّ به قلبك، فَلَهُوَ ﴿الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين﴾؛ أي: أعانك بمعونة سماويَّة، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيَّضهم لنصرك، ﴿وألَّف بين قلوبهم﴾: فاجتمعوا، وائتلفوا، وازدادت قوَّتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هٰذا بسعي أحدٍ، ولا بقوَّة غير قوَّة اللّه، فلو ﴿أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾: من ذهبٍ وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة، ﴿ما ألَّفتَ بين قلوبهم﴾: لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا اللّه تعالى. ﴿ولٰكنَّ اللّه ألَّف بينهم إنَّه عزيزٌ حكيمٌ﴾: ومن عزَّته أن ألَّف بين قلوبهم وجمعها بعد الفرقة؛ كما قال تعالى: ﴿واذكُروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتُم أعداءً فألَّفَ بين قلوبِكُم فأصبحتُم بنعمتِهِ إخواناً وكنتُم على شفا حُفْرَةٍ من النار فأنقذكم منها﴾.

﴿٦٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ حسبك اللّه﴾؛ أي: كافيك، ﴿ومن اتَّبعك من المؤمنين﴾؛ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين. وهٰذا وعدٌ من اللّه لعباده المؤمنين المتَّبعين لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء؛ فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع؛ فلا بدَّ أن يكفِيَهم ما أهمَّهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلَّف الكفاية بتخلُّف شرطها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يا أيها النبيُّ حرِّض المؤمنين على القتال﴾؛ أي: حُثَّهم ونهِّضهم إليه بكل ما يقوِّي عزائمهم وينشط هممهم؛ من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضدِّ ذٰلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتَّب على ذٰلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضارِّ الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم، ﴿إن

تكونوا تألَمونَ فإنَّهم يألَمونَ كما تألَمونَ وترجونَ من اللّه ما لا يرجون﴾. ﴿إن يكن منكم﴾: أيها المؤمنون، ﴿عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكُم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾: يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأنَّ الكفار ﴿قومٌ لا يفقهون﴾؛ أي: لا علم عندهم بما أعدَّ اللّه للمجاهدين في سبيله؛ فهم يقاتلون لأجل العلوّ في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال أنَّه لإعلاء كلمة اللّه، وإظهار دينه، والذبِّ عن كتاب اللّه وحصول الفوز الأكبر عند اللّه، وهٰذه كلُّها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

﴿٦٦﴾ ثُمَّ إن هٰذا الحكم خففه اللّه على العباد، فقال: ﴿الآن خفَّف اللّه عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾: فلذٰلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف. ﴿فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن اللّه واللّه مع الصابرين﴾: بعونه وتأييده.

وهٰذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هٰذا المقدار المعيَّن يغلبون ذٰلك المقدار المعيَّن، في مقابلته من الكفار، وأن اللّه يمتنُّ عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية، ولكنَّ معناها وحقيقتها الأمر، وأنَّ اللّه أمر المؤمنين في أول الأمر أن الواحد لا يجوز له أن يفرَّ من العشرة والعشرة من المائة والمائة من الألف، ثم إنَّ اللّه خفَّف ذٰلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار؛ فإن زادوا على مثليهم؛ جاز لهم الفرار.

ولٰكن يرِدُ على هٰذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأنَّ المقصود بذٰلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييدُ ذٰلك العدد أن يكونوا صابرين؛ بأن يكونوا متدرِّبين على الصبر، ومفهوم هٰذا أنَّهم إذا لم يكونوا صابرين؛ فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، إذا غَلَبَ على ظنِّهم الضرر؛ كما تقتضيه الحكمة الإلٰهية.

ويجاب عن الأول بأنَّ قوله: ﴿الآن خفَّف اللّه عنكم...﴾ إلى آخرها: دليلٌ على أن هٰذا الأمر[1] لازمٌ وأمر محتَّم، ثم إن اللّه خفَّفه إلى ذٰلك العدد؛ فهٰذا ظاهرٌ في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر، وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر

(١) في (ب): «أمر».

نكتةٌ بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذٰلك بالصابرين أنه حثٌّ على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذٰلك؛ فإذا فعلوها؛ صارت الأسباب الإيمانيَّة والأسباب الماديَّة مبشِّرة بحصول ما أخبر اللّه به من النصر لهٰذا العدد القليل.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٧﴾ هٰذه معاتبة من اللّه لرسوله وللمؤمنين يوم بدر إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هٰذه الحال قتلَهم واستئصالهم، فقال تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتَّى يُثْخِنَ في الأرض﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه، ويسعَوْن لإخماد دينه وأن لا يبقى على وجه الأرض مَن يعبدُ اللّه أن يتسرَّع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصُلُ منهم، وهو عَرَضٌ قليلٌ بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرِّهم؛ فما دام لهم شرٌّ وصولةٌ؛ فالأوفق أن لا يؤسروا؛ فإذا أُثخنوا، وبَطَلَ شرُّهم، واضمحلَّ أمرُهم؛ فحينئذٍ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم. يقول تعالى: ﴿تريدون﴾: بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: لا لمصلحة تعودُ إلى دينكم. ﴿واللّه يريدُ الآخرة﴾: بإعزاز دينه ونصر أوليائه وجعل كلمتهم عاليةً فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذٰلك. ﴿واللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾؛ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال؛ لفعلَ، ولٰكنه حكيمٌ يبتلي بعضكم ببعض.

﴿٦٨﴾ ﴿لولا كتابٌ من اللّه سَبَقَ﴾: به القضاء والقدر؛ أنَّه قد أحلَّ لكم الغنائم، وأنَّ اللّه رفع عنكم أيُّها الأمة العذاب، ﴿لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ﴾. وفي الحديث: «لو نزل عذابٌ يوم بدر؛ ما نجا منه إلا عمر»[١].

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٦) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وله شاهد بنحوه عند مسلم (١٧٦٣).

﴿٦٩﴾ ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً﴾: وهٰذا من لطفه تعالى بهٰذه الأمة أن أحلَّ لها الغنائم ولم تحلَّ[1] لأمة قبلها، ﴿واتَّقوا الله﴾: في جميع أموركم، ولازموها شكراً لنعم الله عليكم. ﴿إنَّ الله غفورٌ﴾: يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشركْ به شيئاً جميع المعاصي، ﴿رحيمٌ﴾: بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧٠﴾ وهٰذه نزلت في أسارى يوم بدر[2]، وكان من جملتهم العباس عمُّ رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء؛ ادَّعى أنه مسلم قبل ذٰلك، فلم يسقِطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لخاطره ومَنْ كان على مثل حالِهِ: ﴿يا أيُّها النبيُّ قلْ لِمَن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يؤتِكُم خيراً ممَّا أُخِذَ منكم﴾؛ أي: من المال، بأن ييسِّر لكم من فضله خيراً كثيراً[3] مما أخذ منكم، ﴿ويَغْفِرْ لكم﴾: ذنوبكم ويدخلكم الجنة. ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾: وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له بعد ذٰلك من المال شيءٌ كثيرٌ، حتى إنه مرَّة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير؛ أتاه العباس، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حملَه، فأخذ منه ما كاد أن يعجزَ عن حمله[4].

﴿٧١﴾ ﴿وإن يريدوا خيانَتَكَ﴾: في السعي لحربك ومنابذتك، ﴿فقد خانوا الله من قبلُ فأمْكَنَ منهم﴾: فليحذَروا خيانتك؛ فإنه تعالى قادرٌ عليهم، وهم تحت قبضته. ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرَعَ لكم هٰذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد[5] تكفَّل بكفايتكم شأنَ الأسرى وشرَّهم إن أرادوا خيانةً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟

---

(١) في (ب): «ولم يحلها».
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس.
(٣) في (ب): «خيراً وأكثر».
(٤) أخرجه البخاري (٤٢١) تعليقاً بصيغة الجزم.
(٥) في (ب): «وإنْ».

وَنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٢﴾ هٰذا عقدُ موالاة ومحبَّة عقدها اللّه بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل اللّه وتركوا أوطانهم للّه لأجل الجهاد في سبيل اللّه وبين الأنصار الذين آوَوْا رسولَ اللّه ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم؛ فهٰؤلاء بعضُهم أولياءُ بعض؛ لكمال إيمانهم وتمام اتِّصال بعضهم ببعض. ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فإنَّهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدَّة الحاجة إلى الرجال، فلمَّا لم يهاجروا؛ لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيءٌ، لكنَّهم ﴿إن استنصروكم في الدين﴾؛ أي: لأجل قتال من قاتلهم؛ [لأجل دينهم] ﴿فعليكُمُ النصرُ﴾: والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذٰلك من المقاصد؛ فليس عليكم نصرهم. وقوله تعالى: ﴿إلَّا على قوم بينكم وبينَهم ميثاقٌ﴾؛ أي: عهدٌ بترك القتال؛ فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميِّزون الذين لم يهاجروا قتالهم؛ فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينَكم وبينَهم من الميثاق. ﴿واللّه بما تعملونَ بصيرٌ﴾: يعلمُ ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرعُ لكم من الأحكام ما يَليقُ بكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧٣﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين؛ أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضُهم أولياء بعض[1]؛ فلا يواليهم إلَّا كافر مثلهم، وقوله: ﴿إلَّا تفعلوه﴾؛ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ بأن والَيْتموهم كلَّهم أو عاديتموهم كلَّهم أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين، ﴿تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ﴾: فإنه يحصُلُ بذٰلك من الشرِّ ما لا ينحصر من اختلاط الحقِّ بالباطل والمؤمن بالكافر وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة وغير ذٰلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يُتَّخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) في (ب): «البعض».

حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وهٰذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم:

﴿٧٤﴾ فقال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولٰئك هم المؤمنون[1]﴾: من المهاجرين والأنصار؛ هم: المؤمنون ﴿حقًّا﴾؛ لأنهم صدَّقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين. ﴿لهم مغفرة﴾: من الله تُمحى بها سيئاتهم وتضمحلُّ بها زلَّاتُهم. ﴿و﴾ لهم ﴿رزقٌ كريمٌ﴾؛ أي: خير كثير من الربِّ الكريم في جنات النعيم، وربما حصل لهم من الثواب المعجَّل ما تَقَرُّ به أعينهم، وتطمئنُّ به قلوبهم.

﴿٧٥﴾ وكذٰلك مَن جاء بعد هٰؤلاء المهاجرين والأنصار ممَّن اتَّبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فأولٰئك منكم﴾: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم؛ فهٰذه الموالاة الإيمانية، وقد كانت في أول الإسلام لها وقع كبيرٌ وشأنٌ عظيم، حتى إنَّ النبيَّ ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوَّة خاصَّة غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله: ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض فإن لم يكونوا؛ فأقرب قراباته من ذوي الأرحام كما دلَّ عليه عموم الآية الكريمة، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إنَّ الله بكلِّ شيء عليمٌ﴾: ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال. ولله الحمد والمنة.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «أي المؤمنون».

تفسير سورة براءة
ويقال سورة التوبة

وهي مدنية

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ أي: هٰذه ﴿براءةٌ من اللّه﴾ ومن ﴿رسوله﴾: إلى جميع المشركين المعاهدين؛ أنَّ لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر؛ فلا عهد لهم ولا ميثاق. وهٰذا لمن كان له عهدٌ مطلقٌ غير مقدَّر أو مقدرٌ بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدَّر بزيادة على أربعة أشهر؛ فإنه يتعيَّن أن يتمَّم له عهده إذا لم يُخَفْ منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهَدين في مدة عهدهم أنَّهم وإن كانوا آمنين؛ فإنهم لن يعجِزوا اللّه ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه؛ فإنه لا بدَّ أن يخزيه، فكان هٰذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام إلا من عاند، وأصرَّ، ولم يبال بوعيد اللّه.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

﴿٣﴾ هٰذا ما وعد اللّه به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومَنْ معه من مكة من بيت اللّه الحرام وأجلَوْهم مما لهم التسلُّط عليه من أرض الحجاز؛ نصر اللّهُ رسولَه والمؤمنين حتى افتتح مكة وأذلَّ المشركين وصار للمؤمنين الحكمُ والغَلَبَةُ على تلك الديار، فأمر النبيُّ ﷺ[1] مؤذِّنه أن يؤذِّن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب: أن يؤذِّن بأنَّ اللّه بريءٌ ورسوله من المشركين؛ فليس لهم عنده عهدٌ وميثاقٌ؛ فأينما وُجِدوا قُتِلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هٰذا! وكان ذٰلك سنة تسع من الهجرة، وحجَّ بالناس أبو

(١) في (ب): «فأمر اللّه».

بكر الصديق رضي الله عنه، وأذَّن ببراءة يوم النحر ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغَّب تعالى المشركين بالتوبة ورهَّبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: **﴿فإن تُبتُم فهو خيرٌ لكم وإن تولَّيتم فاعلموا أنَّكم غير معجزي الله﴾**؛ أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. **﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾**؛ أي: مؤلم مفظع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء وفي الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: هذه البراءة التامَّة المطلقة من جميع المشركين، **﴿إلَّا الذين عاهَدْتم من المشركين﴾**: واستمرُّوا على عهدهم، ولم يجرِ منهم ما يوجبُ النقضَ؛ فلا نَقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً؛ فهٰؤلاء أَتِمُّوا إليهم[1] عهدهم إلى مدتهم قلَّت أو كثرت؛ لأنَّ الإسلام لا يأمر بالخيانة، وإنما يأمر بالوفاء. **﴿إنَّ الله يحبُّ المتَّقين﴾**: الذين أدَّوا ما أمروا به، واتَّقوا الشرك والخيانة وغير ذٰلك من المعاصي.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ يقول تعالى: **﴿فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُم﴾**؛ أي: التي حُرِّم فيها قتال المشركين المعاهَدين، وهي أشهر التَّسْيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها؛ فقد برِئَت منهم الذمة. **﴿فاقتُلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾**: في أيِّ مكان وزمان، **﴿وخذوهم﴾**: أسرى، **﴿واحصُروهم﴾**؛ أي: ضيِّقوا عليهم؛ فلا تَدَعوهم يتوسَّعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها الله معبداً لعباده؛ فهٰؤلاء ليسوا أهلاً لسُكناها، ولا يستحقُّون منها شبراً؛ لأنَّ الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون[2] الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلَّا أن يُتِمَّ نورَه ولو كره الكافرون. **﴿واقعُدوا لهم كلَّ مرصدٍ﴾**؛ أي: كلَّ تنيَّة وموضع

---

(١) في (ب): «أتِمُّوا لهم».

(٢) في (ب): «المحاربة».

يمرُّون عليه، ورابطوا في جهادهم، وابذلوا غاية مجهودكم في ذٰلك، ولا تزالوا على هٰذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم. ولهٰذا قال: ﴿فإن تابوا﴾: من شركهم، ﴿وأقاموا الصَّلاة﴾؛ أي: أدّوها بحقوقها، ﴿وآتوا الزكاةَ﴾: لمستحقيها، ﴿فخلُّوا سبيلَهم﴾؛ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾: يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

وفي هٰذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة؛ فإنه يقاتَل حتَّى يؤديها؛ كما استدلَّ بذٰلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ لما كان ما تقدَّم من قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهرُ الحُرُم فاقتُلوا المشركين حيث وجدتموهم وخُذوهم واحصُروهم واقعُدوا لهم كلَّ مرصد﴾: أمراً عامًّا في جميع الأحوال وفي كلِّ الأشخاص منهم؛ ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم؛ جاز، بل وجب ذٰلك، فقال: ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارَكَ﴾؛ أي: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضَّرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام، ﴿فأجِرْه حتَّى يسمعَ كلام الله﴾: ثم إنْ أسلم؛ فذاك، وإلَّا؛ فأبلِغْه مأمَنه؛ أي: المحل الذي يأمن فيه.

والسبب في ذٰلك أن الكفار قومٌ لا يعلمون؛ فربَّما كان استمرارُهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام؛ فلذٰلك أمر الله رسوله. وأمَّتُه أسوتُه في الأحكام أن يجيروا من طَلَبَ أن يسمع كلام الله.

وفي هٰذا حجةٌ صريحةٌ لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنَّه تعالى هو المتكلِّم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم أنَّ القرآن مخلوقٌ، وكم من الأدلَّة الدالَّة على بطلان هٰذا القول، ليس هٰذا محل ذكرها!

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ هٰذا بيانٌ للحكمة الموجبة لأن يتبرَّأ الله ورسوله من المشركين، فقال:

﴿كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله﴾: هل قاموا بواجب الإيمان؟ أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أَمَا حاربوا الحقَّ ونصروا الباطل؟! أَمَا سَعَوْا في الأرض فساداً؟! فيحقُّ لهم أن يتبرَّأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهدٌ عنده ولا عند رسوله. ﴿إلَّا الذين عاهدتم﴾: من المشركين ﴿عند المسجد الحرام﴾: فإنَّ لهم في العهد ـ وخصوصاً في هٰذا المكان الفاضل ـ حرمة أوجب أن يراعوا فيها، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحبُّ المتَّقين﴾.

ولهٰذا قال:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿كيف﴾: يكون للمشركين عند الله عهدٌ وميثاقٌ. ﴿و﴾: الحال أنَّهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾: بالقدرة والسلطة لا يرحموكم. و ﴿لا يرقبوا فيكم إلَّا ولا ذِمَّة﴾؛ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب؛ فهٰذه حالكم معهم لو ظهروا، ولا يغرَّنَّكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم ﴿يُرضونكم بأفواهِهم وتأبى قلوبُهم﴾: الميل والمحبَّة لكم، بل هم الأعداء حقًّا، المبغضون لكم صدقاً. ﴿وأكثرهم فاسقون﴾: لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿٩﴾ ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾؛ أي: اختاروا الحظَّ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله والانقياد لآيات الله، ﴿فصدُّوا﴾: بأنفسهم وصدُّوا غيرهم ﴿عن سبيله إنَّهم ساء ما كانوا يعملون﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لا يَرْقُبون في مؤمن إلَّا ولا ذمَّة﴾؛ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله؛ فالوصف الذي جعلهم[١] يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان.

﴿١١﴾ فَذُبُّوا عن دينكم وانصُروه واتَّخذوا مَن عاداه عدوًّا ومَن نَصَره لكم وليًّا واجعلوا الحكم يدور معه وجوداً وعدماً، لا تجعلوا الولاية والعداوة طَبْعِيَّةً[٢]

(١) في (ب): «جعلوهم».

(٢) في (ب): «طبيعيَّة».

تميلون بهما حيثما مال الهوى وتتَّبعون فيها[1] النفس الأمَّارة بالسوء، ولهٰذا [إنْ] ﴿تابوا﴾: عن شركهم ورجعوا إلى الإيمان، ﴿وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾: وتناسَوْا تلك العداوة إذ كانوا مشركين؛ لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهٰذا يكون العبد عبداً حقيقةً. لمَّا بيَّن من أحكامه العظيمة ما بيَّن، ووضَّح منها ما وضَّح أحكاماً وحكَماً وحُكْماً وحِكمةً؛ قال: ﴿ونفصِّل الآيات﴾؛ أي: نوضحها ونميزها ﴿لقوم يعلمون﴾: فإليهم سياق الكلام، وبهم تُعرف الآيات والأحكام، وبهم عُرف دين الإسلام وشرائع الدين. اللهمَّ اجعلنا من القوم الذين يعلمون ويعملون بما يعلمون برحمتك وجودك وكرمك وإحسانك يا رب العالمين!

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أنَّ المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وإن نَكَثوا أيمانَهم من بعد عهدِهم﴾؛ أي: نقضوها وحلُّوها؛ فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾؛ أي: عابوه وسخروا منه، ويدخُل في هٰذا جميع أنواع الطعن الموجَّهة إلى الدين أو إلى القرآن، ﴿فقاتِلوا أئمَّة الكفر﴾؛ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمٰن، الناصرين لدين الشيطان. وخصَّهم بالذكر لعظم جنايتهم ولأنَّ غيرهم تَبَعٌ لهم، وليدلَّ على أن مَن طَعَنَ في الدين، وتصدَّى للردِّ عليه فإنه من أئمة الكفر. ﴿إنهم لا أيمانَ لهم﴾؛ أي: لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم. ﴿لعلَّهم﴾: في قتالكم إياهم ﴿ينتهونَ﴾: عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه.

﴿١٣﴾ ثم حثَّ على قتالهم وهيَّج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هٰؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم، فقال: ﴿ألا تقاتلون

---

(١) في (ب): «فيهما».

قوماً نَكَثوا أيمانهم وهَمُّوا بإخراج الرسول﴾: الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه، وهمُّوا[١] أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذٰلك ما أمكنهم، **﴿وهم بدؤوكم أول مرة﴾**: حيث نقضوا العهود، وأعانوا عليكم وذٰلك حيث أعانت[٢] قريش وهم معاهدون بني بكرٍ حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكورٌ مبسوطٌ في السيرة. **﴿أتخشَوْنَهم﴾**: في ترك قتالهم؟ **﴿فالله أحقُّ أن تَخشَوْه إن كنتم مؤمنين﴾**: فالله[٣] أمركم بقتالهم، وأكَّد ذٰلك عليكم غاية التأكيد؛ فإن كنتم مؤمنين؛ فامتثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتتركوا أمر الله.

﴿١٤﴾ ثم أمر بقتالهم، وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد وكل هذا حثٌّ وإنهاضٌ للمؤمنين على قتالهم فقال: **﴿قاتلوهم يعذِّبهم اللهُ بأيديكم﴾**: بالقتل، **﴿ويُخزِهم﴾**: إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، **﴿ويَنصُرْكم عليهم﴾**: هٰذا وعدٌ من الله وبشارةٌ قد أنجزها، **﴿ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين﴾**.

﴿١٥﴾ ﴿ويُذْهِبْ غيظَ قلوبِهم﴾: فإنَّ في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلُهم شفاءً لما في قلوب المؤمنين من الغمِّ والهمِّ؛ إذ يَرَوْن هٰؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبكم[٤]. وهٰذا يدلُّ على محبة الله للمؤمنين[٥]، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعيَّة شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم. ثم قال: **﴿ويتوبُ الله على مَن يشاء﴾**: من هٰؤلاء المحاربين؛ بأن يوفِّقهم للدخول في الإسلام ويزيِّنه في قلوبهم ويكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان. **﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾**: يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلُحُ للإيمان فيهديه، ومن لا يصلُحُ فيبقيه في غيِّه وطغيانه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: **﴿أم حسبتُم أن**

---

(١) في (ب): «وهم همُّوا».
(٢) في (ب): «عاونت».
(٣) في (ب): «فإنه».
(٤) في (ب): «في قلوبهم».
(٥) في (ب): «لعباده المؤمنين».

تُتْرَكوا﴾: من دون ابتلاء وامتحان وأمر بما يَبِينُ به الصادقُ والكاذب، **﴿ولما يَعْلَم اللّهُ الذين جاهدوا منكم﴾**؛ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج؛ ليترتَّب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته، **﴿ولم يتَّخذوا من دون اللّه ولا رسولِهِ ولا المؤمنينَ وَليجةً﴾**؛ أي: وليًا من الكافرين، بل يتَّخذون اللّه ورسوله والمؤمنين أولياء. فشرع اللّه الجهادَ ليحصُلَ به هٰذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميَّزَ الصادقون الذين لا يتحيَّزون إلَّا لدين اللّه من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتَّخذون الولائج والأولياء من دون اللّه ولا رسوله ولا المؤمنين. **﴿واللّه خبيرٌ بما تعملون﴾**؛ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرِّها.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ يقول تعالى: **﴿ما كان﴾**؛ أي: ما ينبغي، ولا يليق **﴿للمشركين أن يَعْمُروا مساجد اللّه﴾**: بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، والحالُ أنهم شاهدون ومقرُّون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفِطرهم وعِلْم كثيرٍ منهم أنهم على الكفر والباطل؛ فإذا كانوا **﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾** وعَدم الإيمان الذي هو شرط لقَبول الأعمال؛ فكيف يزعُمون أنهم عمارُ مساجد اللّه؛ والأصل منهم مفقودٌ والأعمال منهم باطلةٌ؟! ولهٰذا قال: **﴿أولئك حَبِطَتْ أعمالهم﴾**؛ أي: بطلت وضلت. **﴿وفي النار هم خالدون﴾**.

﴿١٨﴾ ثم ذكر من هم عُمَّار مساجد اللّه، فقال: **﴿إنَّما يَعْمُرُ مساجدَ اللّه مَن آمن باللّه واليوم الآخر وأقامَ الصلاة﴾**: الواجبة والمستحبَّة بالقيام بالظَّاهر منها والباطن، **﴿وآتى الزكاة﴾**: لأهلها، **﴿ولم يَخْشَ إلا اللّه﴾**؛ أي: قَصَرَ خشيته على ربِّه، فكفَّ عن ما حرَّم اللّه، ولم يقصِّر بحقوق اللّه الواجبة؛ فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أُمُّها الصلاة والزكاة، وبخشية اللّه التي هي أصل كلِّ خير؛ فهٰؤلاء عُمَّار المساجد على الحقيقة وأهلُها الذين هم أهلها. **﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾**: و **﴿عسى﴾** من اللّه واجبةٌ، وأما مَن لم

يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشيةٌ لله؛ فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلُها، وإن زعم ذلك وادَّعاه.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٩﴾ لما اختلف بعضُ المسلمين أو بعضُ المسلمين وبعضُ المشركين في تفضيل عِمارة المسجد الحرام بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاجِّ على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ أخبر الله تعالى بالتفاوتِ بينهما، فقال: **﴿أجعلتُم سِقايةَ الحاجِّ﴾**؛ أي: سقيهم الماء من زمزم؛ كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد، **﴿وعِمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمَنَ بالله واليوم الآخر وجاهَدَ في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾**: فالجهادُ والإيمان بالله أفضلُ من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الإيمان أصلُ الدين وبه تُقبل الأعمال وتزكو الخصال، وأمَّا الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين، [الذي] به يُحفظ الدين الإسلامي ويتَّسع، ويُنْصَر الحقُّ ويُخْذَل الباطل، وأمَّا عِمارة المسجد الحرام وسقاية الحاجِّ؛ فهي، وإن كانت أعمالاً صالحةً؛ فهي متوقِّفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد؛ فلذلك قال: **﴿لا يستوونَ عند الله واللهُ لا يَهْدي القوم الظالمين﴾**؛ أي: الذين وَصْفُهُمُ الظلمُ، الذين لا يَصْلُحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشرُّ.

﴿٢٠﴾ ثم صرح بالفضل فقال: **﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾**: بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة، **﴿وأنفسهم﴾**: بالخروج بالنفس، **﴿أعظمُ درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون﴾**؛ أي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب إلَّا مَنْ اتَّصف بصفاتهم، وتخلَّق بأخلاقهم.

﴿٢١﴾ **﴿يبشِّرُهم ربُّهم﴾**: رحمةً[1] منه وكرماً وبرًّا بهم واعتناء ومحبة لهم، **﴿برحمة منه﴾**: أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كلَّ خير، **﴿ورضوانٍ﴾**:

---

(١) في (ب): «جوداً».

منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجلُّه، فيُحِلُّ عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً، ﴿وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ﴾: من كلِّ ما اشتهته الأنفس وتَلَذُّ الأعين مما لا يَعْلَمُ وصفَه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أنَّ الله أعدَّ للمجاهدين في سبيله مائة درجةٍ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلقُ في درجةٍ واحدةٍ منها؛ لَوَسِعَتْهم.

﴿٢٢﴾ ﴿خالدين فيها أبداً﴾: لا ينتقلون عنها ولا يبغون عنها حِوَلاً. ﴿إنَّ الله عندَه أجرٌ عظيمٌ﴾: لا تُستغرب كثرتُه على فضل الله، ولا يُتَعَجَّب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾: اعملوا بمقتضى الإيمان؛ بأن توالوا من قام به وتعادوا من لم يَقُم به. و ﴿لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم﴾: الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى؛ فلا تتَّخذوهم ﴿أولياء إن استحبُّوا﴾؛ أي: اختاروا على وجه الرِّضا والمحبَّة، ﴿الكفر على الإيمان ومَن يتولَّهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾: لأنَّهم تجرَّؤوا على معاصي الله، واتَّخذوا أعداء الله أولياء، وأصلُ الولاية المحبَّة والنُّصرة، وذلك أنَّ اتِّخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

﴿٢٤﴾ ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبَّة الله ورسوله يتعيَّن تقديمهما[1] على محبَّة كلِّ شيء، وجعلُ جميع الأشياء تابعةً لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم﴾: ومثلهم الأمهات، ﴿وإخوانكم﴾[2]: في النسب والعشرة، ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾؛ أي: قراباتكم عموماً، ﴿وأموالٌ اقترفْتُموها﴾؛ أي:

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «تقديمها». والصواب ما أثبت.

(٢) كذا في النسختين، دون ذكر ﴿وأبناكم﴾.

اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصَّها بالذِّكر لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشدُّ حرصاً عليها ممَّن تأتيه الأموال من غير تعبٍ ولا كدٍّ. ﴿**وتجارةٌ تخشَوْن كسادها**﴾؛ أي: رخصها ونقصها، وهٰذا شاملٌ لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان والأواني والأسلحة والأمتعة والحبوب والحروث والأنعام وغير ذٰلك. ﴿**ومساكنُ ترضَوْنَها**﴾: من حُسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم؛ فإن كانت هٰذه الأشياء ﴿**أحبَّ إليكم من اللّه ورسولِهِ وجهادٍ في سبيله**﴾: فأنتم فَسَقَةٌ ظَلَمَةٌ. ﴿**فتربَّصوا**﴾؛ أي: انتظروا ما يَحِلُّ بكم من العقاب، ﴿**حتَّى يأتيَ اللّه بأمره**﴾: الذي لا مَرَدَّ له. ﴿**واللّه لا يهدي القوم الفاسقين**﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة اللّه، المقدِّمين على محبَّة اللّه شيئاً من المذكورات.

وهٰذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبَّة اللّه ورسوله، وعلى تقديمهما على محبَّة كلِّ شيء، وعلى الوعيد الشديد والمَقت الأكيد على مَنْ كان شيءٌ من [هذه] المذكورات أحبَّ إليه من اللّه ورسوله وجهادٍ في سبيله، وعلامة ذٰلك أنَّه إذا عرض عليه أمران: أحدُهما يحبُّه اللّه ورسوله وليس لنفسه فيه هوىً. والآخرُ تحبُّه نفسه وتشتهيه ولٰكنَّه يفوِّت عليه محبوباً للّه ورسوله أو ينقصه؛ فإنَّه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبُّه اللّه؛ دلَّ على أنه ظالمٌ تاركٌ لما يجب عليه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

يمتنُّ تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرةٍ من مواطن اللقاء ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم حُنين الذي اشتدَّت عليهم فيه الأزمةُ ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقتْ عليهم به الأرضُ على رُحْبها وسَعَتها، وذٰلك أن النبيَّ ﷺ لما فتح مكة؛ سمع أنَّ هوازِنَ اجتمعوا لحربِهِ، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة وبِمَنْ أسلم من الطُّلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأُعْجِبَ بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلبَ اليوم من قلَّة، فلما التقَوْا هم وهوازن؛ حملوا على المسلمين حملةً واحدةً، فانهزموا لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، ولم يبقَ مع رسول اللّه ﷺ إلا نحو مائة رجل

ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يُرَكِّضُ بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطَّلِبْ»[١]. ولما رأى من المسلمين ما رأى؛ أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقيَّة المسلمين، وكان رفيعَ الصوت، فناداهم: يا أصحابَ السَّمُرة! يا أهل سورةِ البقرة! فلما سمعوا صوتَه؛ عطفوا عطفة رجل واحدٍ، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم اللّه المشركين هزيمةً شنيعةً، واستولَوْا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

﴿٢٥﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نَصَرَكم اللّه في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حنينٍ﴾: وهو اسمٌ للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف، ﴿إذ أعجبتْكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾؛ أي: لم تفِدْكم شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾: ـ بما أصابكم من الهمِّ والغمِّ حين انهزمتم ـ ﴿بما رَحُبَتْ﴾؛ أي: على رُحْبها وسَعَتها، ﴿ثم ولَّيتم مدبرينَ﴾؛ أي: منهزمين.

﴿٢٦﴾ ﴿ثم أنزل اللّه سكينَتَه على رسوله وعلى المؤمنين﴾: والسكينةُ: ما يجعله اللّه في القلوب وقتَ القلاقل والزلازل والمُفْظِعات مما يثبِّتها ويسكِّنها ويجعلها مطمئنةً، وهي من نعم اللّه العظيمة على العباد، ﴿وأنزل جنوداً لم تَرَوْها﴾: وهم الملائكةُ، أنزلهم اللّه معونةً للمسلمين يوم حنين يثبِّتونهم ويبشِّرونهم بالنصر، ﴿وعذَّب الذين كفروا﴾: بالهزيمة والقتل واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم. ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾: يعذِّبهم اللّه في الدنيا، ثم يردُّهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿٢٧﴾ ﴿ثم يتوبُ اللّه من بعد ذلك على من يشاءُ﴾: فتاب اللّه على كثيرٍ ممَّن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فردَّ عليهم نساءهم وأولادهم. ﴿واللّه غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: ذو مغفرةٍ واسعةٍ ورحمةٍ عامةٍ، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة والصفح عن جرائمهم وقَبول توباتهم، فلا ييأسنَّ أحدٌ من رحمته ومغفرته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥ و ١٧٧٦).

﴿هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنما المشركون﴾: باللّه، الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾؛ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأيُّ نجاسة أبلغ ممَّن كان يعبد مع اللّه آلهةً لا تنفع ولا تضرُّ ولا تغني عنه شيئاً، وأعمالهم ما بين محاربةٍ للّه وصدٍّ عن سبيل اللّه ونصرٍ للباطل وردٍّ للحق وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح؟! فعليكم أن تطهِّروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم؛ ﴿فلا يقرَبوا المسجد الحرام بعد عامهم هٰذا﴾: وهو سنة تسع من الهجرة، حين حجَّ بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبيُّ ﷺ ابن عمه عليًّا أن يؤذِّن يوم الحجِّ الأكبر ببراءة، فنادى أن لا يحجَّ بعد العام مشركٌ ولا يطوف بالبيت عُريانٌ[١]. وليس المراد هنا نجاسةَ البدن؛ فإن الكافر كغيره طاهر البدن؛ بدليل أن اللّه تعالى أباح وطء الكتابيَّة ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها[٢]، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفَّار، ولم يُنقَل عنهم أنهم تقذَّروا منها تقذُّرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدَّم نجاستهم المعنويَّة بالشرك؛ فكما أن التوحيد والإيمان طهارةٌ؛ فالشرك نجاسةٌ.

وقوله: ﴿وإن خِفتُم﴾: أيُّها المسلمون، ﴿عَيلَةً﴾؛ أي: فقراً وحاجة من منع المشركين من قُربان المسجد الحرام؛ بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيويَّة، ﴿فسوف يُغنيكم اللّه من فضله﴾: فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ومحلٍّ واحد، بل لا ينغلق بابٌ؛ إلَّا وفُتِحَ غيرُه أبوابٌ كثيرة؛ فإن فضل اللّه واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه[٣] الكريم؛ فإنَّ اللّه أكرم الأكرمين، وقد أنجز اللّه وعده؛ فإنَّ اللّه أغنى المسلمين من فضله، وبَسَطَ لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله: ﴿إن شاء﴾: تعليقٌ للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدلُّ على محبَّة اللّه؛ فلهٰذا علَّقه اللّه بالمشيئة؛ فإنَّ اللّه يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحبُّ. ﴿إنَّ اللّه عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: علمه واسعٌ، يعلم مَن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): «ولم يأمر يغتسل مما أصاب منها».

(٣) في (ب): «لوجهه».

يَليق به الغنى ومَن لا يَليق، ويضع الأشياء مواضعها، وينزِلها منازلها.

وتدلُّ الآية الكريمة ـ وهي قوله: ﴿فلا يَقْرَبوا المسجدَ الحرام بعد عامهم هٰذا﴾ ـ أنَّ المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول اللّٰه والمؤمنين مع إقامتهم في البيت ومكة المكرمة، ثم نزلت هٰذه الآية، ولما مات النبيُّ ﷺ؛ أمر أن يُجْلَوا من الحجاز؛ فلا يبقى فيها دينان، وكل هٰذا لأجل بُعْدِ كلِّ كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هٰذا﴾.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٩﴾ هٰذه الآية أمرٌ بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الذين لا يؤمنون باللّٰه ولا باليوم الآخر﴾: إيماناً صحيحاً يصدِّقونه بأفعالهم وأعمالهم، ﴿ولا يحرِّمون ما حرَّم اللّٰه﴾: فلا يتَّبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿ولا يَدينون دين الحقِّ﴾؛ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين؛ فإنه دينُ غير الحق؛ لأنه ما بين دين مبدَّل وهو الذي لم يشرعه اللّٰه أصلاً، وإمَّا دينٌ منسوخٌ قد شرعه اللّٰه ثم غيَّره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسُّك به بعد النسخ غير جائز. فأمَرَهُ بقتال هٰؤلاء وحثَّ على ذٰلك لأنَّهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب. وغَيَّا ذٰلك القتال: ﴿حتى يُعطوا الجزيةَ﴾؛ أي: المال الذي يكون جزاءً لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كلَّ عام كلٌّ على حسب حاله من غني وفقير ومتوسط؛ كما فعل ذٰلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين. وقوله: ﴿عن يدٍ﴾؛ أي: حتى يبذلوها[١] في حال ذُلِّهم، وعدم اقتدارهم، ويعطوها[٢] بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً، ولا غيره، بل لا تُقبل إلَّا من أيديهم. ﴿وهم صاغرونَ﴾: فإذا كانوا بهٰذه الحال، وسألوا المسلمين أن يُقِرُّوهم بالجزية وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرِّهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون، مما ينفي عزَّهم وتكبُّرَهم وتوجب ذلَّهم وصَغارهم؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدَها لهم،

(١) في (ب): «يبذلونها». (٢) في (ب): «يعطونها».

وإلَّا؛ بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ لم يَجُزْ إقرارهم بالجزية، بل يقاتَلون حتى يُسْلِموا.

واستدل بهٰذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلَّا من أهل الكتاب؛ لأنَّ اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلَّا منهم، وأمَّا غيرهم؛ فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا. وأُلحِق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين المجوس؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس[(١)].

وقيل: إن الجزية تُؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأنَّ هٰذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هٰذا القيد إخباراً بالواقع لا مفهوماً له، ويدلُّ على هٰذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنَّه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومَنْ بعدهم أنهم يَدْعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إمَّا الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف؛ من غير فرق بين كتابيٍّ وغيره.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم والاجتهاد وبذل الوسع فيه، فقال: ﴿وقالتِ اليهود عزيرٌ ابن اللّه﴾: وهٰذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامَّتهم؛ فقد قالها فرقةٌ منهم، فيدلُّ ذٰلك على أنَّ في اليهود من الخبث والشرِّ ما أوصلهم إلى أن قالوا هٰذه المقالة التي تجرؤوا فيها على اللّه وتنقَّصوا عظمته وجلاله. وقد قيل: إن سبب ادِّعائهم في عزير أنه ابن اللّه: أنه لما تسلَّط[(٢)] الملوك على بني إسرائيل ومزَّقوهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٧).

(٢) في (ب): «لما سلط».

كلَّ ممزَّق وقتلوا حَمَلَةَ التوراة؛ وَجَدوا عُزيراً بعد ذٰلك حافظاً لها أو أكثرها[١]، فأملاها عليهم من حفظِهِ، واستنسَخوها. فادَّعوا فيه هٰذه الدعوى الشنيعة. وقالت النصارى: عيسى ابن مريم ﴿ابنُ اللّه﴾، قال اللّه تعالى: ﴿ذٰلك﴾: القول الذي قالوه، ﴿قولُهم بأفواهِهِم﴾: لم يقيموا عليه حجَّة ولا برهاناً، ومَنْ كان لا يُبالي بما يقول لا يُسْتَغْرَبُ عليه أي قول يقوله؛ فإنه لا دين ولا عقل يحجُزُه عما يريد من الكلام، ولهٰذا قال: ﴿يضاهِئون﴾؛ أي: يشابهون في قولهم هٰذا ﴿قولَ الذين كفروا من قبلُ﴾؛ أي: قول المشركين الذين يقولون الملائكة بنات اللّه، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان. ﴿قاتلهم اللّه أنَّى يُؤفكونَ﴾؛ أي: كيف يُصرفون عن الحقِّ الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين؟!

﴿٣١﴾ وهٰذا وإن كان يُستغرب على أمةٍ كبيرةٍ كثيرة أن تتَّفق على قول يدلُّ على بطلانه أدنى تفكُّر وتسليطٍ للعقل عليه؛ فإن لذٰلك سبباً، وهو أنهم ﴿اتَّخذوا أحبارهم﴾: وهم علماؤهم، ﴿ورهبانَهم﴾؛ أي: العباد المتجردين للعبادة، ﴿أرباباً من دون اللّه﴾: يُحِلُّون لهم ما حرَّم اللّه فيُحِلُّونه، ويحرِّمون لهم ما أحلَّ اللّه فيحرِّمونه، ويَشْرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل، فيتَّبعونهم عليها، وكانوا أيضاً يغلون في مشايخهم وعُبادهم، ويعظِّمونهم، ويتَّخذون قبورهم أوثاناً تُعبد من دون اللّه، وتُقصد بالذبائح والدُّعاء والاستغاثة. ﴿والمسيحَ ابن مريم﴾: اتَّخذوه إلٰهاً من دون اللّه، والحال أنَّهم خالفوا في ذٰلك أمر اللّه لهم على ألسنة رسله، فما ﴿أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلاّ هو﴾: فيُخلصون له العبادة والطاعة ويخصُّونه بالمحبَّة والدُّعاء، فنبذوا أمر اللّه، وأشركوا به ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً. ﴿سبحانه﴾: وتعالى ﴿عمَّا يُشركون﴾؛ أي: تنزَّه وتقدَّس وتعالت عظمتُه عن شركهم وافترائهم؛ فإنَّهم ينتقِصونه في ذٰلك ويصِفونه بما لا يَليق بجلاله، واللّه تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نُسِبَ إليه مما يُنافي كماله المقدَّس.

﴿٣٢﴾ فلما تبيَّن أنه لا حُجَّة لهم على ما قالوه ولا برهاناً لما أصَّلوه، وإنَّما هو مجرَّد قول قالوه وافتراء افتروه؛ أخبر أنَّهم ﴿يريدون﴾ بهٰذا ﴿أن يُطفئوا نور اللّه بأفواههم﴾: ونورُ اللّه دينُه الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، وسمَّاه اللّه نوراً لأنَّه يُستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة؛ فإنَّه علمٌ بالحقِّ وعملٌ بالحقِّ،

---

(١) في (ب): «أو لأكثرها».

وما عداه فإنه بضدِّه؛ فهٰؤلاء اليهود والنصارى ومَنْ ضاهاهم[1] من المشركين، يريدون أن يطفِئوا نور اللّه بمجرّد أقوالهم التي ليس عليها دليلٌ أصلاً. ﴿ويأبى اللّهُ إلّا أن يُتِمَّ نوره﴾: لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائِهِ أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفَّل بحفظه مِن كلِّ مَن يريده بسوء، ولهٰذا قال: ﴿ويأبى اللّه إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون﴾: وسَعَوا ما أمكنهم في ردِّه وإبطاله؛ فإنَّ سعيهم لا يضرُّ الحقَّ شيئاً.

﴿٣٣﴾ ثم بيَّن تعالى هٰذا النور الذي قد تكفَّل بإتمامه وحفظه، فقال: ﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى﴾: الذي هو العلم النافع، ﴿ودينِ الحقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث اللّه به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحقِّ من الباطل في أسماء اللّه وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكلِّ مصلحةٍ نافعة للقلوب والأرواح والأبدان؛ من إخلاص الدين للّه وحده، ومحبة اللّه وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كلِّ ما يضادُّ ذٰلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيِّئة المضرَّة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله اللّه بالهدى ودين الحقِّ؛ ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدين كلِّه ولو كره المشركون﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذٰلك، وبَغَوا له الغوائل، ومكروا مكرهم؛ فإنَّ المكر السيىء[2] لا يضرُّ إلا صاحبه؛ فوَعْدُ اللّهِ لا بدَّ أن ينجِزَه وما ضَمِنَهُ لا بدَّ أن يقوم به.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ هٰذا تحذيرٌ من اللّه تعالى لعباده المؤمنين عن كثيرٍ من الأحبار والرُّهبان؛ أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل؛ أي: بغير حقٍّ ويصدُّون عن سبيل اللّه؛ فإنَّهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بَذَلَ الناس لهم من

---

(١) في (ب): «ضاهوه».

(٢) في (ب): «مكر السيئ».

أموالهم؛ فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ولأجل هُداهم وهدايتهم، وهٰؤلاء يأخذونها ويصدُّون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هٰذا الوجه سُحتاً وظُلماً؛ فإنَّ الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدُلُّوهم على الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حقٍّ أن يُعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ فهٰؤلاء الأحبار والرُّهبان لِيُحْذَرْ منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حقٍّ، وصدُّهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكنِزون الذَّهب والفضَّة﴾؛ أي: يمسكونهما، ﴿ولا يُنفقونها في سبيل الله﴾؛ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهٰذا هو الكنز المحرَّم: أن يمسِكَها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ ﴿فبشِّرهم بعذابٍ أليم﴾.

﴿٣٥﴾ ثم فسَّره بقوله: ﴿يومَ يُحمى عليها﴾؛ أي: على أموالهم ﴿في نار جهنَّم﴾: فيُحمى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿فتُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم﴾: في يوم القيامة، كلما بردت؛ أعيدتْ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هٰذا ما كنزتُم لأنفسِكم فذوقوا ما كنتُم تكنِزونَ﴾: فما ظلمكم، ولٰكنَّكم ظلمتُم أنفسَكم، وعذَّبتموها بهٰذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذٰلك بأحد أمرين: إما أن ينفِقَه في الباطل الذي لا يُجدي عليه نفعاً، بل لا ينالُه منه إلا الضرر المحض، وذٰلك كإخراج الأموال في المعاصي والشَّهوات التي لا تُعين على طاعة الله، وإخراجها للصدِّ عن سبيل الله. وإما أن يمسِكَ ماله عن إخراجِهِ في الواجبات، والنهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه.

وقولــــه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ عدة الشهور عند الله﴾؛ أي: في قضاء الله وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾: وهي هٰذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه القدريِّ، ﴿يوم خَلَقَ السمٰوات والأرض﴾: وأجرى ليلها ونهارها، وقدَّر أوقاتها، فقسمها على هٰذه الشهور الاثني عشر شهراً. ﴿منها أربعةٌ حُرُم﴾: وهي رجب الفرد

وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وسميتْ حُرُماً لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها.

﴿فلا تظلِموا فيهنَّ أنفسكم﴾: يُحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بيَّن أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعْمَرَ بطاعته، ويُشْكَرَ الله تعالى على منَّته بها، وتقييضها لمصالح العباد، فلْتَحْذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويُحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأنَّ هٰذا نهي لهم عن الظُّلم فيها خصوصاً، مع النهي عن الظلم كلَّ وقت؛ لزيادة تحريمها وكون الظُّلم فيها أشدَّ منه في غيرها، ومن ذٰلك النهي عن القتال فيها على قول من قال: إن القتال في الأشه الحرم[1] لم يُنسخ تحريمهُ؛ عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها، ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ أخذاً بعموم نحو قوله: ﴿وقاتلوا المشركينَ كافَّةً كما يقاتلونكم كافَّة﴾؛ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين بربِّ العالمين، ولا تخصُّوا أحداً منهم بالقتال دون أحدٍ، بل اجعلوهم كلَّهم لكم أعداءً كما كانوا هم معكم كذٰلك قد اتَّخذوا أهل الإيمان أعداءً لهم لا يألونهم من الشرِّ شيئاً، ويحتمل أن ﴿كافَّة﴾ حالٌ من الواو، فيكون معنى هٰذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين، وقد نُسخت على هٰذا الاحتمال بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لِيَنفِروا كافة...﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾: بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرِّكم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار؛ فإنه في هٰذه الحال ربَّما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ النسيء هو ما كان أهلُ الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم؛ رأوا بآرائهم الفاسدة أن يحافظوا على عدَّة الأشهر الحرم التي حرَّم الله القتال فيها، وأن يؤخِّروا بعض الأشهر الحرم أو يقدِّموه ويجعلوا مكانه من أشهر الحلِّ ما أرادوا؛ فإذا جعلوه مكانه؛ أحلُّوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً؛ فهٰذا

---

(١) في (ب): «الحرام».

كما أخبر اللّه عنهم أنه زيادةٌ في كفرهم وضلالهم؛ لما فيه من المحاذير:

منها: أنَّهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع اللّه ودينه، واللّه ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم موَّهوا على اللّه بزعمهم وعلى عباده، ولَبَسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين اللّه.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس، وربَّما ظُنَّ أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل.

ولهٰذا قال: ﴿**يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عامًا ويحرِّمونه عامًا لِيواطئوا عدَّةَ ما حرَّمَ الله**﴾؛ أي: ليوافقوها في العدد، ﴿**فيُحِلُّوا ما حرَّم اللّه. زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالهم**﴾؛ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزيَّنة في قلوبهم. ﴿**واللّه لا يهدي القوم الكافرين**﴾؛ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كلُّ آية لم يؤمنوا.

ثم قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ اعلم أنَّ كثيراً من هٰذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارًّا والزاد قليلاً والمعيشة عَسِرة[1]، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتِبَهم اللّه تعالى عليه ويستنهِضَهم، فقال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا**﴾: ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعي[2] اليقين من المبادرة لأمر اللّه والمسارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم؛ فما ﴿**لكم إذا قيلَ لكم انفِروا في سبيل اللّه اثَّاقَلْتُم إلى الأرض**﴾؛ أي:

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٤). (٢) في (ب): «ودَاعي».

تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدَّعة والسكون فيها. ﴿أرَضيتم بالحياة الدُّنيا من الآخرة﴾؛ أي: ما حالُكم إلَّا حال مَن رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة؛ فكأنه ما آمن بها. ﴿فما متاعُ الحياة الدنيا﴾: التي مالت بكم وقدَّمتموها على الآخرة ﴿إلَّا قليلٌ﴾: أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور؟ وأيُّها أحقُّ بالإيثار؟! أفليست الدنيا من أولها إلى آخرها لا نسبة لها في الآخرة؟! فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًّا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها فيجعلَ سعيَهُ وكدَّه وهمَّه وإرادته لا يتعدَّى الحياة الدُّنيا[1] القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار؟! فبأيِّ رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة، الجامعة لكلِّ نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما آثر الدُّنيا على الآخرة من وَقَرَ الإيمان في قلبه، ولا مَنْ جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب.

﴿٣٩﴾ ثم توعدهم على عدم النفير، فقال: ﴿إلَّا تَنفِروا يعذِّبكم عذاباً أليماً﴾: في الدُّنيا والآخرة؛ فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذُّنوب الموجبة لأشدِّ العقاب؛ لما فيها من المضارِّ الشديدة؛ فإنَّ المتخلِّف قد عصى الله تعالى، وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذبَّ عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوِّهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحقَ دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله؛ فحقيقٌ بمن هٰذا حاله أن يتوعَّده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إلَّا تَنفِروا يعذِّبكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركم﴾: ثم لا يكونوا أمثالكم، ﴿ولا تضرُّوه شيئاً﴾؛ فإنه تعالى متكفِّل بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فسواءٌ امتثلتم لأمر الله أو ألقيتموه وراءكم ظِهْرِيًّا. ﴿والله على كل شيء قديرٌ﴾: لا يعجِزُه شيء أراده ولا يغالبه أحدٌ.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) في (ب): «حياته الدنيا».

﴿٤٠﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ؛ فالله غنيٌّ عنكم، لا تضرُّونه شيئاً؛ فقد نصره في أقلِّ ما يكون وَأَذَلِّهِ ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾: من مكة، لما همُّوا بقتله وسَعَوا في ذلك وحرصوا أشدَّ الحرص فألجؤوه إلى أن يخرج. ﴿ثاني اثنينِ﴾؛ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿إذ هما في الغار﴾؛ أي: لما هربا من مكة؛ لجآ إلى غار ثور[1] في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب؛ فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقَّة حين انتشر الأعداء من كلِّ جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطُر على البال. ﴿إذ يقولُ﴾: النبي ﷺ ﴿لصاحبِهِ﴾: أبي بكر لما حزن واشتدَّ قلقُه: ﴿لا تحزنْ إنَّ الله معنا﴾: بعونه ونصره وتأييده، ﴿فأنزل الله سكينَتَه عليه﴾؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبِّتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه؛ سكَّنه وقال: لا تحزنْ إنَّ الله معنا. ﴿وأيَّده بجنودٍ لم ترَوْها﴾: وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له.

﴿وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى﴾؛ أي: الساقطة المخذولة؛ فإنَّ الذين كفروا [قد] كانوا على حَرْدٍ قادرين في ظنِّهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يُتِمَّ لهم مقصودَهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه، ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع؛ فإنَّ النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوِّهم بأن يُتِمَّ اللهُ لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوِّهم ويظهروا عليهم. والثاني: نصر المستضعَف الذي طمع فيه عدوُّه القادر، فنصْرُ اللهِ إياه أن يردَّ عنه عدوَّه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونَصْرُ اللهِ رسولَه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع. وقوله: ﴿وكلمةُ اللهِ هي العليا﴾؛ أي: كلماته القدريَّة وكلماته الدينيَّة هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين﴾، ﴿إنَّا لننصُرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدُّنيا ويوم يقومُ الأشهادُ﴾، ﴿وإنَّ جندَنا لهم الغالبون﴾؛ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان بالحجج الواضحة والآيات الباهرة والسلطان الناصر. ﴿والله عزيزٌ﴾: لا يغالبه مغالبٌ ولا يفوته هاربٌ، ﴿حكيم﴾: يضعُ الأشياء مواضعها، ويؤخِّرُ نصرَ حزبه إلى وقتٍ آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

---

(١) في (ب): «غار حراء». والصواب ما في (أ).

وفي هٰذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هٰذه الأمة، وهي الفوز بهٰذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنَّه هو المراد بهٰذه الآية الكريمة، ولهٰذا عدُّوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنَّه منكر للقرآن الذي صرَّح بها. وفيها فضيلةُ السكينة، وأنها من تمام نعمة اللّه على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربِّه وثقته بوعدِهِ الصادق وبحسب إيمانه وشجاعتِهِ. وفيها أنَّ الحزن قد يعرض لخواصِّ عباد اللّه الصديقين، مع أنَّ الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه؛ فإنه مضعِفٌ للقلب موهِنٌ للعزيمة.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين مهيِّجاً لهم على النفير في سبيله، فقال: ﴿انفِروا خفافاً وثقالاً﴾: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحرِّ والبرد، وفي جميع الأحوال، ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل اللّه﴾؛ أي: ابذلوا جهدكم في ذٰلك، واستفرغوا وُسْعَكم في المال والنفس. وفي هٰذا دليلٌ على أنه كما يجب الجهادُ في النفس يجب [الجهادُ] في المال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذٰلك. ثم قال: ﴿ذٰلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ﴾؛ أي: الجهاد في النفس والمال خيرٌ لكم من التقاعد عن ذٰلك؛ لأنَّ فيه رضا اللّه تعالى والفوز بالدرجات العاليات عنده والنصر لدين اللّه والدُّخول في جملة جنده وحزبه.

﴿٤٢﴾ ﴿لو كان﴾: خروجُهم لطلب عرض قريبٍ أو منفعةٍ دنيويَّة سهلة التناول. أو كان السفرُ ﴿سفراً قاصداً﴾؛ أي: قريباً سهلاً ﴿لاتَّبعوك﴾: لعدم المشقَّة الكثيرة، ﴿ولٰكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ﴾؛ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر؛ فلذٰلك تثاقلوا عنك، وليس هٰذا من أمارات العبوديَّة، بل العبد حقيقةً المتعبِّدُ لربِّه في كلِّ حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقَّة؛ فهٰذا العبد للّه على كلِّ حال. ﴿وسيحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معكم﴾؛ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أنَّ لهم عذراً، وأنهم لا يستطيعون ذٰلك، ﴿يُهلِكون أنفسَهم﴾: بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع. ﴿واللّه يعلم إنَّهم لكاذبونَ﴾.

وهٰذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلَّفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرَّد اعتذارهم، من غير أن يمتَحِنهم فيتبيَّن له الصادق من الكاذب، ولهٰذا عاتبه اللّٰه على هٰذه المسارعة إلى عذرهم، فقال:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عفا اللّٰه عنك﴾؛ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت. ﴿لم أذنتَ لهم﴾: في التخلُّف، ﴿حتَّى يتبيَّن[1] لك الذين صَدَقوا وتعلمَ الكاذبين﴾: بأن تمتَحِنهم ليتبيَّن لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحقُّ العذر ممَّن لا يستحقُّ ذٰلك.

﴿٤٤﴾ ثم أخبر أن المؤمنين باللّٰه واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أن يحثَّهم عليه حاثٌّ فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركِهِ من غير عذرٍ. ﴿واللّٰه عليمٌ بالمتَّقين﴾: فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتَّقين أنه أخبر أنَّ من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿٤٥﴾ ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون باللّٰه واليوم الآخر وارتابتْ قلوبُهم﴾؛ أي: ليس لهم إيمانٌ تامٌّ ولا يقينٌ صادقٌ؛ فلذٰلك قلَّت رغبتُهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في رَيْبِهم يتردَّدون﴾؛ أي: لا يزالون في الشكِّ والحيرة.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟

---

(١) في (ب): «حتى تعلم يتبيَّن».

لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ يقول تعالى مبيِّناً أن المتخلِّفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبيِّن أنهم ما قصدوا الخروج(١) بالكُلِّية، وأنَّ أعذارهم التي اعتذروها باطلةٌ؛ فإنَّ العذر هو المانعُ الذي يمنع إذا بَذَلَ العبدُ وُسْعَه وسعى في أسباب الخروج ثم منعه مانعٌ شرعيٌّ؛ فهٰذا الذي يُعذر، ﴿و﴾ أما هٰؤلاء المنافقون، فلو ﴿أرادوا الخروجَ لأعدُّوا له عُدَّةً﴾؛ أي: لاستعدُّوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولٰكن لما لم يُعِدُّوا له عُدَّةً؛ علم أنهم ما أرادوا الخروج، ﴿ولٰكن كَرِهَ اللّه انبعاثَهم﴾: معكم في الخروج للغزو، ﴿فثبَّطهم﴾: قدراً وقضاءً وإن كان قد أمرهم وحثَّهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه، ولٰكن بحكمتِهِ ما أراد إعانتهم، بل خَذَلهم وثبَّطهم، ﴿وقيل اقعُدوا مع القاعِدينَ﴾: من النساء والمعذورين.

﴿٤٧﴾ ثم ذكر الحكمة في ذٰلك، فقال: ﴿لو خَرَجوا فيكم ما زادوكم إلَّا خبالاً﴾؛ أي: نقصاً، ﴿ولأوْضَعوا خِلالكم﴾؛ أي: ولسَعَوا في الفتنة والشرِّ بينكم وفرَّقوا جماعتكم المجتمعين. ﴿يبغونَكُم الفتنةَ﴾؛ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم، ﴿وفيكم﴾: أناسٌ ضعفاء العقول، ﴿سمَّاعون لهم﴾؛ أي: مستجيبون لدعوتهم، يغترُّون بهم؛ فإذا كانوا حريصين على خذلانكم وإلقاء الشرِّ بينكم وتثبيطكم عن أعدائكم وفيكم مَنْ يَقْبَلُ منهم ويستنصِحُهم؛ فما ظنُّك بالشرِّ الحاصل من خروجِهم مع المؤمنين والنقص الكثير منهم؟! فللَّه أتمُّ الحكمة حيث ثبَّطهم، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمةً بهم، ولطفاً من أن يُداخِلَهم ما لا ينفعهم بل يضرُّهم. ﴿واللّه عليمٌ بالظالمين﴾: فيُعلِّم عبادَه كيف يحذرونهم، ويبيِّن لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشرِّ، فقال: ﴿لقد ابتَغَوُا الفتنة من قبلُ﴾؛ أي: حين هاجرتم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وقَلَّبوا لك الأمورَ﴾؛ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتِكم وخِذْلانِ دينِكم، ولم يُقَصِّروا في ذٰلك. ﴿حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ اللّه وهم كارهون﴾: فبَطَلَ كيدُهم، واضمحلَّ باطلُهم؛ فحقيقٌ بمثلِ هٰؤلاء أن يحذِّر اللّه عبادَه المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنونَ بتخلُّفهم عنهم.

---

(١) في (ب): «للجهاد».

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: ومن هٰؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلُّف ويعتذر بعذرٍ آخر عجيب، فيقول: ﴿ائذن لي﴾: في التخلُّف، ﴿ولا تفتِنِّي﴾: في الخروج؛ فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن؛ كما قال ذلك الجدُّ بن قيس، ومقصوده قبَّحه الله الرياء والنفاق؛ بأن مقصودي مقصودٌ حسن؛ فإنَّ في خروجي فتنةً، وتعرضاً للشرِّ، وفي عدم خروجي عافيةً وكفًّا عن الشرِّ. قال اللّه تعالى مبيِّناً كذب هٰذا القول: ﴿ألا في الفتنةِ سَقَطوا﴾: فإنه على تقدير صدق هٰذا القائل في قصدِهِ؛ في التخلُّف مفسدةٌ كبرى وفتنةٌ عظمى محقَّقة، وهي معصية اللّه ومعصية رسوله والتجرِّي على الإثم الكبير والوزر العظيم، وأما الخروجُ؛ فمفسدةٌ قليلة بالنسبة للتخلُّف، وهي متوهَّمة، مع أنَّ هٰذا القائل قصده التخلُّف لا غير، ولهٰذا توعَّدهم اللّه بقوله: ﴿وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين﴾: ليس لهم عنها مَفَرٌّ ولا مناصٌ ولا فكاكٌ ولا خلاصٌ.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقًّا المبغضون للدين صرفاً: ﴿إن تُصِبْكَ حسنةٌ﴾: كنصر وإدالة على العدو ﴿تَسُؤْهم﴾؛ أي: تحزنهم وتغمهم، ﴿وإن تُصِبْكَ مصيبةٌ﴾: كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾: متبجِّحين بسلامتهم من الحضور معك: ﴿قد أخَذْنا أمرنا من قبلُ﴾؛ أي: قد حذرنا وعملنا بما يُنجينا من الوقوع في مثل هٰذه المصيبة، ﴿ويتولَّوا وهم فرحون﴾: بمصيبتك وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

﴿٥١﴾ قال تعالى رادًّا عليهم في ذٰلك: ﴿قل لن يُصيبنا إلاَّ ما كَتَبَ اللّه لنا﴾؛ أي: قدَّره وأجراه في اللوح المحفوظ. ﴿هو مولانا﴾؛ أي: متولي أمورنا الدينيَّة والدنيويَّة؛ فعلينا الرِّضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء. ﴿وعلى اللّه﴾: وحده ﴿فليتوكَّل المؤمنون﴾؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضارِّ عنهم ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم؛ فلا خاب من توكَّل عليه، وأما من توكَّل على غيره؛ فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٢﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربَّصون بكم الدوائر: أيَّ شيء تربَّصون بنا؟ فإنكم لا تربَّصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين: إما الظَّفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والدنيوي، وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخَلْق وأرفع المنازل عند الله. وأما تربُّصنا بكم يا معشر المنافقين؛ فنحن ﴿نتربَّص بكم أن يصيبَكم الله بعذابٍ من عنده﴾ لا سبب لنا فيه ﴿أو بأيدينا﴾؛ بأن يسلِّطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فتربَّصوا﴾: بنا الخير، ﴿إنا معكم متربِّصون﴾: بكم الشرَّ.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يقول تعالى مبيِّناً بطلان نفقات المنافقين وذاكراً السبب في ذٰلك، ﴿قل﴾ لهم: ﴿أنفقوا طوعاً﴾: من أنفسكم، ﴿أو كرهاً﴾: على ذٰلك بغير اختياركم. ﴿لن يُتَقَبَّل منكم﴾: شيء من أعمالكم، لأنّكم ﴿كنتم قوماً فاسقين﴾: خارجين عن طاعة الله.

﴿٥٤﴾ ثم بيَّن صفة فسقهم وأعمالهم [فقال]: ﴿وما مَنَعَهم أن تُقْبَلَ منهم نفقاتُهم إلَّا أنَّهم كفروا بالله وبرسوله﴾: والأعمال كلُّها شرطُ قبولها الإيمان؛ فهٰؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إنَّ الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى؛ قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلَّا وهم كُسالى﴾؛ أي: متثاقلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم. ﴿ولا يُنفقون إلا وهم كارهونَ﴾: من غير انشراح صدر وثبات نفس؛ ففي هٰذا غاية الذمِّ لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيطُ البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب يرجو ذُخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبَّه بالمنافقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿٥٥﴾ يقول تعالى: فلا تعجبْك أموالُ هٰؤلاء المنافقين ولا أولادُهم؛ فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدَّموها على مراضي ربِّهم وعصوا الله لأجلها. ﴿إنَّما يريد الله ليعذِّبَهم بها في الحياة الدُّنيا﴾: والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقَّة في تحصيلها والسعي الشديد في ذٰلك وهمِّ القلب فيها وتعب البدن؛ فلو قابلت لَذَّاتهم فيها بمشقَّاتهم؛ لم يكن لها نسبة إليها؛ فهي لَمَّا ألهتهم عن الله وذكره؛ صارت وبالاً عليهم حتى في الدنيا، ومن وبالها العظيم الخطر أنَّ قلوبهم تتعلَّق بها وإراداتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبِهم وغاية مرغوبِهم، ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيبٌ، فيوجب ذٰلك أن ينتقلوا من الدنيا، ﴿وتَزْهَقَ أنفسُهُم وهم كافرون﴾؛ فأي عقوبة أعظم من هٰذه العقوبة الموجبة للشَّقاء الدائم والحِسرة الملازمة؟!

﴿٥٦﴾ ﴿ويحلفون بالله إنَّهم لمنكم وما هم منكم ولٰكنهم﴾: قصدهم في حلفهم هٰذا أنهم ﴿قومٌ يَفْرَقون﴾؛ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبيِّنوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ويخافون أن تتبرَّؤوا منهم فيتخطَّفهم الأعداء من كل جانب، وأما حال قويِّ القلب ثابت الجنان؛ فإنه يحمله ذٰلك على بيان حاله حسنةً كانت أو سيئةً، ولكن المنافقين خُلِعَ عليهم خِلْعةُ الجبن، وحُلُّوا بحِلْيَةِ الكذب.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر شدَّة جبنهم، فقال: ﴿لو يجدون ملجأً﴾: يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغاراتٍ﴾: يدخلونها فيستقرُّون فيها، ﴿أو مدخلاً﴾؛ أي: محلاً يدخلونه فيتحصَّنون فيه، ﴿لَوَلَّوا إليه وهم يَجْمحون﴾؛ أي: يسرعون ويُهْرَعون؛ فليس لهم مَلَكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ومن هٰؤلاء المنافقين مَن يَعيبك في قسمة الصَّدقات وينتقد عليك فيها، وليس انتقادُهم فيها وعيبُهم لقصدٍ صحيح ولا لرأي رجيح، وإنَّما مقصودُهم

أن يُعطَوا منها. ﴿فإنْ أُعطوا منها رَضوا وإن لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطونَ﴾: وهٰذه حالةٌ لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه تابعاً لهوى نفسه الدنيويِّ وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون [هواه تبعاً] لمرضاة ربِّه؛ كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتَّى يكون هواهُ تَبَعاً لما جئت به»[1].

﴿٥٩﴾ وقال هنا: ﴿ولو أنَّهم رَضوا ما آتاهم الله ورسولُه﴾؛ أي: أعطاهم من قليل وكثيرٍ، ﴿وقالوا حسبُنا الله﴾؛ أي: كافينا الله فنرضى بما قَسَمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتينا الله من فضلِهِ ورسولُهُ إنَّا إلى الله راغبون﴾؛ أي: متضرِّعون في جلب منافعنا ودفع مضارِّنا؛ [لسلموا من النفاق، ولهدوا إلى الإيمانِ والأحوالِ العاليةِ].

ثم بيَّن تعالى كيفيَّة قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّما الصدقات﴾؛ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصَّدقة المستحبَّة لكل أحدٍ لا يخصُّ بها أحدٌ دون أحدٍ؛ [أي]: ﴿إنَّما الصَّدقات﴾: لهٰؤلاء المذكورين دون مَنْ عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هٰذا الموضع صنفان متفاوتان؛ فالفقير أشدُّ حاجةً من المسكين؛ لأنَّ الله بدأ بهم، ولا يُبدأ إلا بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فَفُسِّرَ الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته؛ لأنه لو وجدها؛ لكان غنيًّا، فيعطَون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كلُّ من له عملٌ وشغلٌ فيها من حافظٍ لها و[2]جابٍ لها من أهلها أو راعٍ أو حاملٍ لها أو كاتبٍ أو نحو ذٰلك، فيعطَوْن لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢ و ١٣)، وضعفه الألباني. وانظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحديث الحادي والأربعون.

(٢) في (ب): «أو».

والرابع: المؤلَّفة قلوبهم، والمؤلَّف قلبُه هو السيد المطاع في قومه ممَّن يُرجَى إسلامه أو يُخشى شرُّه أو يُرجى بعطيَّته قوة إيمانه أو إسلام نظيرِهِ أو جبايتها ممَّن لا يعطيها، فيُعطى ما يحصُلُ به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتَبون الذين قد اشتروا أنفسَهم من ساداتهم؛ فهم يسعَوْن في تحصيل ما يفكُّ رقابَهم، فيعانون على ذٰلك من الزكاة. وفكُّ الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخلٌ في هٰذا، بل أولى. ويدخل في هٰذا أنَّه يجوز أن يعتق [منها] الرقاب استقلالاً؛ لدخوله في قوله: ﴿وفي الرِّقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شرٌّ وفتنةٌ، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذُلُه لأحدهم أو لهم كلِّهم، فُجِعلَ له نصيبٌ من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمِهِ، فيُعْطى ولو كان غنيًا. والثاني: من غَرِمَ لنفسه ثم أعسر؛ فإنَّه يُعطى ما يُوفي به دينَه.

والسابع: الغازي في سبيل اللّٰه، وهم الغزاة المتطوِّعة الذين لا ديوان لهم، فيُعْطَوْن من الزكاة ما يُعينهم على غزوهم من ثمن سلاح أو دابَّةٍ أو نفقة له ولعياله؛ ليتوفَّر على الجهاد ويطمئنَّ قلبُه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرَّغ القادر على الكسب لطلب العلم؛ أعطي من الزكاة؛ لأنَّ العلم داخلٌ في الجهاد في سبيل اللّٰه. وقالوا أيضاً: يجوز أن يُعطى منها الفقير لحجِّ فرضِهِ. وفيه نظر.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطَعُ به في غير بلده، فيُعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهٰؤلاء الأصناف الثمانية الذين تُدفع إليهم الزكاة وحدهم. ﴿فريضةً من اللّٰه﴾: فرضها وقدَّرها تابعةً لعلمه وحكمه، ﴿واللّٰه عليمٌ حكيمٌ﴾.

واعلم أن هٰذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين: أحدهما: مَنْ يُعطى لحاجته ونفعه؛ كالفقير والمسكين ونحوهما. والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.

فأوجب الله هٰذه الحصَّة في أموال الأغنياء لسدِّ الحاجات الخاصَّة والعامَّة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعيِّ؛ لم يبقَ فقيرٌ من المسلمين، ولحصلَ من الأموال ما يسدُّ الثغور، ويجاهَدُ به الكفارُ، وتحصُلُ به جميع المصالح الدينية.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦١﴾ أي: ومن هٰؤلاء المنافقين، ﴿الذين يُؤذونَ النبي﴾: بالأقوال الرديَّة والعَيْب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أُذنٌ﴾؛ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذيَّة للنبيِّ، ويقولون: إذا بلغه عنَّا بعض ذٰلك؛ جئنا نعتذر إليه، فيقبلُ منَّا؛ لأنه أُذُنٌ؛ أي: يقبل كلَّ ما يُقال له، لا يُمَيِّزُ بين صادقٍ وكاذب، وقصدهم ـ قبَّحهم اللّه ـ فيما بينهم أنهم غير مكترثين بذٰلك ولا مهتمِّين به؛ لأنه إذا لم يبلُغْه؛ فهٰذا مطلوبهم، وإن بلغه؛ اكتفَوْا بمجرَّد الاعتذار الباطل، فأساؤوا كلَّ الإساءة من أوجه كثيرةٍ:

أعظمها: أذيَّة نبيِّهم الذي جاء لهدايتهم وإخراجهم من الشَّقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذٰلك، وهو قدر زائدٌ على مجرَّد الأذيَّة.

ومنها: قدحُهم في عقل النبيِّ ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكملُ الخلق عقلاً وأتمُّهم إدراكاً وأثقبُهم رأياً وبصيرةً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم﴾؛ أي: يقبلُ مَن قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضُه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب؛ فلِسَعَة خُلُقه وعدم اهتمامه بشأنهم[1] وامتثاله لأمر اللّه في قوله: ﴿سيحلِفون باللّه لكم إذا انقلبتُم إليهم لِتُعْرِضوا عنهم فأعِرضوا عنهم إنَّهم رِجْسٌ﴾، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه؛ فقال عنه: ﴿يؤمِنُ باللّه ويؤمِنُ للمؤمنين﴾: الصادقين المصدِّقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يُعْرِضُ عن الذين يَعْرِفُ كذِبَهم وعدم صدقِهِم، ﴿ورحمةٌ للذين آمنوا منكم﴾: فإنَّهم به يهتدون وبأخلاقِهِ يقتدون، وأما غير المؤمنين؛ فإنَّهم لم يقبلوا هٰذه الرحمة، بل ردُّوها فخسروا دنياهم وآخرتهم. ﴿والذين يؤذون رسولَ اللّه﴾: بالقول والفعل ﴿لهم عذابٌ أليم﴾: في الدُّنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتَّم قتلُ مؤذيه وشاتمه.

(١) في (ب): «بشأنه».

﴿٦٢﴾ ﴿يحلفون بالله لكم لِيُرْضوكم﴾: فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذيَّة وغيرها، فغايتهم أن ترضَوْا عليهم. ﴿والله ورسوله أحقُّ أن يُرْضوه إن كانوا مؤمنين﴾: لأنَّ المؤمن لا يقدِّم شيئاً على رضا ربِّه [ورضا رسوله]، فدلَّ هٰذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدَّموا رضا غير الله ورسوله.

﴿٦٣﴾ وهٰذا محادَّة لله ومشاقَّة له، وقد توعَّد من حادَّه بقوله: ﴿ألم يعلَموا أنَّه مَن يحادِدِ اللهَ ورسولَه﴾: بأن[1] يكون في حدٍّ وشِقٍّ مبعدٍ عن الله ورسوله؛ بأن تهاون بأوامر الله وتجرَّأ على محارمه، ﴿فأنَّ له نارَ جهنَّم خالداً فيها﴾ و ﴿ذٰلك الخزيُ العظيم﴾: الذي لا خزيَ أشنعُ ولا أفظعُ منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم؛ عياذاً بالله من حالهم[2].

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٤﴾ كانت هٰذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة؛ لأنها بيَّنت أسرار المنافقين وهتكت أستارهم؛ فما زال الله يقول: ومنهم، ومنهم... ويذكر أوصافهم؛ إلَّا أنه لم يعيِّن أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله سِتِّيرٌ يحبُّ الستر على عباده.

والثانية: أن الذَّمَّ على مَن اتَّصف بذٰلك الوصف من المنافقين الذين توجَّه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعمَّ وأنسبَ، حتى خافوا غاية الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿لئن لم يَنتَهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجِفونَ في المدينةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يجاوِرونَكَ فيها إلَّا قليلاً. ملعونينَ أينما ثُقِفوا أُخِذوا وَقُتِّلوا تَقْتيلاً﴾.

وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ المنافقون أن تنزل عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم﴾؛ أي: تخبرهم وتفضحهم وتبيِّن أسرارهم، حتى تكون علانيةً لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين. ﴿قل استهزِئوا﴾؛ أي: استمرُّوا على ما أنتم عليه من الاستهزاء

---

(١) في (ب): «أنْ».

(٢) في (ب): «أحوالهم».

والسُّخرية. ﴿إنَّ اللّه مخرجٌ ما تحذرونَ﴾: وقد وفى تعالى بوعدِهِ، فأنزل هٰذه السورة التي بيَّنتهم، وفضحتهم، وهتكت أستارهم.

﴿٦٥ ـ ٦٦﴾ ﴿ولئن سألتَهم﴾: عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقولُ طائفةٌ منهم في غزوة تبوك: ما رأينا مثلَ قُرَّائنا هٰؤلاء ـ يعنون: النبي ﷺ وأصحابه ـ أرغب بطوناً وأكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء... ونحو ذٰلك[١]، لما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم؛ جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إنَّما كنَّا نخوضُ ونلعبُ﴾؛ أي: نتكلَّم بكلام لا قصدَ لنا به ولا قَصَدْنا الطعن والعيب، قال اللّه تعالى مبيِّناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك: ﴿قل﴾ لهم: ﴿أباللّه وآياتِهِ ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾؛ فإنَّ الاستهزاء باللّه ورسوله كفرٌ مخرجٌ عن الدين؛ لأنَّ أصل الدين مبنيٌّ على تعظيم اللّه وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذٰلك منافٍ لهٰذا الأصل ومناقضٌ له أشدَّ المناقضة، ولهٰذا؛ لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهٰذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أباللّه وآياتِهِ ورسوله كنتُم تستهزِئون. لا تعتَذِروا قد كفرتُم بعد إيمانِكم﴾. وقوله: ﴿إن نعفُ عن طائفةٍ منكم﴾: لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نعذِّبْ طائفةً﴾: منكم بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾: مقيمين على كفرِهم ونفاقهم.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على أن من أسرَّ سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزىء به وبآياته ورسوله؛ فإنَّ[٢] اللّه تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبُهُ أشدَّ العقوبة. وأنَّ مَن استهزأ بشيء من كتاب اللّه أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سَخِرَ بذٰلك أو تنقَّصه أو استهزأ بالرسول أو تنقَّصه؛ فإنَّه كافرٌ باللّه العظيم. وأنَّ التوبة مقبولةٌ من[٣] كلِّ ذنبٍ وإن كان عظيماً.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضُهم من بعض﴾: لأنهم اشتركوا

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٣٣٤)، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم؛ كما في «الصحيح المسند لأسباب النزول» ص(٧٨).

(٢) في (ب): «إنّ». (٣) في (ب): «في».

في النفاق، فاشتركوا في تولِّي بعضهم بعضاً، وفي هٰذا قطعٌ للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرُجُ منه صغيرٌ منهم ولا كبيرٌ، فقال: ﴿يأمرون بالمنكر﴾: وهو الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وينهَوْن عن المعروف﴾: وهو الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة، ﴿ويَقْبِضون أيدِيَهم﴾: عن الصدقة وطرق الإحسان؛ فوصْفُهم البخلُ. ﴿نَسوا الله﴾: فلا يذكُرونه إلا قليلاً، ﴿فنَسِيَهم﴾: من رحمته؛ فلا يوفِّقهم لخيرٍ ولا يدخِلُهم الجنة، بل يترُكهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلَّدين. ﴿إنَّ المنافقين هم الفاسقون﴾: حصر الفسقَ فيهم؛ لأنَّ فسقهم أعظم من فسق غيرهم؛ بدليل أن عذابهم أشدُّ من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتُلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديدٌ.

﴿٦٨﴾ ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذابٌ مقيمٌ﴾: جمع المنافقين والكفار في نار جهنَّم واللعنةِ والخلودِ في ذٰلك لاجتماعهم في الدُّنيا على الكفر والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٩ ـ ٧٠﴾ يقول تعالى محذِّراً للمنافقين أن يُصيبَهم ما أصابَ مَنْ قبلَهم من الأمم المكذِّبة؛ ﴿قوم نوح وعادٍ وثمودَ وقوم إبراهيمَ وأصحاب مَدْيَنَ والمؤتفكاتِ﴾؛ أي: قرى قوم لوطٍ؛ فكلُّهم ﴿أتتهم رسلهم بالبيِّنات﴾؛ أي: بالحق الواضح الجليِّ المبيِّن لحقائق الأشياء، فكذَّبوا بها، فجرى عليهم ما قصَّ الله علينا؛ فأنتم أعمالُكم شبيهةٌ بأعمالهم. ﴿استمتعتُم بخلاقكم﴾؛ أي: بنصيبكم من الدنيا، فتناوَلْتموه على وجه اللَّذَّة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله، ولم تتعدَّ همَّتُكم وإرادتكم ما خُوِّلتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم. ﴿وخضتُم كالذي خاضوا﴾؛ أي: وخضتم بالباطل والزُّور وجادلتم

بالباطل لِتُدْحِضوا به الحقَّ؛ فهذه أعمالُهم وعلومهم: استمتاعٌ بالخَلاق، وخوضٌ بالباطل؛ فاستحقُّوا من العقوبة والإهلاك ما استحقَّ من قبلهم مِمَّن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خُوِّلوا من الدُّنيا؛ فإنَّه على وجه الاستعانة به على طاعة اللّه، وأما علومهم؛ فهي علوم الرسل، وهي: الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحقِّ لإدحاض الباطل. قوله: ﴿فما كان اللّهُ لِيَظْلِمَهم﴾: إذا وقع بهم من عقوبته ما أوقع، ﴿ولكن كانوا أنفسَهم يظلِمون﴾: حيث تجرؤوا على معاصيه، وعَصَوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ لما ذكر أنَّ المنافقين بعضهم من بعض[1]؛ ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضدِّ ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿والمؤمنون والمؤمناتُ﴾؛ أي: ذكورهم وإناثهم، ﴿بعضُهم أولياءُ بعض﴾: في المحبَّة والموالاة والانتماء والنُّصرة. ﴿يأمرون بالمعروف﴾: وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما عُرِف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وأول مَن يدخُلُ في أمرهم أنفسُهم. ﴿وينهَوْن عن المنكر﴾: وهو كلُّ ما خالف المعروف، وناقَضَه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، ﴿ويطيعونَ اللّه ورسوله﴾؛ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة اللّه ورسوله على الدوام. ﴿أولئك سيرحمُهم اللّه﴾؛ أي: يدخلهم في رحمته ويشمَلُهم بإحسانه. ﴿إنَّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾؛ أي: قويٌّ قاهرٌ، ومع قوته؛ فهو حكيمٌ يضع كل شيء موضعَه اللائق به الذي يُحمد على ما خلقه وأمر به.

﴿٧٢﴾ ثم ذكر ما أعد اللّه لهم من الثواب، فقال: ﴿وعد اللّه المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: جامعةٍ لكلِّ نعيم وفرح، خاليةٍ من كلِّ

---

(١) في (ب): «بعضهم أولياء بعض».

أذىً وتَرَح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة المروية للبساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى. ﴿خالدين فيها﴾: لا يبغون عنها حِوَلاً. ﴿ومساكنَ طيبة في جنات عدن﴾: قد زخرفت وحسنت وأعِدَّت لعباد الله المتَّقين، قد طاب مرآها وطاب منزِلُها ومَقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنُّون، حتى إن الله تعالى قد أعدَّ لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يُرى ظاهِرُها من باطنها، وباطِنُها من ظاهرها؛ فهٰذه المساكن الأنيقة التي حقيقٌ بأن تَسْكُنَ إليها النفوس وتنزِعَ إليها القلوب وتشتاقَ لها الأرواح؛ لأنَّها ﴿في جنات عدنٍ﴾؛ أي: إقامة، لا يظعنون عنها ولا يتحوَّلون منها. ﴿ورضوانٌ من الله﴾: يُحِلُّه على أهل الجنة ﴿أكبر﴾: مما هم فيه من النعيم؛ فإنَّ نعيمهم لم يَطِبْ إلا برؤية ربِّهم ورضوانه عليهم، ولأنَّه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبُّون؛ فرضا ربِّ الأرض والسماوات أكبرُ من نعيم الجنات. ﴿ذٰلك هو الفوزُ العظيم﴾: حيث حَصلوا على كلِّ مطلوب، وانتفى عنهم كلُّ محذور، وحسنتْ وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجودِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿يا أيُّها النبيُّ جاهد الكفار والمنافقين﴾؛ أي: بالغ في جهادهم، والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغِلْظة عليهم، وهٰذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد والجهاد بالحجة واللسان؛ فمن بارز منهم بالمحاربة؛ فيجاهَد باليد واللسان والسيف والسنان[1]، ومن كان مذعناً للإسلام بذمَّة أو عهدٍ؛ فإنه يجاهَدُ بالحجة والبرهان، ويبيَّن له محاسن الإسلام ومساوىء الشرك والكفران[2]؛ فهٰذا ما لهم في الدنيا، ﴿و﴾ أما في الآخرة؛ فَمَأواهم ﴿جهنم﴾؛ أي: مقرُّهم الذي لا يخرجون منها، ﴿وبئس المصير﴾.

---

(١) في (ب): «والسيف والبيان». (٢) في (ب): «والكفر».

﴿٧٤﴾ ﴿يحلفونَ باللّه ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفرِ﴾؛ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾، والكلام الذي يتكلَّم به الواحد بعد الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول؛ فإذا بلغهم أن النبيَّ ﷺ قد بلغه شيء من ذٰلك؛ جاؤوا إليه يحلفون باللّه ما قالوا، قال تعالى مكذِّباً لهم: ﴿ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾: فإسلامهم السابق، وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر؛ فكلامُهم الأخير ينقُضُ إسلامهم ويدخِلُهم بالكفر. ﴿وهمُّوا بما لم ينالوا﴾: وذٰلك حين همُّوا بالفتك برسول اللّه ﷺ في غزوة تبوك، فقصَّ اللّه عليه نبأهم، فأمر من يصدُّهم عن قصدهم. ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿ما نقموا﴾ وعابوا من رسول اللّه ﷺ ﴿إلَّا أنْ أغناهم اللّهُ ورسولُه من فضله﴾: بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهٰذا من أعجب الأشياء: أن يستهينوا بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنياً لهم بعد الفقر! وهل حقُّه عليهم إلا أن يعظِّموه ويؤمنوا به ويُجِلُّوه؟! [فاجتمع الدَّاعي الديني وداعي المروءة الإنسانية]. ثم عرض عليهم التوبة، فقال: ﴿فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم﴾؛ لأن التوبة أصلٌ لسعادة الدُّنيا والآخرة، ﴿وإن يَتَوَلَّوا﴾: عن التوبة والإنابة ﴿يعذِّبْهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا والآخرة﴾: في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة اللّه لدينه وإعزاز نبيِّه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير. ﴿وما لهم في الأرض من وليٍّ﴾: يتولَّى أمورهم ويُحَصِّلُ لهم المطلوب، ﴿ولا نصيرٍ﴾: يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية اللّه تعالى؛ فثمَّ أصناف الشرِّ والخسران والشقاء والحرمان.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٥﴾ أي: ومن هٰؤلاء المنافقين من أعطى الله عهدَهُ وميثاقَهُ، ﴿لئن آتانا من فضلِهِ﴾: من الدنيا فبسطها لنا ووسَّعها، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنكونَنَّ من الصالحين﴾: فنصل الرحم ونُقري الضيف، ونعينُ على نوائب الحقِّ، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما آتاهم من فضلِهِ﴾: لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلوا﴾ و ﴿وتولَّوْا﴾:

عن الطاعة والانقياد، ﴿وهم معرضون﴾؛ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

﴿٧٧﴾ فلما لم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه؛ عاقبهم و ﴿أعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾: مستمر ﴿إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أخلفوا اللّهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾: فليحذر المؤمنُ من هٰذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربَّه إن حصل مقصودُهُ الفلانيُّ؛ ليفعلنَّ كذا وكذا، ثم لا يفي بذٰلك؛ فإنَّه ربما عاقبه اللّه بالنفاق كما عاقب هٰؤلاء، وقد قال النبيُّ ﷺ في الحديث الثابت في «الصحيحين»[(١)]: «آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَبَ، وإذا عاهد غَدَرَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ»؛ فهٰذا المنافق الذي وعد اللّه وعاهده لئن أعطاه اللّه من فضله؛ ليصَّدَّقن وليكوننَّ من الصالحين: حدَّث فكذب، وعاهد [فغدر][(٢)]، ووعد فأخلف.

﴿٧٨﴾ ولهٰذا توعَّد من صدر منهم هٰذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أنَّ اللّه يعلم سرَّهم ونجواهم وأنَّ اللّه علام الغيوب﴾: وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها اللّه تعالى.

وهٰذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له ثعلبة، جاء إلى النبي ﷺ، وسأله أن يدعوَ اللّه له أن يعطِيَه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقنَّ ويصل الرحم ويعين على نوائب الحقِّ، فدعا النبي ﷺ له، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلَّا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعدها فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة، ففقده النبيُّ ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هٰذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم؛ جاؤوا فأخبروا بذٰلك النبي ﷺ، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!» ثلاثاً[(٣)]. فلما نزلت هٰذه الآية فيه وفي أمثاله؛ ذهب بها بعض أهله، فبلَّغه إيَّاها، فجاء بزكاته، فلم يقبلْها النبيُّ ﷺ، ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ، فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر، فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

---

(١) البخاري (٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩) إلَّا أن لفظ: «إذا عاهد غدر» في الرواية الأخرى: «أربع من كن فيه كان منافقاً..».

(٢) في (أ): «وغدر».

(٣) قصة ثعلبة بن حاطب: أخرجها ابن جرير (١٤/ ٢٧٠)، وقال الألباني: «وهذا حديث منكر على شهرته»، وانظر: «الضعيفة» (١٦٠٧).

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٩﴾ وهٰذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا قبَّحهم اللّٰه لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً؛ إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حثَّ اللّٰه ورسوله على الصدقة؛ بادر المسلمون إلى ذٰلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكثر ومنهم المقل، فيلمزون المكثر منهم بأنَّ قصدَه بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقلِّ الفقير: إنَّ اللّٰه غنيٌّ عن صدقة هٰذا، فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿الذين يَلْمِزون﴾؛ أي: يعيبون ويطعنون ﴿المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾: فيقولون: مراؤون قصدُهم الفخر والرياء ﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يَجِدون إلا جُهْدَهم﴾: فيخرِجون ما استطاعوا ويقولون: اللّٰه غنيٌّ عن صدقاتهم، ﴿فيسخرون منهم﴾، فقابلهم الله على صنيعهم بأن سَخِرَ منهم، ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾؛ فإنَّهم جمعوا في كلامهم هٰذا بين عدة محاذير:

منها: تتبُّعهم لأحوال المؤمنين وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، واللّٰه يقول: ﴿إنَّ الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفراً باللّٰه تعالى وبغضاً للدين.

ومنها: أن اللَّمز محرمٌ، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللَّمز في أمر الطاعة؛ فأقبحُ وأقبح.

ومنها: أنَّ من أطاع اللّٰه وتطوَّع بخَصْلةٍ من خصال الخير؛ فإنَّ الذي ينبغي إعانته وتنشيطه على عمله، وهٰؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أنَّ حكمهم على من أنفق مالاً كثيراً بأنه مراءٍ غلطٌ فاحشٌ وحكم على الغيب ورجمٌ بالظن، وأيُّ شرٍّ أكبر من هٰذا؟!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: اللّٰهُ غنيٌّ عن صدقة هٰذا! كلامٌ مقصوده باطلٌ؛ فإنَّ الله غنيٌّ عن صدقة المتصدِّق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه؛ فاللّٰه وإن كان غنيًّا عنه؛ فهم فقراء إليه؛ ﴿فمن يعملْ مثقال ذرَّةٍ خيراً يره﴾، وفي هٰذا القول

من التثبيط عن الخير ما هو ظاهرٌ بيّن، ولهٰذا كان جزاؤهم أن يسخر[١] اللّه منهم، ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم إن تستغفرْ لهم سبعين مرَّةً﴾: على وجه المبالغة، وإلَّا؛ فلا مفهوم لها، ﴿فلن يغفرَ اللّه لهم﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفِرْ لهم لن يَغْفِرَ اللّه لهم﴾. ثم ذكر السبب المانع لمغفرة اللّه لهم، فقال: ﴿ذٰلك بأنَّهم كفروا باللّه ورسوله﴾: والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً. ﴿واللّه لا يهدي القوم الفاسقين﴾؛ أي: الذين صار الفسقُ لهم وصفاً؛ بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا يبغون به بدلاً، يأتيهم الحقُّ الواضح فيردُّونه فيعاقبهم اللّه تعالى بأنْ لا يوفِّقهم له بعد ذٰلك.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨١﴾ يقول تعالى مبيناً تبجُّح المنافقين بتخلُّفهم وعدمِ مبالاتهم بذٰلك الدالِّ على عدم الإيمان واختيار الكفر على الإيمان: ﴿فرِحَ المخلَّفون بمَقْعَدِهم خلافَ رسول اللّه﴾: وهٰذا قدر زائد على مجرَّد التخلُّف؛ فإنَّ هٰذا تخلُّفٌ محرَّمٌ، وزيادةُ رضا بفعل المعصية وتبجح به. ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه﴾: وهٰذا بخلاف المؤمنين، الذين إذا تخلَّفوا ولو لعذرٍ؛ حزنوا على تخلُّفهم، وتأسَّفوا غاية الأسف، ويحبُّون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه؛ لما في قلوبهم من الإيمان، ويرجون من فضل اللّه وإحسانه وبره وامتنانه. ﴿وقالوا﴾؛ أي: المنافقون: ﴿لا تنفِروا في الحرِّ﴾؛ أي: قالوا: إنَّ النفير مشقَّةٌ علينا بسبب الحرِّ فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحرِّ الذي يقي منه الظلال ويُذْهِبُه البكر والآصال على الحرِّ الشديد الذي لا يُقادَرُ قدره، وهو النار الحامية، ولهذا قال: ﴿قل نارُ جهنَّم أشدُّ حرًّا لو كانوا يفقهون﴾.

---

(١) في (ب): «سخر».

﴿٨٢﴾ لَمَّا آثروا ما يفنى على ما يبقى، ولَمَّا فرُّوا من المشقَّة الخفيفة المنقضية إلى المشقَّة الشديدة الدائمة؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحكوا قليلاً ولْيَبْكوا كثيراً﴾؛ أي: فليتمتَّعوا في هٰذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذَّاتها، ويَلْهوا بلعبها، فسيبكون كثيراً في عذاب أليم. ﴿جزاءً بما كانوا يكسِبونَ﴾: من الكفر والنفاق وعدم الانقياد لأوامر ربِّهم.

﴿٨٣﴾ ﴿فإن رَجَعَكَ الله إلى طائفةٍ منهم﴾: وهم الذين تخلَّفوا من غير عذرٍ ولم يحزنوا على تخلُّفهم. ﴿فاستأذنوك للخروج﴾: لغير هٰذه الغزوة إذا رأوا السهولة، ﴿فقل﴾ لهم عقوبةً: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوًا﴾: فسيُغني الله عنكم، ﴿إنَّكم رضيتُم بالقعود أولَ مرَّةٍ فاقعُدوا مع الخالفين﴾: وهٰذا كما قال تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أولَ مرَّةٍ﴾؛ فإنَّ المتثاقل المتخلِّف عن المأمور به عند انتهازِ الفرصة لن[1] يوفَّق له بعد ذٰلك ويُحال بينه وبينه، وفيه أيضاً تعزيرٌ لهم؛ فإنَّه إذا تقرَّر عند المسلمين أنَّ هٰؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم؛ كان ذٰلك توبيخاً لهم وعاراً عليهم ونَكالاً أن يفعلَ أحدٌ كفعلِهم.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات﴾: من المنافقين، ﴿ولا تَقُمْ على قبرِهِ﴾: بعد الدفن لتدعو له؛ فإنَّ صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعةٌ منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة، ﴿إنَّهم كفروا بالله ورسولِهِ وماتوا وهم فاسقون﴾: ومن كان كافراً ومات على ذٰلك؛ فما تنفعُه شفاعةُ الشافعين، وفي ذٰلك عبرةٌ لغيرهم وزجرٌ ونَكالٌ لهم، وهٰكذا كلُّ من عُلم منه الكفر والنِّفاق؛ فإنَّه لا يصلَّى عليه.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على مشروعيَّة الصلاة على المؤمنين والوقوف عند قبورِهم للدُّعاء لهم كما كان النبيُّ ﷺ يفعل ذٰلك في المؤمنين؛ فإنَّ تقييد النهي بالمنافقين يدلُّ على أنه قد كان متقرراً في المؤمنين[2].

---

(١) في (ب): «لا».

(٢) كما في «سنن أبي داود» (٣٢٢١)، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٣٧٠). وانظر «أحكام الجنائز» للشيخ الألباني (١٥٦).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٥﴾ أي: لا تغترَّ بما أعطاهم الله في الدُّنيا من الأموال والأولاد؛ فليس ذٰلك لكرامتهم عليه، وإنَّما ذٰلك إهانة منه لهم. ﴿يريد الله أن يعذِّبهم بها في الدنيا﴾: فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنَّون بها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاقَّ فيها، وتُلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا، ﴿وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾: قد سَلَبَهم حبُّها عن كلِّ شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلِّقة وأفئدتهم عليها متحرِّقة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٦﴾ يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات وأنها لا تؤثِّر فيهم السور والآيات: ﴿وإذا أنزِلَتْ سورةٌ﴾: يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ﴿استأذَنَكَ أولو الطَّوْل منهم﴾؛ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عُذْرَ لهم، وقد أمدَّهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويَحْمَدونه ويقومون بما أوجبه عليهم وسهل عليهم أمره؟! ولٰكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود، ﴿وقالوا ذَرْنا نَكُن مع القاعدين﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رَضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾؛ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلِّفات عن الجهاد؟! هل معهم فقهٌ أو عقلٌ دلَّهم على ذٰلك أم ﴿طَبَعَ الله على قلوبهم﴾؟! فلا تعي الخير ولا يكونُ فيها إرادةٌ لفعل ما فيه الخير والفلاح؛ فهم لا يفقهون مصالحهم؛ فلو فقهوا حقيقة الفقه؛ لم يرضَوْا لأنفُسِهم بهٰذه الحال التي تحطُّهم عن منازل الرجال.

﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٨﴾ يقول تعالى: إذا تخلَّف هٰؤلاء المنافقون عن الجهاد؛ فالله سيُغْني

عنهم، ولله عبادٌ وخواصٌ من خلقِهِ اختصَّهم بفضله يقومون بهٰذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾: محمدٌ ﷺ، ﴿والذين آمنوا معه﴾ يجاهدون ﴿بأموالهم وأنفسهم﴾: غير متثاقلين ولا كَسِلين، بل هم فرحون مستبشرون، فأولٰئك ﴿لهم الخيراتُ﴾: الكثيرةُ في الدُّنيا والآخرة. فأولٰئك ﴿هم المفلحون﴾: الذين ظَفِروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿٨٩﴾ ﴿أعدَّ الله لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذٰلك الفوزُ العظيمُ﴾: فتبًّا لمن لم يرغبْ بما رغبوا فيه وخَسِرَ دينه ودنياه وأخراه، وهٰذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿قل آمِنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أوتوا العلمَ من قبلِهِ إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّداً﴾، وقوله: ﴿فإن يَكْفُرْ بها هٰؤلاءِ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرينَ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٠﴾ يقول تعالى: ﴿وجاء المعذِّرونَ من الأعراب لِيُؤْذَنَ لهم﴾؛ أي: جاء الذين تهاونوا وقصَّروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذنَ لهم في ترك الجهاد؛ غيرَ مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف، وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم؛ فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلِّيَّة. ويُحتمل أنَّ معنى قوله: ﴿المعذِّرون﴾؛ أي: الذين لهم عذرٌ أتوا إلى الرسول ﷺ لِيَعْذِرَهم، ومن عادته أن يَعْذِرَ مَن له عذرٌ، ﴿وقَعَدَ الذين كَذَبوا الله ورسوله﴾: في دعواهم الإيمان المقتضي للخروج وعدم عملهم بذٰلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿سيُصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾: في الدُّنيا والآخرة.

﴿٩١﴾ لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين: قسم معذور في الشرع، وقسم

غير معذورٍ؛ ذَكَرَ ذٰلك بقوله: ﴿ليس على الضُّعفاء﴾: في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوَّة لهم على الخروج والقتال، ﴿ولا على المرضى﴾: وهٰذا شاملٌ لجميع أنواع المرض، التي[1] لا يقدر صاحبُهُ على الخروج والجهاد من عَرَج وعمىً وحُمَّى وذات الجنب والفالج وغير ذٰلك. ﴿ولا على الذين لا يَجِدونَ ما يُنفقون﴾؛ أي: لا يجدون زاداً ولا راحلةً يتبلَّغون بها في سفرهم؛ فهٰؤلاء ليس عليهم حَرَجٌ، بشرط أن ينصحوا للّه ورسوله؛ بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيَّتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدِرون عليه من الحثِّ والترغيب والتَّشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾؛ أي: من سبيل يكونُ عليهم فيه تَبِعَةٌ؛ فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق اللّه وحقوق العباد أسقطوا توجُّه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبدُ فيما يقدِرُ عليه؛ سقط عنه ما لا يقدرُ عليه.

ويُستدلُّ بهٰذه الآية على قاعدة، وهي أنَّ مَن أحسن على غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذٰلك، ثم ترتَّب على إحسانه نقصٌ أو تلفٌ: أنَّه غير ضامن؛ لأنه محسنٌ، ولا سبيل على المحسنين؛ كما أنه يدلُّ على أن غير المحسن، وهو المسيء؛ كالمفرط؛ أن عليه الضمان. ﴿واللّه غفورٌ رحيم﴾: من مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيَّتهم الجازمة ثوابَ القادرين الفاعلين.

﴿٩٢﴾ ﴿ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهم﴾: فلم يصادفوا عندك شيئاً. ﴿قلتَ﴾: لهم معتذراً: ﴿لا أجِدُ ما أحمِلُكم عليه تَوَلَّوْا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حَزَناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾: فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقَّة ما ذكره اللّه عنهم؛ فهٰؤلاء لا حَرَجَ عليهم، وإذا سقط الحرجُ عنهم؛ عاد الأمر إلى أصله، وهو أنَّ مَن نوى الخير واقترن بنيَّته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدِرُ عليه ثم لم يقدِرْ؛ فإنَّه ينزَّلُ منزلة الفاعل التامِّ.

﴿٩٣﴾ ﴿إنَّما السبيل﴾: يتوجَّه واللوم يتناول ﴿الذين يستأذِنونك وهم أغنياءُ﴾: قادرون على الخروج لا عذرَ لهم؛ فهٰؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم، ومن دينهم ﴿أن يكونوا مع الخَوالِفِ﴾؛ كالنساء والأطفال ونحوهم. ﴿و﴾إنَّما رضوا بهٰذه الحال لأنَّ اللّه طَبَعَ ﴿على قلوبهم﴾؛ أي: خَتَمَ عليها؛ فلا يدخُلها خيرٌ، ولا يحسُّون

---

(١) كذا في النسختين.

بمصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿فهم لا يعلمون﴾: عقوبةً لهم على ما اقترفوا.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٤﴾ لما ذكر تخلُّف المنافقين الأغنياء، وأنه لا عذر لهم؛ أخبر أنهم سيعتذرون ﴿إليكم إذا رجعتُم إليهم﴾: من غزاتكم، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لا تعتذروا لن نؤمنَ لكم﴾؛ أي: لن نصدِّقكم في اعتذاركم الكاذب، ﴿قد نبَّأنا الله من أخبارِكم﴾: وهو الصادق في قيله، فلم يبقَ للاعتذار فائدةٌ؛ لأنهم يعتذِرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحالٌ أن يكونوا صادقين فيما يخالِفُ خَبَرَ الله الذي هو أعلى مراتب الصدق. ﴿وسيرى اللهُ عمَلَكم ورسولُه﴾: في الدُّنيا؛ لأنَّ العملَ هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرَّد الأقوال؛ فلا دلالة فيها على شيء من ذلك، ﴿ثم تُردُّون إلى عالم الغيبِ والشهادة﴾: الذي لا يخفى عليه خافيةٌ، ﴿فينبِّئُكم بما كنتم تعملون﴾: من خيرٍ وشرٍّ، ويجازيكم بعدله أو بفضله؛ من غير أن يظلِمَكم مثقالَ ذرَّةٍ.

﴿٩٥﴾ واعلم أن المسيء المذنب له ثلاثُ حالاتٍ: إما يُقْبَلُ قولُه وعذرُه ظاهراً وباطناً ويُعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنبْ. [فهٰذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة](١). وإما أن يُعاقبوا بالعقوبة والتَّعزير الفعليِّ على ذنبهم. وإما أن يُعْرَضَ عنهم، ولا يقابَلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعليَّة. وهٰذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حقِّ المنافقين، ولهٰذا قال: ﴿سيحلفون باللهِ لكم إذا انقلبتُم إليهم لتُعْرِضوا عنهم فأعرِضوا عنهم﴾؛ أي: لا توبِّخوهم ولا تجلِدوهم أو تقتُلوهم. ﴿إنَّهم رجسٌ﴾؛ أي: إنهم قذرٌ خبثاء، ليسوا بأهل لأن يُبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة

---

(١) كذا في النسختين ولعل من المناسب أن تكون ما بين المعقوفتين بعد قوله: «ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية». والله أعلم.

مفيداً فيهم. ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة ﴿جهنَّم جزاءً بما كانوا يكسِبون﴾.

﴿٩٦﴾ وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضَوْا عنهم﴾؛ أي: ولهم أيضاً هٰذا المقصد الآخر منكم غير مجرَّد الإعراض، بل يحبُّون أن ترضَوْا عنهم كأنَّهم ما فعلوا شيئاً. ﴿فإن ترضَوْا عنهم فإنَّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقينَ﴾؛ أي: فلا ينبغي لكم أيُّها المؤمنون أن ترضَوْا عن من لم يرضَ اللّهُ عنه، بل عليكم أن توافقوا ربَّكم في رضاه وغضبه. وتأمَّلْ كيف قال: ﴿فإنَّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾، ولم يقلْ: فإنَّ الله لا يرضى عنهم؛ ليدلَّ ذٰلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم؛ فإنَّ الله يتوب عليهم ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين؛ فإنَّ الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة إلى ما يُغْضِبُه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أنَّ المنافقين المتخلِّفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلُّفهم؛ فإنَّ المنافقين يريدون بذٰلك أن تُعْرِضوا عنهم وتَرْضَوْا وتقبلوا عذرَهم: فأمَّا قَبولُ العذر منهم والرضا عنهم؛ فلا حبًّا ولا كرامةً لهم. وأمَّا الإعراض عنهم؛ فيعرِض المؤمنون عنهم إعراضَهم عن الأمور الرديَّة الرجس.

وفي هٰذه الآيات إثباتُ الكلام لله تعالى في قوله. ﴿قد نبَّأنا الله من أخباركم﴾، وإثبات الأفعال الاختياريَّة لله الواقعة بمشيئته وقدرته في هٰذا وفي قوله: ﴿وسيرى الله عَمَلَكُم ورسولُه﴾؛ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرِّضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿الأعرابُ﴾: وهم سكان البادية والبراري، ﴿أشدُّ كفراً ونفاقاً﴾: من الحاضرة الذين فيهم كفرٌ ونفاقٌ، وذٰلك لأسباب كثيرة؛ منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينيَّة والأعمال والأحكام؛ فهم أحرى ﴿وأجدرُ أن لا

يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللّه على رسوله﴾: من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي؛ بخلاف الحاضرة؛ فإنَّهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسولِهِ، فيحدُثُ لهم بسبب هٰذا العلم تصوُّرات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للدَّاعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية؛ فلذٰلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفارٌ ومنافقون؛ ففي البادية أشدُّ وأغلظ مما في الحاضرة.

﴿٩٨﴾ ومن ذٰلك أنَّ الأعراب أحرصُ على الأموال وأشحُّ فيها؛ فمنهم ﴿من يتَّخذُ ما ينفِقُ﴾: من الزكاة والنفقة في سبيل اللّه وغير ذٰلك، ﴿مغرماً﴾؛ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه اللّه، ولا يكادُ يؤدِّيها إلا كرهاً، ﴿ويتربَّص بكم الدوائرَ﴾؛ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبُغضهم لهم أنهم يودُّون وينتظرون فيهم دوائر الدَّهر وفجائع الزمان، وهٰذا سينعكس عليهم. فعليهم ﴿دائرةُ السَّوْءِ﴾، أما المؤمنون؛ فلهم الدائرةُ الحسنةُ على أعدائهم، ولهم العُقبى الحسنة. ﴿واللّه سميعٌ عليمٌ﴾: يعلم نيات العباد وما صدرت منه الأعمال من إخلاص وغيره.

﴿٩٩﴾ وليس الأعراب كلُّهم مذمومين، بل منهم ﴿مَن يؤمنُ باللّه واليوم الآخر﴾: فيسلم بذٰلك من الكفر والنفاق، ويعمل بمقتضى الإيمان، ﴿ويتَّخِذُ ما ينفِقُ قُرُباتٍ عند اللّه﴾؛ أي: يحتسب نفقته ويقصد بها وجهَ اللّه تعالى والقربَ منه، ﴿و﴾ يجعلُها وسيلةً لِـ ﴿صلَوَاتِ الرسول﴾؛ أي: دعائه لهم وتبريكه عليهم. قال تعالى مبيِّناً لنفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنَّها قُربةٌ لهم﴾: تقرِّبهم إلى اللّه، وتُنمي أموالهم، وتُحِلُّ فيها البركة. ﴿سيدخِلُهم اللّه في رحمته﴾: في جملة عباده الصالحين. إنَّه ﴿غفورٌ رحيمٌ﴾: فيغفر السيئاتِ العظيمةَ لمن تاب إليه، ويَعُمُّ عباده برحمتِهِ التي وسعت كلَّ شيءٍ، ويخصُّ عباده المؤمنين برحمةٍ يوفِّقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزِلُ لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على أنَّ الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمُّهم اللّه على مجرَّد تعرُّبهم وباديتهم، إنَّما ذمَّهم على ترك أوامر اللّه، وأنهم في مظنة ذٰلك.

ومنها: أنَّ الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلُظ، ويخِفُّ بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأنَّ فاقِدَه أقرب إلى الشرِّ ممَّن يعرفه؛ لأنَّ اللّه ذمَّ الأعراب، وأخبر أنهم أشدُّ كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذٰلك، وأنَّهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه؛ كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبرِّ والصِّلة والإحسان والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذٰلك؛ فإن في معرفتها يُتَمكَّن من فعلها إن كانت مأموراً بها أو[1] تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً ولا تكون مغرماً.

﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ السابقون هم الذين سبقوا هٰذه الأمة وبَدَروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين اللّه، ﴿من المهاجرين﴾: ﴿الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم يبتغونَ فضلاً من اللّه ورضواناً وينصُرون اللّه ورسولَه أولٰئك هم الصادقون﴾. ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾: ﴿الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلِهم يحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورِهم حاجةً مما أوتوا ويؤثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصَةٌ﴾. ﴿والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ﴾: بالاعتقادات والأقوال والأعمال؛ فهٰؤلاء هم الذين سَلِموا من الذَّمِّ وحصل لهم نهاية المدح وأفضلُ الكرامات من اللّه. ﴿رضي اللّه عنهم﴾: ورضاه تعالى أكبرُ من نعيم الجنة، ﴿ورَضوا عنه وأعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتَها الأنهار﴾: الجارية التي تُساق إلى سقي الجنان والحدائق الزاهية الزاهرة والرياض الناضرة. ﴿خالدين فيها أبداً﴾: لا يبغون عنها حِوَلاً ولا يطلبون منها بدلاً؛ لأنَّهم مهما تمنَّوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه. ﴿ذٰلك الفوز العظيم﴾: الذي حصل لهم فيه كلُّ محبوبٍ للنفوس ولذَّة للأرواح ونعيم للقلوب وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كلُّ محذور.

(١) في (ب): «مأمورة أو».

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿١٠١﴾ يقول تعالى: ﴿وممَّن حولَكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾: أيضاً منافقون، ﴿مَرَدُوا على النِّفاق﴾؛ أي: تمرَّنوا عليه [واستمرّوا] وازدادوا فيه طغياناً، ﴿لا تعلَمُهم﴾: بأعيانهم فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم؛ لما للّه في ذلك من الحكمة الباهرة. ﴿نحن نعلمُهم سنعذِّبهم مرتينِ﴾: يُحتمل أن التثنية على بابها، وأنَّ عذابَهم عذابٌ في الدنيا وعذابٌ في الآخرة؛ ففي الدُّنيا ما ينالهم من الهمِّ والغمِّ[1] والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذابُ النار وبئس القرار، ويُحتمل أنَّ المراد سنغلِّظُ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم، ونكرِّره.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ يقول تعالى: ﴿وآخرون﴾: ممَّن بالمدينة ومَنْ حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلاميَّة، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾؛ أي: أقرُّوا بها وندموا عليها وسعوا في التوبة منها والتطهُّر من أدرانها، ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً﴾: ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصلُ التوحيد والإيمان المخرِجُ عن الكفر والشرك الذي هو شرطٌ لكلِّ عمل صالح؛ فهٰؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة من التجرّي على بعض المحرَّمات والتقصير في بعض الواجبات مع الاعتراف بذٰلك والرجاء بأن يغفر اللّه لهم؛ فهٰؤلاء ﴿عسى اللّهُ أن يتوبَ عليهم﴾: وتوبتُه على عبده نوعان: الأولُ: التوفيقُ للتوبة. والثاني: قبولُها بعد وقوعها منهم. ﴿إنَّ اللّه غفورٌ رحيم﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوقٌ منهما، بل لا بقاء للعالم العلويِّ والسفليِّ إلا بهما؛ فلوْ يؤاخِذُ اللّهُ الناسَ بظُلْمهم ما ترك على ظهرها من دابَّةٍ، ﴿إنَّ اللّه يمسك السمٰواتِ والأرضَ أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمسَكَهما من أحدٍ من بعدِهِ إنَّه كان حليماً غفوراً﴾، ومن مغفرته أن المسرفين على

---

(١) في (ب): «والحزن».

أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة إذا تابوا إليه وأنابوا، ولو قُبيل موتهم بأقلِّ القليل؛ فإنَّه يعفو عنهم ويتجاوزُ عن سيئاتهم. فهٰذه الآية دالةٌ[١] على أن المخلِّط المعترف النادم الذي لم يتب توبةً نصوحاً؛ أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب، وأما المخلِّط الذي لم يعترفْ، ولم يندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرًّا على الذُّنوب؛ فإنه يخاف عليه أشدُّ الخوف.

﴿١٠٣﴾ قال تعالى لرسوله ومَنْ قام مقامه آمراً له بما يطهِّر المؤمنين ويتمِّم إيمانهم: ﴿خُذْ من أموالهم صدقةً﴾: وهي الزكاة المفروضة، ﴿تطهِّرُهم وتزكِّيهم بها﴾؛ أي: تطهِّرهم من الذُّنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿وتزكِّيهم﴾؛ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم، ﴿وصَلِّ عليهم﴾؛ أي: ادع لهم؛ أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم. ﴿إنَّ صلاتَك سَكَنٌ لهم﴾؛ أي: طُمَأنينة لقلوبهم واستبشار لهم. ﴿واللّه سميع﴾: لدعائك سمعَ إجابة وقَبول. ﴿عليمٌ﴾: بأحوال العباد ونيَّاتهم، فيجازي كلَّ عامل بعمله وعلى قدر نيته. فكان النبيُّ ﷺ يمتثِلُ لأمر اللّه، ويأمُرُهم بالصدقة، ويبعثُ عمَّاله لجبايتها؛ فإذا أتاه أحدٌ بصدقته؛ دعا له وبرَّك[٢].

ففي هٰذه الآية دلالةٌ على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهٰذا إذا كانت للتجارة ظاهرة؛ فإنَّها أموالٌ تنمى ويُكتسب بها؛ فمن العدل أن يواسي منها الفقراء بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة. وما عدا أموال التجارة؛ فإن كان المال ينمى كالحبوب والثمار والماشية المتَخذة للنماء والدرِّ والنسل؛ فإنَّها تجب فيها الزكاة، وإلَّا؛ لم تجبْ فيها؛ لأنَّها إذا كانت للقُنْية؛ لم تكن بمنزلة الأموال التي يتَّخذها الإنسان في العادة مالاً يُتَمَوَّل ويُطلب منه المقاصد المالية، وإنَّما صرف عن المالية بالقُنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهَّر، ويتزكَّى حتى يخرِجَ زكاة مالِهِ، وأنَّه لا يكفِّرها شيءٌ سوى أدائها؛ لأنَّ الزكاة والتطهير متوقِّف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدُّعاء من الإمام أو نائبه لمن أدَّى زكاته بالبركة، وأن ذٰلك ينبغي أن يكون جهراً؛ بحيث يسمعه المتصدِّق فيسكنُ إليه.

---

(١) في (ب): «دلّت». (٢) سبق تخريجه.

ويؤخذ من المعنى أنه ينبغي إدخالُ السرور على المؤمن بالكلام الليِّن والدعاء له ونحو ذٰلك مما يكون فيه طمأنينة وسكونٌ لقلبِهِ. [وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقةً، وعمل عملاً صالحاً بالدُّعاء له والثناء ونحو ذلك].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ أي: أما علموا سَعَةَ رحمة اللّه وعمومَ كرمه، وأنه ﴿يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ﴾: التائبين من أيِّ ذنبٍ كان، بل يفرحُ تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرحٍ يقدَّر، ﴿ويأخُذُ الصدقاتِ﴾: منهم؛ أي: يقبلها ويأخُذُها بيمينه، فيُرَبِّيها لأحدهم كما يُربِّي الرجل فَلُوَّهُ، حتى تكون التمرةُ الواحدة كالجبل العظيم؛ فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذٰلك. ﴿وأنَّ اللّه هو التوابُ الرحيمُ﴾؛ أي: كثير التوبة على التائبين؛ فمنْ تاب إليه؛ تاب عليه، ولو تكررتْ منه المعصيةُ مراراً، ولا يَمَلُّ اللّه من التوبة على عباده حتى يَمَلُّوا هم، ويأبوا إلا النِّفارَ والشُّرودَ عن بابه وموالاتَهم عدوَّهم. ﴿الرحيم﴾: الذي وسعت رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، وكَتَبَها للذين يتَّقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتَّبعون رسوله.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿وقُلْ﴾ لهٰؤلاء المنافقين: ﴿اعمَلوا﴾: ما ترون من الأعمال، واستمرُّوا على باطلكم؛ فلا تحسَبوا أنَّ ذٰلك سيخفى، ﴿فسيرى اللّهُ عَمَلَكم ورسولُه والمؤمنونَ﴾؛ أي: لا بدَّ أن يتبيَّن عملكم ويتَّضح، ﴿وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبِّئُكم بما كنتُم تعملون﴾: من خيرٍ وشرٍّ ففي هٰذا التهديد والوعيد الشديد على مَن استمرَّ على باطله وطغيانه وغيِّه وعصيانه. ويُحتمل أنَّ المعنى: إنَّكم مهما عملتم من خيرٍ أو شرٍّ؛ فإنَّ اللّه مطَّلعٌ عليكم، وسَيُطْلِعُ رسولَه وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنةً.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٦﴾ أي: ﴿وآخرون﴾: من المخلَّفين مؤخَّرون ﴿لأمرِ اللّه إمَّا يعذِّبُهم وإمَّا يتوبُ عليهم﴾: ففي هٰذا التخويف الشديد للمتخلِّفين والحث لهم على التوبة

والندم. ﴿والله عليمٌ﴾: بأحوال العباد ونياتهم، ﴿حكيمٌ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزِلُها منازلَها؛ فإذا اقتضت حكمتُه أن يغفر لهم ويتوب عليهم؛ غفر لهم وتاب عليهم. وإن اقتضت حكمتُه أن يخذُلَهم ولا يوفِّقهم للتوبة؛ فعل ذٰلك.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

﴿١٠٧﴾ كان أناسٌ من المنافقين من أهل قُباء اتَّخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء يريدون به المضارَّة والمشاقَّة بين المؤمنين، ويُعِدُّونه لمن يرجونه من المحاربين للّه ورسوله؛ يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبيَّن تعالى خِزْيَهم، وأظهر سِرَّهم، فقال: ﴿والذين اتَّخذوا مسجداً ضراراً﴾؛ أي: مضارَّة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وكفراً﴾؛ أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾؛ أي: ليتشعبوا ويتفرَّقوا ويختلفوا، ﴿وإرصاداً﴾؛ أي: إعداداً ﴿لمن حارب اللّه ورسوله مِن قبلُ﴾؛ أي: إعانة للمحاربين للّه ورسوله، الذين تقدَّم حرابهم واشتدَّت عداوتهم، وذٰلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبيُّ ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفر به، وكان متعبِّداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول اللّه ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم؛ ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعدٍ وممالئة هو والمنافقون، فكان مما أعدُّوا له مسجد الضِّرار، فنزل الوحي بذٰلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه[1]، فهُدم، وحُرق، وصار بعد ذٰلك مزبلةً.

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٤/ ١٠٧)، و «الدر المنثور» (٣/ ٤٩٤).

قال تعالى بعد ما بيَّن من مقاصدهم الفاسدة في ذٰلك المسجد: ﴿ولَيَحْلِفُنَّ إن أردْنا﴾ في بنائنا إيَّاه ﴿إلا الحسنى﴾؛ أي: الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير. ﴿واللّه يشهدُ إنَّهم لكاذبونَ﴾: فشهادة اللّه عليهم أصدق من حلفهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿لا تقم فيه أبداً﴾؛ أي: لا تصلِّ في ذٰلك المسجد الذي بُني ضراراً أبداً؛ فاللّه يُغنيك عنه، ولست بمضطرٍّ إليه. ﴿لمسجدٌ أسِّس على التَّقوى من أول يوم﴾: ظهر فيه الإسلام في قُباء، وهو مسجد قُباء أسِّس على إخلاص الدين للّه وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هٰذا عريقاً فيه؛ فهٰذا المسجد الفاضل ﴿أحقُّ أن تقومَ فيه﴾: وتتعبَّد وتذكر اللّه تعالى؛ فهو فاضل وأهله فضلاء، ولهٰذا مدحهم اللّه بقوله: ﴿فيه رجالٌ يحبُّون أن يتطهَّروا﴾: من الذُّنوب، ويتطهَّروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أنَّ مَن أحبَّ شيئاً؛ لا بدَّ أن يسعى له ويجتهد فيما يحبُّ؛ فلا بدَّ أنهم كانوا حريصين على التطهُّر من الذُّنوب والأوساخ والأحداث، ولهٰذا كانوا ممَّن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول اللّه ﷺ وإقامة شرائع الدين، وممَّن كانوا يتحرَّزون من مخالفة اللّه ورسوله.

وسألهم النبيُّ ﷺ بعدما نزلت هٰذه الآية[1] في مدحهم عن طهارتهم؟ فأخبروه أنَّهم يُتبِعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿واللّه يحبُّ المطَّهِّرين﴾: الطهارة المعنوية كالتنزُّه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسيَّة كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

﴿١٠٩﴾ ثم فاضَلَ بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أفمن أسَّس بنيانَه على تقوى من اللّه﴾؛ أي: على نيَّة صالحة وإخلاص، ﴿ورضوانٍ﴾: بأن كان موافقاً لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة. ﴿خيرٌ أم منْ أسَّس بنيانَه على شفا﴾؛ أي: على طرف؛ ﴿جُرُفٍ هارٍ﴾؛ أي: بالٍ، قد تداعى للانهدام، ﴿فانهار به في نارِ جهنَّم واللّهُ لا يهدي القوم الظالمين﴾: لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿١١٠﴾ ﴿لا يزالُ بنيانُهم الذي بَنَوْا رِيبةً في قلوبِهِم﴾؛ أي: شكًّا وريباً ماكثاً في

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٢)، وابن ماجه (٣٥٥)، والحاكم (١/ ١٥٥ و ٢/ ٣٣٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

قلوبهم، ﴿إلَّا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم﴾: بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربِّهم، ويخافوه غاية الخوف؛ فبذٰلك يعفو اللّه عنهم، وإلَّا؛ فبنيانُهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ريبهم، ونفاقاً إلى نفاقهم. ﴿واللّه عليمٌ﴾: بجميع الأشياء؛ ظاهرها وباطنها، خفيِّها وجليِّها، وبما أسرَّه العباد وأعلنوه، ﴿حكيمٌ﴾: لا يفعل ولا يخلُقُ ولا يأمر ولا ينهى إلَّا ما اقتضته الحكمة وأمر به؛ فللّه الحمد.

وفي هٰذه الآيات عدة فوائد:

منها: أنَّ اتِّخاذ المسجد الذي يقصد به الضِّرار لمسجدٍ آخر بقربه أنه محرَّم، وأنه يجب هدمُ مسجد الضرار الذي اطُّلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل، وإن كان فاضلاً، تغيِّره النية، فينقلب منهيًّا عنه؛ كما قَلَبَتْ نيةُ أصحاب مسجد الضرار عملَهم إلى ما ترى.

ومنها: أنَّ كل حالة يحصُلُ بها التفريق بين المؤمنين؛ فإنها من المعاصي التي يتعيَّن تركُها وإزالتها؛ كما أنَّ كل حالة يحصُلُ بها جمع المؤمنين وائتلافهم يتعيَّن اتِّباعها والأمرُ بها والحثُّ عليها؛ لأنَّ اللّه علَّل اتِّخاذهم لمسجد الضرار بهٰذا المقصد الموجب للنهي عنه كما يوجب ذٰلك الكفر والمحاربة للّه ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية والبعد عنها وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار ونُهي عن القيام فيه، وكذٰلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد قُباء، حتى قال اللّه فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّس على التقوى من أول يوم أحقُّ أن تقومَ فيه﴾: ولهٰذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قُباء كلَّ سبتٍ يصلي فيه[1]، وحثَّ على الصلاة فيه[2].

ومنها: أنه يُستفادُ من هٰذه التعاليل المذكورة في الآية **أربعُ قواعدَ مهمَّة**، وهي: كل عمل فيه مضارَّة لمسلم، أو فيه معصيةٌ للّه؛ فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريقٌ بين المؤمنين، أو فيه معاونةٌ لمن عادى اللّه ورسوله؛ فإنه محرَّم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٣)، ومسلم (١٣٩٩) عن ابن عمر.

(٢) كما عند الإمام أحمد (٣/ ٤٨٧)، وابن ماجه (١٤١٢)، والترمذي (٣٢٤).

[**ومنها**: أن الأعمال الحسيّة الناشئة عن معصية الله، لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله، بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوبَ منها توبةً تامَّةً؛ بحيث يتقطع قلبُه من الندم والحسرات].

ومنها: أنه إذا كان مسجدُ قُباء مسجداً أُسِّس على التقوى؛ فمسجد النبيِّ ﷺ الذي أسَّسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره اللّه له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبنيَّ على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسَّس على التَّقوى الموصل لعاملِهِ إلى جنات النعيم، والعمل المبنيَّ على سوء القصد وعلى البِدَع والضَّلال هو العمل المؤسَّس على شفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نارِ جهنَّم. واللّه لا يهدي القوم الظالمين.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١١﴾ يخبر تعالى خبراً صدقاً ويعدُ وعداً حقًّا بمبايعةٍ عظيمةٍ ومعاوضةٍ جسيمةٍ، وهو أنه ﴿**اشترى**﴾: بنفسه الكريمة ﴿**من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**﴾: فهي الثَّمن والسلعة المَبيعة، ﴿**بأنَّ لهم الجنة**﴾: التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين من أنواع اللَّذَّات والأفراح والمسرَّات والحور الحسان والمنازل الأنيقات، وصفة العقد والمبايعة بأن يبذُلوا للّه نفوسَهم وأموالَهم في جهاد أعدائه؛ لإعلاء كلمتِهِ وإظهار دينه. فيقاتلون ﴿**في سبيل اللّه فيَقْتُلون ويُقْتَلون**﴾: فهٰذا العقد والمبايعة قد صدرت من اللّه مؤكَّدة بأنواع التأكيدات. ﴿**وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن**﴾: التي هي أشرفُ الكتب التي طرقَتِ العالم وأعلاها وأكملها، وجاء بها أكملُ الرسل أولو العزم، وكلُّها اتَّفقت على هٰذا الوعد الصادق. ﴿**ومن أوفى بعهدِهِ من اللّه فاستَبْشِروا**﴾: أيُّها المؤمنون، القائمون بما وعدكم اللّه ﴿**ببيعِكُمُ الذي بايَعْتُم به**﴾؛ أي: لتفرحوا بذٰلك وليبشِّر بعضُكم بعضاً ويحثَّ بعضُكم بعضاً. ﴿**وذٰلك هو الفوز العظيم**﴾: الذي لا فوز أكبرُ منه ولا أجلُّ؛ لأنه يتضمَّن السعادةَ الأبديَّة والنعيم المقيم، والرِّضا من اللّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة؛ فانظُرْ إلى المشتري؛ مَنْ هو؟ وهو اللّه جلَّ جلاله، وإلى العِوَضِ، وهو أكبر الأعواض وأجلُّها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن

المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحبُّ الأشياء للإنسان، وإلى مَن جرى على يديه عقدُ هٰذا التبايُع، وهو أشرف الرسل، وبأيِّ كتاب رُقِمَ؟ وهي كتب اللّه الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿١١٢﴾ كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارةُ من اللّه بدخول الجنات ونَيْل الكرامات؟ فقال: هم: ﴿التائبون﴾؛ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات. ﴿العابدونَ﴾؛ أي: المتَّصفون بالعبوديَّة للّه والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبَّات في كل وقتٍ؛ فبذٰلك يكون العبد من العابدين. ﴿الحامدون﴾: للّه في السرَّاء والضرَّاء واليسر والعسر، المعترفون بما للّه عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على اللّه بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار. ﴿السائحون﴾: فسِّرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسِّرت بسياحة القلب في معرفة اللّه ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أنَّ المرادَ بالسياحة السفرُ في القُربات؛ كالحجِّ والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذٰلك. ﴿الراكعون الساجدون﴾؛ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود. ﴿الآمرون بالمعروف﴾: ويدخل فيه جميع الواجباتِ والمستحبَّات. ﴿والناهون عنِ المنكر﴾: وهي جميع ما نهى اللّه ورسوله عنه. ﴿والحافظون لحدود اللّه﴾: بتعلُّمهم حدودَ ما أنزل اللّه على رسوله، وما يدخُلُ في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً. ﴿وبشِّر المؤمنين﴾: لم يذكُرْ ما يبشِّرهم به؛ ليعمَّ جميع ما رتَّب على الإيمان من ثواب الدُّنيا والدين والآخرة؛ فالبشارةُ متناولةٌ لكلِّ مؤمن، وأما مقدارُها وصفتُها؛ فإنَّها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم قوةً وضعفاً وعملاً بمقتضاه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿١١٣﴾ يعني: ما يليق ولا يَحْسُنُ للنبيِّ وللمؤمنين به، ﴿أن يستغفِروا للمشركين﴾؛ أي: لمن كفر به وعبد معه غيره، ﴿ولو كانوا أولي قُربى من بعدِ ما

تبيَّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم﴾: فإنَّ الاستغفار لهم في هٰذه الحال غلطٌ غير مفيد؛ فلا يليقُ بالنبيِّ والمؤمنين؛ لأنَّهم إذا ماتوا على الشرك أو عُلِمَ أنهم يموتون عليه؛ فقد حقَّت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلودُ في النار، ولم تنفعْ فيهم شفاعةُ الشافعين ولا استغفارُ المستغفرين. وأيضاً؛ فإنَّ النبيَّ والذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربَّهم في رضاه وغضبه، ويوالوا مَنْ والاه الله، ويُعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبيَّن أنه من أصحاب النار منافٍ لذٰلك مناقضٌ له.

﴿١١٤﴾ ولئن وُجِدَ الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه ﴿عن موعدةٍ وَعَدَها إيَّاه﴾: في قوله: ﴿سأستغفِر لك ربِّي إنه كان بي حَفِيًّا﴾: وذٰلك قبل أن يعلم عاقبةَ أبيه، ﴿فلما تبيَّن﴾: لإبراهيم أن أباه ﴿عدوٌّ لله﴾: سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير؛ ﴿تبرَّأ منه﴾: موافقةً لربِّه وتأدباً معه. ﴿إنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ﴾؛ أي: رجَّاعٌ إلى الله في جميع الأمور، كثير الذِّكر والدُّعاء والاستغفار والإنابة إلى ربِّه. ﴿حليمٌ﴾؛ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدُرُ منهم إليه من الزلَّات، لا يستفزُّه جهلُ الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجُرْمِهِ، فأبوه قال له: ﴿لأرْجُمنَّكَ﴾، وهو يقول له: ﴿سلامٌ عليك سأستغفرُ لك ربِّي﴾؛ فعليكم أن تقتدوا وتتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيم في كلِّ شيء إلا قول إبراهيم لأبيه: ﴿لأستغفرنَّ لك﴾؛ كما نبَّهكم الله عليها وعلى غيرها. ولهٰذا قال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥﴾ يعني: أن الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالى يتمِّم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتُهم؛ فلا يتركُهم ضالِّين جاهلين بأمور دينهم. ففي هٰذا دليلٌ على كمال رحمته، وأن شريعته وافيةٌ بجميع ما يحتاجُه العبادُ في أصول الدين وفروعه. ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك: ﴿وما كان الله لِيُضِلَّ قوماً بعد إذ هَداهم حتَّى يُبيِّنَ لهم ما يتَّقونَ﴾: فإذا بيَّن لهم ما يتَّقون، فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال جزاءً لهم على ردِّهم الحقَّ المبينَ، والأول أولى. ﴿إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم﴾: فلكمال علمِهِ وعمومه علَّمكم ما لم تكونوا تعلمونَ، وبيَّن لكم ما به تنتفعون.

﴿١١٦﴾ ﴿إنَّ الله له ملك السمواتِ والأرض يُحيي ويُميتُ﴾؛ أي: هو المالك لذلك، المدبِّر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهيَّة؛ فإذا كان لا يُخِلُّ بتدبيره القدريِّ؛ فكيف يُخِلُّ بتدبيره الدينيِّ المتعلِّق بإلهيَّته ويترك عبادَه سدى مهمَلين أو يدعُهم ضالِّين جاهلين وهو أعظم تولِّيه لعبادِهِ؟! فلهذا قال: ﴿وما لَكُم من دونِ الله من وليٍّ ولا نصيرٍ﴾؛ أي: وليٌّ يتولَّاكم بجلب المنافع لكم أو نصيرٍ يدفع عنكم المضارَّ.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٧﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبيِّ﴾: محمد ﷺ، ﴿والمهاجرين والأنصار﴾: فغفر لهم الزَّلَّات ووفَّر لهم الحسنات ورقَّاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقَّات، ولهذا قال: ﴿الذين اتَّبعوه في ساعةِ العُسْرَةِ﴾؛ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك[1]، وكانت في حرٍّ شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدوٍ مما يدعو إلى التخلُّف، فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿من بعدِ ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريق منهم﴾؛ أي: تنقلب قلوبهم ويميلوا إلى الدَّعة والسكون، ولكنَّ الله ثبَّتهم وأيَّدهم وقوَّاهم.

وزيغُ القلب هو انحرافُه عن الصراط المستقيم؛ فإن كان الانحراف في أصل الدين؛ كان كفراً، وإنْ كان في شرائعِهِ؛ كان بحسب تلك الشريعة التي زاغَ عنها: إما قصَّر عن فعلها، أو فَعَلَها على غير الوجه الشرعيِّ. وقوله: ﴿ثمَّ تاب عليهم﴾؛ أي: قبل توبتهم. ﴿إنَّه بهم رءوفٌ رحيمٌ﴾: ومن رأفته ورحمته أنْ مَنَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم، وثبَّتهم عليها.

﴿١١٨﴾ ﴿و﴾ كذلك لقد تاب [اللهُ] ﴿على الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾: عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم كعبُ بن مالك وصاحباه، وقصَّتُهم مشهورةٌ

(١) في (ب): «وقعة تبوك».

معروفةٌ في الصحاح والسنن[١]. ﴿حتى إذا﴾: حزنوا حزناً عظيماً، و ﴿ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾؛ أي: على سعتها ورحبها، ﴿وضاقت عليهم أنفسُهُم﴾: التي هي أحبُّ إليهم من كلِّ شيءٍ، فضاق عليهم الفضاء الواسع والمحبوبُ الذي لم تجرِ العادة بالضيق منه، وذٰلك لا يكون إلا من أمرٍ مزعج بَلَغَ من الشدَّة والمشقَّة ما لا يمكن التعبيرُ عنه، وذٰلك لأنهم قدَّموا رضا الله ورضا رسوله على كلِّ شيءٍ. ﴿وظنُّوا أن لا مَلْجَأ من الله إلا إليه﴾؛ أي: تيقَّنوا وعرفوا بحالهم أنه لا يُنْجي من الشدائد ويُلْجأ إليه إلَّا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلُّقهم بالمخلوقين، وتعلَّقوا بالله ربِّهم، وفرُّوا منه إليه، فمكثوا بهٰذه الشدَّة نحو خمسين ليلةً. ﴿ثمَّ تاب عليهم﴾؛ أي: أذن في توبتهم ووفَّقهم لها، ﴿لِيَتوبوا﴾؛ أي: لتقعَ منهم فيتوبَ الله عليهم. ﴿إنَّ الله هو التوَّابُ﴾؛ أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلَّات والنُّقصان[٢]، ﴿الرحيمُ﴾: وَصْفُهُ الرحمة العظيمة التي لا تزال تَنْزِلُ على العباد في كلِّ وقت وحينٍ، في جميع اللحظات ما تقوم به أمورُهم الدينيَّة والدنيويَّة.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على أن توبة الله على العبد أجلُّ الغايات وأعلى النهايات؛ فإنَّ الله جعلها نهاية خواصِّ عباده، وامتنَّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبُّها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أنَّ العبادة الشاقَّة على النفس لها فضلٌ ومزيَّة ليست لغيرها، وكلَّما عظُمت المشقة؛ عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمِهِ وأسفِهِ الشديد، وأنَّ من لا يبالي بالذنب ولا يُحْرَجُ إذا فعله؛ فإنَّ توبته مدخولةٌ، وإنْ زَعَمَ أنَّها مقبولةٌ.

ومنها: أنَّ علامة الخير وزوال الشدَّة إذا تعلَّق القلب بالله تعالى تعلُّقاً تامًّا وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أنَّ من لطف الله بالثلاثة أنْ وَسَمَهم بوسم ليس بعارٍ عليهم، فقال:

(١) أخرجها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢١٢٠).

(٢) في (ب): «والعصيان».

﴿خُلِّفوا﴾؛ إشارةً إلى أن المؤمنين خَلَّفوهم أو خُلِّفوا عن مَنْ بُتَّ في قَبول عذرِهم أو في ردِّه، وأنهم لم يكن تخلُّفهم رغبةً عن الخير، ولهٰذا لم يقلْ: تَخلَّفوا.

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٩﴾ أي: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾: بالله وبما أمر الله بالإيمان به! قوموا بما يقتضيه الإيمانُ، وهو القيام بتقوى الله تعالى؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه، ﴿وكونوا مع الصَّادقينَ﴾: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدقٌ، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً، خليَّةً من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنيَّة الصالحة؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿هٰذا يومُ ينفَعُ الصادقين صِدْقُهم...﴾ الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ يقول تعالى حاثًّا لأهل المدينة المنوَّرة من المهاجرين والأنصار ومَنْ حولَها من الأعراب الذين أسلموا فَحَسُنَ إسلامهم: ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حولَهم من الأعراب أن يتخَلَّفوا عن رسول الله﴾؛ أي: ما ينبغي لهم ذٰلك ولا يَليق بأحوالهم. ﴿ولا يرغَبوا بأنفسِهم﴾: في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾: الكريمة الزكيَّة، بل النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فعلى كلِّ مسلم أن يفدي النبيَّ ﷺ بنفسه ويقدِّمَه عليها؛ فعلامة تعظيم الرسول ومحبَّته والإيمان التامِّ به أن لا يتخلَّفوا عنه. ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذٰلك بأنَّهم﴾؛ أي: المجاهدين في سبيل الله، ﴿لا يصيبُهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ﴾؛ أي: تعبٌ ومشقَّة، ﴿ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله﴾؛ أي: مجاعةٌ، ﴿ولا يطؤونَ موطئاً يَغيظُ الكفارَ﴾: من

الخَوْضِ لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿ولا ينالون من عَدُوٍّ نَيلاً﴾: كالظَّفَر بجيش أو سريَّة أو الغنيمة لمال، ﴿إلَّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ﴾: لأنَّ هٰذه آثار ناشئةٌ عن أعمالهم. ﴿إنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين﴾: الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله وقيامهم بما عليهم من حقِّه وحقِّ خلقه؛ فهٰذه الأعمالُ آثارٌ من آثار عملهم.

﴿١٢١﴾ ثم قال: ﴿ولا ينفقونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون وادياً﴾: في ذهابهم إلى عدوِّهم، ﴿إلا كُتِبَ لهم لِيَجْزِيَهم الله أحسنَ ما كانوا يعملون﴾: ومن ذٰلك هٰذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها.

ففي هٰذه الآيات أشدُّ ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقَّات، وأن ذٰلك لهم رِفْعَةُ درجاتٍ، وأن الآثار المترتِّبة على عمل العبد له فيها أجرٌ كبيرٌ.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافَّةً﴾؛ أي: جميعاً لقتال عدوهم؛ فإنه يحصُلُ عليهم المشقَّة بذٰلك، ويفوت[1] به كثيرٌ من المصالح الأخرى، ﴿فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقةٍ منهم﴾؛ أي: من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طائفةٌ﴾: تحصُلُ بها الكفاية والمقصودُ؛ لكان أولى.

ثم نبَّه على أنَّ في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالحَ لو خَرَجوا لفاتَتْهم، فقال: ﴿ليتفقَّهوا﴾؛ أي: القاعدون ﴿في الدِّين ولِيُنْذِروا قومَهم إذا رجعوا إليهم﴾؛ أي: ليتعلَّموا العلم الشرعيَّ، ويَعْلَموا معانيه، ويفقهوا أسراره، ولِيُعَلِّموا غيرهم، ولِيُنْذِروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هٰذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلَّم علماً؛ فعليه نشره وبثُّه في العباد ونصيحتهم فيه؛ فإن انتشار العلم عن العالم

---

(١) في (ب): «وتفوت».

من بركته وأجره الذي ينمي[١]، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوتِهِ إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهّال ما لا يعلمون؛ فأيُّ منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايتُه أن يموت فيموت علمُهُ وثمرته، وهٰذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علماً، ومَنَحَهُ فهماً.

وفي هٰذه الآية أيضاً دليلٌ وإرشادٌ وتنبيهٌ لطيف لفائدة مهمَّةٍ، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكلِّ مصلحةٍ من مصالحهم العامَّة مَن يقوم بها، ويوفِّر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتمَّ منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرَّقت الطرق وتعدَّدت المشارب؛ فالأعمال متباينةٌ، والقصد واحدٌ، وهٰذه من الحكمة العامَّة النافعة في جميع الأمور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ وهٰذا أيضاً إرشادٌ آخر: بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال؛ أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار والغلظة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات. ﴿واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين﴾؛ أي: وليكنْ لديكم علمٌ أن المعونة من الله تنزِلُ بحسب التقوى؛ فلازموا على تقوى الله؛ يُعِنْكم وينصُرْكم على عدوِّكم. وهٰذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾: مخصوصٌ بما إذا كانت المصلحةُ في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًّا.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى مُبيِّناً حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن وتفاوُتَ ما بين الفريقين، فقال: ﴿وإذا ما أنزِلَتْ سورة﴾: فيها الأمر والنهي والخبر

---

(١) في (ب): «الذي ينمى له».

عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحثُّ على الجهاد. ﴿فمنهم من يقولُ أيُّكم زادتْه هذه إيماناً﴾؛ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمانُ بها من الطائفتين. قال تعالى مبيِّناً الحال الواقعة: ﴿فأما الذين آمنوا فزادَتْهم إيماناً﴾: بالعلم بها وفهمها واعتقادِها والعمل بها والرغبةِ في فعل الخير والانكفافِ عن فعل الشرِّ. ﴿وهم يستبشرونَ﴾؛ أي: يبشِّر بعضُهم بعضاً بما منَّ الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهٰذا دالٌّ على انشراح صدورهم لآيات اللّه، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثُّهم عليه.

﴿١٢٥﴾ ﴿وأما الذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ ونفاق، ﴿فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهم﴾؛ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشَكًّا إلى شكِّهم؛ من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضُهم، وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾، وهٰذا عقوبةٌ لهم لأنَّهم كفروا بآيات اللّه، وعصوا رسوله، فأعقَبَهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَه.

﴿١٢٦﴾ قال تعالى موبِّخاً على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق: ﴿أوَلا يَرَوْن أنَّهم يُفتنون في كلِّ عام مرَّةً أو مرَّتين﴾: بما يصيبُهم من البلايا والأمراض، وبما يُبْتَلَون من الأوامر الإلٰهيَّة التي يُراد بها اختبارهم، ﴿ثم لا يتوبون﴾: عمّا هم عليه من الشرِّ، ﴿ولا هم يَذَّكَّرون﴾: ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه؛ فاللّه تعالى يبتليهم كما هي سنَّته في سائر الأمم بالسرَّاء والضرَّاء وبالأوامر والنواهي ليرجِعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يَذَّكَّرون.

وفي هٰذه الآيات دليل على أنَّ الإيمان يزيدُ وينقُص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقَّد إيمانه، ويتعاهده، فيجدِّده، ويُنَمِّيه، ليكونَ دائماً في صعود.

وقوله:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم. إذا نَزَلَتْ سورةٌ ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها، ﴿نَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ﴾: جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكُم مِن أحدٍ ثم انصرفوا﴾: متسلِّلين وانقلبوا

معرضين، فجازاهم اللّه بعقوبةٍ من جنس عملهم؛ فكما انصرفوا عن العمل؛ ﴿صَرَفَ اللّه قلوبَهم﴾؛ أي: صدَّها عن الحقِّ وخذلها، ﴿بأنَّهم قومٌ لا يفقهون﴾: فقهاً ينفعهم؛ فإنَّهم لو فقهوا؛ لكانوا إذا نزلت سورةٌ آمنوا بها وانقادوا لأمرها. والمقصودُ من هٰذا بيانُ شدَّة نفورهم عن الجهادِ وغيره من شرائع الإيمان؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزِلَتْ سورةٌ محكَمَةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المغشيِّ عليه من الموتِ﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿١٢٨﴾ يمتنُّ تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبيَّ الأميَّ، الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكَّنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النُّصح لهم والسعي في مصالحهم. ﴿عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم﴾؛ أي: يَشُقُّ عليه الأمر الذي يَشُقُّ عليكم ويُعْنِتُكم. ﴿حريصٌ عليكم﴾: فيحبُّ لكم الخير، ويسعى جهدَه في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشرَّ، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهٰذا كان حقُّه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره[١].

﴿١٢٩﴾ ﴿فإن﴾ آمنوا؛ فذٰلك حظُّهم وتوفيقهم، وإن ﴿تولَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل؛ فامضِ على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل: ﴿حسبيَ اللّه﴾؛ أي: اللّه كافِيَّ في جميع ما أهمني. ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود بحقٍّ سواه. ﴿عليه توكلتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضرُّ. ﴿وهو ربُّ العرش العظيم﴾: الذي هو أعظم المخلوقات، وإذا كان ربَّ العرش العظيم الذي وسع المخلوقات؛ كان ربًّا لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون اللّه ومَنِّه. فلله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

---

(١) في (ب): «وتعزيزه وتوقيره».

تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿الٓر تلك آياتُ الكتاب الحكيم﴾: وهو هٰذا القرآنُ، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالَّةُ آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعيَّة، الذي على جميع الأمة تلقِّيه بالرِّضا والقَبول والانقياد.

﴿٢﴾ ومع هٰذا؛ فأعرض أكثرهُم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أن أوْحَينا إلى رجل منهم أن أنذِرِ الناس﴾: عذابَ اللّه، وخوِّفهم نِقَمَ اللّه، وذكِّرهم بآيات اللّه، ﴿وبشِّر الذين آمنوا﴾: إيماناً صادقاً ﴿أنَّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربِّهم﴾؛ أي: لهم جزاء موفر وثوابٌ مذخور عند ربِّهم بما قدَّموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة، فتعجَّب الكافرون من هٰذا الرجل العظيم تعجُّباً حملهم على الكفر به! فـ﴿قال الكافرون﴾ عنه: ﴿إنَّ هٰذا لَساحرٌ مُبينٌ﴾؛ أي: بيِّن السحر، لا يَخْفى بزعمهم على أحدٍ، وهٰذا مِن سَفَهِهم وعنادهم؛ فإنَّهم تعجَّبوا من أمر ليس مما يُتَعَجَّب منه ويُستغرب، وإنما يُتَعَجَّب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم؛ كيف لم يؤمنوا بهٰذا الرسول الكريم الذي بَعَثَهُ اللّه من أنفسهم؛ يعرفونه حقَّ المعرفة، فردُّوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه؟! واللّه متمُّ نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٣﴾ يقول تعالى مبيناً لربوبيَّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ وعظمتِهِ: ﴿إنَّ ربَّكم اللّه الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرض في ستَّة أيام﴾: مع أنه قادرٌ على خلقها في لحظة واحدة، ولٰكن لما له في ذٰلك من الحكمة الإلٰهية، ولأنَّه رفيقٌ في أفعاله، ومن جملة حكمته فيها أنَّه خلقها بالحقِّ وللحقِّ؛ ليُعْرَفَ بأسمائه وصفاته، ويُفْرَدَ بالعبادة. ﴿ثم﴾: بعد خَلْق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾: استواءً يليقُ بعظمتِهِ ﴿يدبِّرُ

الأمرَ﴾: في العالم العلويّ والسفليّ؛ من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضُّرِّ عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين؛ فأنواع التدابير نازلةٌ منه وصاعدةٌ إليه، وجميع الخلق مذعِنون لعزِّه خاضعون لعظمته وسلطانه. **﴿ما من شفيع إلَّا من بعد إذنِهِ﴾**: فلا يُقْدِمُ أحدٌ منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذنُ إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. **﴿ذٰلكم﴾**: الذي هٰذا شأنه **﴿الله ربُّكم﴾**؛ أي: هو الله الذي له وصفُ الإلهيَّة الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبيَّة الجامع لصفات الأفعال. **﴿فاعبُدوه﴾**؛ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبوديَّة. **﴿أفلا تذَكَّرونَ﴾**: الأدلَّة الدالَّة على أنه وحده المعبودُ المحمودُ ذو الجلال والإكرام.

﴿٤﴾ فلما ذكر حكمه القدريَّ، وهو التدبيرُ العامُّ، وحكمَهُ الدينيَّ، وهو شرعه الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له؛ ذكر الحكمَ الجزائيَّ، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: **﴿إليه مرجِعُكم جميعاً﴾**؛ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقاتِ يوم معلوم. **﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيدُه﴾**: فالقادر على ابتداء الخلق قادرٌ على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكِرُ إعادته للخلق؛ فهو فاقدُ العقل، منكرٌ لأحد المثلين؛ مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهٰذا دليلٌ عقليٌّ واضحٌ على المعاد. ثم ذكر الدليل النقليَّ، فقال[1]: **﴿وَعْدَ الله حقًّا﴾**؛ أي: وعدُه صادِقٌ لا بُدَّ من إتمامه، **﴿ليجزِيَ الذين آمنوا﴾**: بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به، **﴿وعملوا الصالحاتِ﴾**: بجوارِحِهم من واجباتٍ ومستحبَّاتٍ **﴿بالقِسْطِ﴾**؛ أي: بإيمانهم وأعمالهم جزاءً قد بيَّنه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ. **﴿والذين كفروا﴾**: بآيات الله، وكذَّبوا رسل الله **﴿لهم شرابٌ من حميم﴾**؛ أي: ماء حارٌّ يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، **﴿وعذابٌ أليمٌ﴾**: من سائر أصناف العذاب، **﴿بما كانوا يكفُرون﴾**؛ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظَلَمَهُمُ الله ولكن أنفُسَهم يظلِمون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥ ـ ٦﴾ لما قرَّر ربوبيَّته وإلٰهيَّته؛ ذكر الأدلة العقليَّة الأفقيَّة الدالَّة على ذٰلك

---

(١) كذا في النسختين؛ جعل تفسير قوله: «وعد الله حقاً» بعد تفسير قوله: «إنه يبدأ الخلق ثم يعيده».

وعلى كماله في أسمائه وصفاته؛ من الشمس والقمر والسماوات والأرض: وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آياتٌ ﴿لقوم يعلمون﴾ و ﴿لقوم يتَّقون﴾؛ فإنَّ العلم يهدي إلى معرفة الدِّلالة فيها وكيفيَّة استنباط الدلائل[١] على أقرب وجه، والتقوى تُحْدِثُ في القلب الرغبة في الخير والرهبة من الشرِّ، الناشِئَيْن عن الأدلَّة والبراهين وعن العلم واليقين.

وحاصل ذٰلك أنَّ مجرَّد خلق هٰذه المخلوقات بهٰذه الصفة دالٌّ على كمال قدرة اللّه تعالى وعلمه وحياته وقيُّوميته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحُسْن دالٌّ على كمال حكمة اللّه وحسن خَلْقه وسعة علمِهِ، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح ـ كجَعْل الشمسِ ضياءً والقمر نوراً يحصل بهما من النفع الضروريِّ وغيره مما[٢] يحصُلُ ـ يدلُّ ذٰلك على رحمة اللّه تعالى واعتنائه بعبادِهِ وسَعَة برِّه وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دالٌّ على مشيئة اللّه وإرادته النافذة، وذٰلك دالٌّ على أنه وحده المعبودُ المحبوبُ المحمودُ ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبةُ والرهبةُ إلا إليه، ولا يُصْرَفُ خالصُ الدُّعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقِرات إلى اللّه في جميع شؤونها.

وفي هٰذه الآيات الحثُّ والترغيب على التفكر في مخلوقات اللّه والنظر فيها بعين الاعتبار؛ فإنَّ بذٰلك تنفسح[٣] البصيرة ويزدادُ الإيمان والعقل وتقوى القريحة، وفي إهمال ذٰلك تهاونٌ بما أمر اللّه به، وإغلاقٌ لزيادة الإيمان، وجمودٌ للذهن والقريحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾.

﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾؛ أي: لا يطمعون بلقاء اللّه، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمَّله المؤمِّلون، بل أعرضوا عن ذٰلك، وربَّما كذَّبوا به، ﴿ورضوا بالحياة الدُّنيا﴾: بدلاً عن الآخرة، ﴿واطمأنُّوا بها﴾؛ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية أمرهم[٤] ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبُّوا على لَذَّاتها وشهواتها؛ بأيِّ طريقٍ حصلتْ حصَّلوها، ومن أيِّ وجه لاحتِ ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونيَّاتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنَّهم خُلِقوا

---

(١) في (ب): «الدليل».
(٢) في (ب): «ما».
(٣) في (ب): «تنفتح».
(٤) في (ب): «مرامهم».

للبقاء فيها، وكأنَّها ليست بدارٍ[١] مَمَرٍّ يتزوَّد فيها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذَّاتها شمَّر الموفَّقون. ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾: فلا ينتفعون بالآيات القرآنيَّة ولا بالآيات الأفقيَّة والنفسيَّة، والإعراضُ عن الدليل مستلزمٌ للإعراض والغفلة عن المدلول المقصودِ.

﴿٨﴾ ﴿أولئك﴾: الذين هٰذا وصفُهم، ﴿مأواهُمُ النار﴾؛ أي: مقرُّهم ومسكنُهم التي لا يرحلون عنها؛ ﴿بما كانوا يكسِبون﴾: من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

فلما ذكر عقابهم؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة. ﴿يهديهم ربُّهم بإيمانهم﴾؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يُثيبهم اللّٰه أعظم الثواب، وهو الهداية، فيُعَلِّمهم ما ينفعهم، ويَمُنُّ عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هٰذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهٰذا قال: ﴿تجري من تحتِهِمُ الأنهارُ﴾: الجارية على الدوام. ﴿في جنات النعيم﴾: أضافها اللّٰه إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التامِّ؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمٰن وسماع كلامه والاغتباط برضاه وقربه ولقاء الأحبَّة والإخوان والتمتُّع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات والنغمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذٰلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحدٍ، أو قدر أن يصِفَه الواصفون.

﴿١٠﴾ ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهمَّ﴾؛ أي: عبادتهم فيها للّٰه أولها تسبيحٌ للّٰه وتنزيهٌ له عن النقائص، وآخرها تحميدٌ للّٰه؛ فالتكاليف سقطت عنهم في دار

---

(١) في (ب): «دار».

الجزاء، وإنما بقي لهم أكملُ اللَّذَّات، الذي هو ألذُّ عليهم من المآكل اللَّذيذة، ألا وهو ذِكْرُ اللّه الذي تطمئنُّ به القلوب وتفرحُ به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس من دون كلفةٍ ومشقَّةٍ. ﴿و﴾ أما تحيَّتُهم فيما بينَهم عند التلاقي والتَّزاور؛ فهو السلامُ؛ أي: كلامٌ سالمٌ من اللغو والإثم، موصوفٌ بأنه ﴿سلامٌ﴾. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهُم فيها سبحانك [اللهمّ]. . . ﴾ إلى آخر الآية: إن أهل الجنة إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما؛ قالوا: سبحانك اللهمَّ! فَأُحْضِرَ لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمدُ للّه ربِّ العالمين﴾.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهٰذا من لطفه وإحسانه بعباده: أنَّه لو عجَّل لهم الشرَّ إذا أتَوْا بأسبابه وبادَرهم بالعقوبة على ذٰلك كما يعجِّل لهم الخير إذا أَتَوْا بأسبابه؛ ﴿لَقُضِيَ إليهم أجلُهم﴾؛ أي: لمحقتهم العقوبة، ولٰكنه تعالى يمهِلُهم ولا يهملهم ويعفو عن كثيرٍ من حقوقه؛ فلو يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم؛ ما ترك على ظهرها من دابَّة، ويدخل في هٰذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربَّما دعا عليهم دعوةً لو قُبِلَتْ منه؛ لهلكوا ولأضرَّه ذٰلك غاية الضرر، ولٰكنَّه تعالى حليمٌ حكيمٌ. وقوله: ﴿فَنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذٰلك لا يستعدُّون لها ولا يعملون ما يُنجيهم من عذاب اللّه، ﴿في طغيانِهم﴾؛ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحقَّ والحدَّ ﴿يعمهون﴾: يتردَّدون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفَّقون لأقوم دليل، وذٰلك عقوبة لهم[1] على ظلمهم وكفرهم بآيات اللّه.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ وهٰذا إخبارٌ عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنَّه إذا مسَّه ضرٌّ من مرض أو مصيبة؛ اجتهد في الدعاء، وسأل اللّه في جميع أحواله؛ قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألحَّ في الدعاء؛ ليكشف اللّه عنه ضرَّه، ﴿فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مسَّه﴾؛ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربِّه كأنه ما جاءه

---

(١) في (ب): «منه».

ضرٌّ فكشفه الله عنه؛ فأيُّ ظلم أعظم من هٰذا الظلم؛ يطلب من الله قضاء غرضه؛ فإذا أناله إياه؛ لم ينظرْ إلى حقِّ ربِّه؛ وكأنه ليس عليه لله حقٌّ؟! وهٰذا تزيينٌ من الشيطان زيَّن له ما كان مستهجناً مستقبحاً في العقول والفطر، ﴿كذلك زُيِّن للمسرفين﴾؛ أي: المتجاوزين للحدِّ ﴿ما كانوا يعملون﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البيناتُ على أيدي الرسل[(١)] تبيَّن الحقّ، فلم ينقادوا لها، ولم يؤمنوا، فأحلَّ بهم عقابه الذي لا يُرَدُّ عن كلِّ مجرم متجرِّىء على محارم الله، وهٰذه سنته في جميع الأمم.

﴿١٤﴾ ﴿ثم جعلناكم﴾؛ أي: المخاطبون ﴿خلائفَ في الأرض من بعدِهِم لننظر كيف تعملون﴾؛ فإن أنتم اعتبرتُم، واتَّعظتم بمن قبلكم، واتَّبعتم آيات الله، وصدَّقتم رسله؛ نجوتُم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتُم كفعل الظالمين قبلكم؛ أحلَّ بكم ما أحلَّ بهم، ومَنْ أنذرَ فقد أعذرَ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٥﴾ يذكر تعالى تعنُّت المكذِّبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تُتلى عليهم آيات الله القرآنية المبيِّنة للحقِّ؛ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنُّت، فقالوا جراءة منهم وظلماً: ﴿ائت بقرآنٍ غير هٰذا أو بدِّله﴾: فقبَّحهم الله؛ ما أجرأهم على الله وأشدَّهم ظلماً وردًّا لآياته! فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل

(١) في (ب): «رسله».

ما يكون لي﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يَليقُ ﴿أن أبدِّلَه من تلقاء نفسي﴾؛ فإني رسولٌ محضٌ، ليس لي من الأمر شيء. ﴿إنْ أتَّبعُ إلا ما يوحى إليَّ﴾؛ أي: ليس لي غير ذٰلك؛ فإني عبدٌ مأمور، ﴿إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يوم عظيم﴾: فهٰذا قولُ خير الخلق وأدبُه مع أوامر ربِّه ووحيه؛ فكيف بهٰؤلاء السفهاء الضالِّين الذين جمعوا بين الجهل والضَّلال والظُّلم والعناد والتعنُّت والتعجيز لربِّ العالمين؛ أفلا يخافون عذابَ يوم عظيم؟! فإن زعموا أنَّ قصدهم أن يتبيَّن لهم الحقُّ بالآيات التي طلبوا؛ فهم كَذَبة في ذٰلك؛ فإنَّ الله قد بيَّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرِّفها كيف يشاء؛ تابعاً لحكمته الربانيَّة ورحمته بعباده.

﴿١٦﴾ ﴿قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولا أدراكم به فقد لبِثْتُ فيكم عُمُراً﴾ طويلاً ﴿من قبله﴾؛ أي: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خَطَر على بالي ولا وقع في ظني. ﴿أفلا تعقلونَ﴾: أنِّي حيث لم أتقوَّله في مدة عمري، ولا صَدَر مني ما يدلُّ على ذٰلك؛ فكيف أتقوَّله بعد ذٰلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، بأني أميٌّ لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس، ولا أتعلَّم من أحدٍ، فأتيتُكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء وأعيا العلماء؛ فهل يمكن مع هٰذا أن يكون من تلقاء نفسي؟! أم هٰذا دليلٌ قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبَّرتم حالي وحال هٰذا الكتاب؛ لجزمتم جزماً لا يقبل الرَّيْب بصدقِهِ، وأنَّه الحقُّ الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذاً[1] أبيتم إلا التكذيب والعناد؛ فأنتم لا شكَّ أنكم ظالمون.

﴿١٧﴾ و ﴿منْ أظلمُ ممَّن افترى على الله كَذِباً أو كَذَّبَ بآياتِهِ﴾؛ فلو كنتُ متقوِّلاً؛ لكنتُ أظلم الناس، وفاتني الفلاحُ، ولم تَخْفَ عليكم حالي، ولٰكني جئتُكم بآيات الله، فكذَّبْتم بها، فتعيَّن فيكم الظُّلم، ولا بدَّ أن أمركم سيضمحلُّ ولن تنالوا الفلاح ما دمتُم كذٰلك. ودلَّ قوله: ﴿قال الذينَ لا يرجونَ لقاءنا...﴾ الآية: أنَّ الذي حَمَلَهم على هٰذا التعنُّت الذي صدر منهم هو عدمُ إيمانهم بلقاء الله وعدمُ رجائه وأنَّ مَن آمن بلقاء الله؛ فلا بدَّ أن ينقادَ لهٰذا الكتاب ويؤمنَ به، لأنَّه حسن القصد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ

(١) في (ب): «إذ».

﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويعبُدون﴾؛ أي: المشركون المكذِّبون لرسول الله ﷺ ﴿من دونِ الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم﴾؛ أي: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئاً ﴿ويقولون﴾: قولاً خالياً من البرهان: ﴿هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾؛ أي: يعبدونهم ليقرِّبوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، وهٰذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلامٌ ابتكروه هم، ولهٰذا قال مبطلاً لهٰذا القول: ﴿قل أتنبِّئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض﴾؛ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريكٌ ولا إلٰه معه؛ فأنتم يا معشر المشركين تزعُمون أنه يوجد له فيها شركاء، أفتخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟! أأنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قولٌ أبطلُ من هٰذا القول المتضمِّن أن هٰؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟! فليكتف العاقلُ بمجرَّد تصوُّر هٰذا القول؛ فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركونَ﴾؛ أي: تقدَّس وتنزَّه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لا إلٰه في السماوات والأرض إلا هو، وكلُّ معبودٍ في العالم العلويِّ والسفليِّ سواه فإنه باطلٌ عقلاً وشرعاً وفطرةً، ﴿ذٰلك بأنَّ الله هو الحقُّ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأنَّ الله هو العليُّ الكبيرُ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمَّةً واحدةً﴾: متفقين على الدين الصحيح، ولٰكنهم اختلفوا، ﴿فبعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾. ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربِّك﴾: بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لَقُضِيَ بينهم﴾: بأن ننجِّي المؤمنين ونهلك الكافرين المكذِّبين، وصار هٰذا فارقاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾، ولٰكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبيَّن الصادق من الكاذب.

﴿٢٠﴾ ﴿ويقولون﴾؛ أي: المكذبون المتعنِّتون: ﴿لولا أنزلَ عليه آيةٌ من ربِّه﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعيِّنونها؛ كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه

نذيرًا. . .﴾ الآيات، وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنبوعاً. . .﴾ الآيات. ﴿فقل﴾: لهم إذا طلبوا منك آيةً: ﴿إنما الغيبُ للّه﴾؛ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبِّرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحدٍ تدبيرٌ في حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل. ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾؛ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهلٌ له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أذقْنا الناس رحمةً من بعد ضرَّاء مسَّتهم﴾: كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضرَّاء، ولم يشكروا اللّه على الرخاء والرحمة، بل استمرُّوا في طغيانهم ومكرهم، ولهٰذا قال: ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾؛ أي: يسعَوْن بالباطل ليبطلوا به الحق. ﴿قل اللّهُ أسرعُ مكراً﴾: فإنَّ المكرَ السيىء لا يحيق إلا بأهله؛ فمقصودهم منعكسٌ عليهم، ولم يسلموا من التَّبِعَة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه اللّه عليهم، ثم يجازيهم اللّه عليه أوفر الجزاء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضرَّاء واليُسر بعد العسر؛ ذكَرَ حالةً تؤيِّد ذٰلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكم في البرِّ والبحر﴾: بما يسَّر لكم من الأسباب المسيِّرة لكم فيها وهداكم إليها. ﴿حتى إذا كنتُم في الفُلك﴾؛ أي: السفن البحريَّة، ﴿وجَرَيْنَ بهم بريح طيِّبة﴾: موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقَّة، ﴿وفرحوا بها﴾: واطمأنُّوا إليها؛ فبينما هم كذٰلك؛ إذ جاءتهم ﴿ريحٌ عاصفٌ﴾: شديدة الهبوب، ﴿وجاءهُم الموجُ من كلِّ مكان وظنُّوا أنهم أحيطَ بهم﴾؛ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلُّقهم بالمخلوقين،

وعرفوا أنه لا يُنجيهم من هٰذه الشدَّة إلا اللّه وحده، فدعوه ﴿مخلصين له الدين﴾: ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئنْ أنجَيْتَنا من هٰذه لنكوننَّ من الشاكرينَ. فلما أنجاهم إذا هم يبغونَ في الأرض بغير الحقِّ﴾؛ أي: نسوا تلك الشدة وذٰلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا باللّه مَن اعترفوا أنه لا يُنجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق؛ فهلا أخلصوا للّه العبادة في الرخاء كما أخلصوه في الشدة؟! ولكنَّ هٰذا البغي يعود وَبالُه عليهم، ولهٰذا قال: ﴿يا أيُّها الناس إنَّما بغيكم على أنفسكم متاعَ الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: غاية ما تؤمِّلون ببغيكم وشرودكم عن الإخلاص للّه أن تنالوا شيئاً من حُطام الدُّنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعاً ويمضي جميعاً ثم تنتقلون عنه بالرغم. ﴿ثم إلينا مرجِعُكم﴾: في يوم القيامة، ﴿فننبِّئُكم بما كنتُم تعملونَ﴾: وفي هٰذا غايةُ التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ وهٰذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابقٌ لحالة الدنيا؛ فإنَّ لذَّاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذٰلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً؛ فإذا استكمل وتمَّ؛ اضمحلَّ وزال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه، فأصبح صِفْرَ اليدين منها، ممتلىء القلب من همِّها وحزنها وحسرتها؛ فذٰلك ﴿كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض﴾؛ أي: نبت فيها من كل صنفٍ وزوج بهيج، ﴿مما يأكلُ الناس﴾: كالحبوب والثمار، ﴿و﴾ مما تأكل ﴿الأنعامُ﴾: كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف. ﴿حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخرُفَها وازَّيَّنَتْ﴾؛ أي: تزخرفت في منظرها واكتست في زينتها فصارت بهجةً للناظرين ونزهةً للمتفرِّجين وآيةً للمتبصِّرين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره. ﴿وظنَّ أهلُها أنَّهم قادرون عليها﴾؛ أي: حصل معهم طمعٌ بأن ذٰلك سيستمرُّ ويدوم لوقوف إرادتهم[1] عنده وانتهاء مطالبهم فيه؛ فبينما هم في تلك الحالة؛ أتاها أَمْرُ اللّهِ ﴿ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس﴾؛ أي: كأنها ما كانت، فهٰذه حالة

(١) في (ب): «إراداتهم».

الدُّنيا سواء بسواء. ﴿كذٰلك نفصِّل الآيات﴾؛ أي: نبيِّنُها ونوضِّحها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال، ﴿لقوم يتفكَّرون﴾؛ أي: يُعْمِلونَ أفكارهم فيما ينفعهم، وأما الغافل المعرضُ؛ فهٰذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيلُ عنه الشكَّ البيانُ.

ولما ذكر الله حال الدُّنيا وحاصل نعيمها؛ شوَّق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥﴾ عمَّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحثِّ على ذٰلك والترغيب، وخصَّ بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه؛ فهٰذا فضلُه وإحسانُه، والله يختصُّ برحمته من يشاءُ، وذٰلك عدلُه وحكمته، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذٰلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه وحسنه من كلِّ وجه.

﴿٢٦﴾ ولما دعا إلى دار السلام؛ كأن النفوس تشوَّقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحُسنى وزيادةٌ﴾؛ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأنْ عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديَّته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القوليِّ والفعليِّ: من بذل الإحسان الماليِّ والإحسان البدنيِّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذٰلك من وجوه البرِّ والإحسان؛ فهٰؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنى، وهي الجنة الكاملة في حسنها، وزيادةٌ، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه ،والفوز برضاه، والبهجة بقربه؛ فبهٰذا حصل لهم أعلى ما يتمنَّاه المتمنُّون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال: ﴿ولا يَرْهَقُ وجوهَهم قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا ينالهم مكروهٌ بوجه من الوجوه؛ لأنَّ المكروه إذا وقع بالإنسان؛ تبيَّن ذٰلك في وجهه وتغيُّر وتكدُّر. وأما هٰؤلاء؛ فكما قال الله[1] عنهم: ﴿تعرِفُ في وجوههم نَضْرَةَ النعيم﴾، أولٰئك أصحاب الجنة الملازمون لها هم فيها خالدون، لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيَّرون.

---

(١) في (ب): «فهُم كما قال الله».

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ لما ذكر أصحاب الجنة؛ ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المُسْخِطَة للّه من أنواع الكفر والتَّكذيب وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئةٌ مثلها؛ أي: جزاء يسؤوهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم، ﴿وترهَقُهم﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾: في قلوبهم وخوفٌ من عذاب اللّه لا يدفعه عنهم دافعٌ ولا يعصِمُهم منه عاصِمٌ، وتسري تلك الذِّلَّة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في وجوههم[1]. ﴿كأنَّما أغْشِيَتْ وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدونَ﴾: فكم بين الفريقين من الفَرْقِ! ويا بُعْدَ ما بينهما من التفاوت! ﴿وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ. إلى ربِّها ناظِرَةٌ. ووجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ. تَظُنُّ أنْ يُفعَلَ بها فاقرةٌ﴾، ﴿وجوهٌ يومئذٍ مسفرةٌ. ضاحكةٌ مستبشرةٌ. ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ. ترهَقُها قَتَرَةٌ. أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم نَحْشُرُهم جميعاً﴾؛ أي: نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضِرُ المشركين وما كانوا يعبدون من دون اللّه، ﴿ثم نقولُ للذين أشركوا مكانَكم أنتم وشركاؤكم﴾؛ أي: الْزَموا مكانكم ليقعَ التَّحاكمُ والفَصْلُ بينكم وبينهم، ﴿فَزَيَّلْنا بينَهم﴾؛ أي: فرَّقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، فحصلت[2] بينَهم العداوةُ الشديدةُ بعد أن بَذَلوا لهم في الدُّنيا خالص المحبَّة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبَّة والولاية بغضاً وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتُم إيَّانا تعبدونَ﴾: فإننا ننزِّه اللّه أن يكون له شريكٌ أو نديدٌ.

﴿٢٩﴾ ﴿فكفى باللّه شهيداً بيننا وبينكم إن كُنَّا عن عبادتكم لَغافلين﴾: ما

---

(١) في (ب): «الوجوه».
(٢) في (ب): «وحصلت».

أمرناكم بها ولا دعوناكم لذٰلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذٰلك، وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿ألم أعْهَدْ إليكم يا بني آدمَ أن لا تعبُدوا الشيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ﴾، وقال: ﴿ويومَ يحشُرُهم جميعاً ثم يقولُ للملائكة أهٰؤلاءِ إيَّاكم كانوا يعبدُونَ. قالوا سبحانَكَ أنت وَلِيُّنا من دونِهم بل كانوا يعبُدونَ الجِنَّ أكثرُهُم بهم مؤمنونَ﴾: فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممَّن عبدهم يوم القيامة، ويتنصَّلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارُّون في ذٰلك.

﴿٣٠﴾ فحينئذٍ يتحسَّر المشركون حسرةً لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدَّموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبيَّن لهم يومئذٍ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلَّت عبادتهم واضمحلَّت معبوداتهم وتقطَّعت بهم الأسباب والوسائل، ولهٰذا قال: ﴿هنالك﴾؛ أي: في ذٰلك اليوم، ﴿تَبْلو كلُّ نفس ما أسلفتْ﴾: أي: تتفقَّد أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونَ﴾: من قولهم بصحَّة ما هم عليه من الشرك، وأنَّ ما يعبدون من دون الله تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: قل لهٰؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزِّلْ به سلطاناً محتجًّا عليهم بما أقرُّوا به من توحيد الرُّبوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهٰية: ﴿قُلْ من يرزُقكم من السماء والأرض﴾: بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها. ﴿أم من يملِكُ السمع والأبصار﴾؛ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصَّهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿ومن يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت﴾؛ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنَّوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة... ونحو ذٰلك، ﴿ويخرِجُ الميِّتَ من الحيِّ﴾: عكس هٰذه المذكورات. ﴿ومن يدبِّر الأمرَ﴾: في العالم العلويِّ والسفليِّ، وهٰذا شاملٌ لجميع أنواع التدابير الإلهٰيَّة؛ فإنك إذا سألتهم عن ذٰلك؛ ﴿فسيقولونَ اللهُ﴾: لأنهم يعترفون بجميع ذٰلك، وأنَّ الله لا

شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فقل﴾ لهم إلزاماً بالحجَّة: ﴿أفلا تتَّقون﴾: اللّه فتُخْلِصون له العبادة وحدَه لا شريك له، وتخلَعون ما تعبدُون من دونِهِ من الأنداد والأوثان.

﴿٣٢﴾ ﴿فذٰلِكم﴾: الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللّه ربُّكم﴾؛ أي: المألوه المعبود المحمود المربِّي جميع الخلق بالنِّعم، وهو ﴿الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ﴾: فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام. ﴿فأنَّى تُصْرَفون﴾: عن عبادة مَنْ هٰذا وصفُه إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم ولا يملِكُ لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً؛ فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجهٍ من الوجوه، ولا يشفع عند اللّه إلا بإذنه.

﴿٣٣﴾ فتبًّا لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به؛ لقد عَدِموا عقولَهم بعد أن عَدِموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿كذٰلك حقَّت كلمةُ ربِّك على الذين فَسَقوا أنَّهم لا يؤمنون﴾: بعد أن[1] أراهم اللّه من الآيات البيِّنات والبراهين النيِّرات ما فيه عبرةٌ لأولي الألباب وموعظةٌ للمتَّقين وهدىً للعالمين.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى مبيِّناً عجز آلهة المشركين وعدم اتِّصافها بما يوجب اتِّخاذها آلهةً مع اللّه: ﴿قل هل مِنْ شركائِكم مَن يَبْدَأ الخلقَ﴾؛ أي: يبتديه، ﴿ثم يُعيده﴾: وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحدٌ يبدأ الخلق ثم يعيدُه، وهي أضعف من ذٰلك وأعجزُ، ﴿قل اللّه يبدأ الخَلْق ثم يُعيده﴾: من غير مشاركٍ ولا معاونٍ له على ذٰلك. ﴿فأنَّى تؤفَكون﴾؛ أي: تصرفون وتُحرفون عن عبادة المنفرد

---

(١) في (ب): «بَعْدَما».

بالابتداء والإعادة إلى عبادة مَنْ لا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخلَقون.

﴿٣٥﴾ ﴿قل هل من شركائِكُم من يَهْدي إلى الحقِّ﴾: ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه، ﴿قل اللّهُ﴾: وحده ﴿يَهْدي﴾: إلى الحقِّ بالأدلَّة والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. ﴿أمَّنْ لا يَهِدِّي﴾؛ أي: لا يهتدي ﴿إلَّا أن يُهْدى﴾: لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهدى. ﴿فما لكم كيف تحكُمون﴾؛ أي: أيُّ شيء جعلكم تحكمون هٰذا الحكم الباطل بصحَّة عبادة أحدٍ مع اللّه بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحقُّ العبادة إلا اللّه وحدَه؟! فإذا تبيَّن أنه ليس في آلهتهم التي يعبُدون مع اللّه أوصافٌ معنويَّة ولا أوصافٌ فعليَّة تقتضي أن تُعبد مع اللّه، بل هي متَّصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيَّتها؛ فلأيِّ شيء جُعِلتْ مع اللّه آلهة؟!

﴿٣٦﴾ فالجواب: إنَّ هٰذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبحَ البهتان وأضلَّ الضلال، حتى اعتقد ذٰلك، وألفه، وظنَّه حقًّا وهو لا شيء، ولهٰذا قال: ﴿وما يتَّبعُ الذين يدعون من دون اللّه شركاء﴾؛ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء للّه؛ فإنه ليس للّه شريكٌ أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنَّما يتَّبِعون الظَّنَّ، و ﴿إنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً﴾: فسمَّوها آلهة وعبدوها مع اللّه؛ ﴿إن هي إلا أسماءٌ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللّه بها من سلطانٍ﴾. ﴿إنَّ اللّه عليمٌ بما يفعلون﴾: وسيجازيهم على ذٰلك بالعقوبة البليغة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هٰذا القرآن أن يُفتَرى من دون اللّه﴾؛ أي: غير ممكن ولا متصوَّر أن يُفترى هٰذا القرآن على اللّه [تعالى]؛ لأنه الكتابُ العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله لا يأتونَ بمثله ولو كان

بعضُهم لبعض ظهيراً، وهو الكتاب[١] الذي تكلَّم به ربُّ العالمين؛ فكيف يقدِرُ أحدٌ من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!! فإن كان أحدٌ يماثل اللّهَ في عظمتِهِ وأوصاف كمالِهِ؛ أمكن أن يأتي بمثل هٰذا القرآن، ولو تنزَّلنا على الفرض والتقدير، فتقوَّله أحدٌ على ربِّ العالمين؛ لعاجله بالعقوبة وبادره بالنَّكال.

ولٰكنَّ اللّه أنزل هٰذا الكتاب رحمةً للعالمين وحجَّةً على العباد أجمعين، أنزله ﴿تصديقَ الذي بين يديه﴾: من كتب اللّه السماوية؛ بأن وافقَها وصدَّقها بما شهدت به وبشَّرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، ﴿وتفصيلَ الكتاب﴾: للحلال والحرام والأحكام الدينيَّة والقدريَّة والإخبارات الصادقة. ﴿لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين﴾؛ أي: لا شكَّ ولا مِرْيَةَ فيه بوجهٍ من الوجوه، بل هو الحقُّ اليقين، تنزيلٌ من ربِّ العالمين، الذي ربَّى جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزلَ عليهم هٰذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿٣٨﴾ ﴿أم يقولون﴾؛ أي: المكذِّبون به عناداً وبغياً: ﴿افتراه﴾: محمدٌ على اللّه واختلقه، ﴿قل﴾: لهم ملزماً لهم بشيءٍ، إن قدروا عليه؛ أمكن ما ادَّعوه، وإلَّا كان قولهم باطلاً: ﴿فأتوا بسورةٍ مثلِهِ وادْعوا مَنِ استطعتُم من دون اللّه إن كنتُم صادقينَ﴾: يعاونكم على الإتيان بسورةٍ مثله، وهٰذا محالٌ، ولو كان ممكناً؛ لادَّعوا قدرتهم على ذٰلك، ولأتوا بمثله، ولٰكنْ لما بانَ عجزُهم؛ تبيَّن أن ما قالوه باطلٌ، لا حظَّ له من الحجة.

﴿٣٩﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحقِّ الذي لا حقَّ فوقه أنَّهم لم يحيطوا به علماً؛ فلو أحاطوا به علماً وفهِموه حقَّ فهمِهِ؛ لأذعنوا بالتصديق به، وكذٰلك إلى الآن لم يأتهم تأويلُهُ الذي وعدهم أن يُنْزِلَ بهم العذابَ، ويُحِلَّ بهم النَّكالَ، وهٰذا التكذيب الصادرُ منهم من جنس تكذيب مَن قَبْلِهم، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك كذَّب الذين من قبلهم فانظُرْ كيف كان عاقبةُ الظالمينَ﴾: وهو الهلاك الذي لم يبقِ منهم أحداً؛ فليحذر هٰؤلاء أن يستمرُّوا على تكذيبهم، فيحلَّ بهم ما أحلَّ[٢] بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

---

(١) في (ب): «وهو كتاب الله».
(٢) في (ب): «حَلّ».

وفي هٰذا دليلٌ على التثبُّت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادِرَ بقَبول شيء أو ردِّه قبل أن يحيطَ به علماً.

﴿٤٠﴾ ﴿ومنهم مَن يؤمنُ به﴾؛ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمنُ به وربُّك أعلم بالمفسدين﴾: وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظُّلم والعناد والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشدِّ العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿وإن كَذَّبوكَ﴾: فاستمرَّ على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابِكَ عليهم من شيءٍ، لكلٍّ عمله. ﴿فقل لي عملي ولكم عمُلكم أنتم بريئون مما أعملُ وأنا بريٌ مما تعملون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسِهِ ومن أساء فَعلَيْها﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذِّبين للرسول ولما جاء به: ﴿و﴾ إنَّ ﴿منهم مَن يستمعون﴾: إلى النبيِّ ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرُّج والتكذيب وتطلُّب[1] العثرات، وهٰذا استماعٌ غير نافع ولا مجدٍ على أهله خيراً، لا جرم انسدَّ عليهم باب التوفيق وحرموا من فائدة الاستماع، ولهٰذا قال: ﴿أفأنت تُسمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون﴾: وهٰذا الاستفهام[2] بمعنى النفي المتقرِّر؛ أي: لا تُسمع الصمَّ الذين لا يستمعون القول ولو جهرتَ به، وخصوصاً إذا كان عقلُهم معدوماً؛ فإذا كان من المحال إسماع الأصمِّ الذي لا يعقل للكلام؛ فهٰؤلاء المكذِّبون كذٰلك ممتنعٌ إسماعك إيَّاهم إسماعاً ينتفعون به، وأما سماع[3] الحجة؛ فقد سمعوا ما تقومُ عليهم به حجَّة الله البالغة؛ فهٰذا طريقٌ عظيمٌ من طرق العلم قد انسدَّ عليهم، وهو **طريق المسموعات** المتعلِّقة بالخبر.

﴿٤٣﴾ ثم ذكر انسداد **الطريق الثاني**، وهو طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظرُ إليك﴾: فلا يفيدُه نظرُه إليك، ولا سَبَرَ أحوالك شيئاً فكما أنَّك لا تهدي العمي

---

(١) في (ب): «وتتطلُّب».

(٢) في (ب): «وهذا استفهام».

(٣) في (ب): «إسماع».

ولو كانوا لا يبصرون؛ فكذلك لا تهدي هؤلاء؛ فإذا فسدت عقولُهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق؛ فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟!

ودلَّ قوله: ﴿ومنهم من ينظُرُ إليك...﴾ الآية: أن النظر إلى حالة النبيِّ ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلَّة على صدقه وصحَّة ما جاء به، وأنَّه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿٤٤﴾ وقوله: ﴿إنَّ الله لا يظلِمُ الناس شيئاً﴾: فلا يزيدُ في سيِّئاتهم ولا يَنْقُص من حسناتهم، ﴿ولٰكنَّ الناس أنفسهم يَظْلِمونَ﴾: يجيئهم الحقُّ فلا يقبلونه، فيعاقِبُهم الله بعد ذٰلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريبَ فيه كأنَّهم ما لبثوا إلا ساعةً من نهار، وكأنَّه ما مرَّ عليهم نعيمٌ ولا بؤسٌ، وهم يتعارفون بينهم كحالهم في الدنيا؛ ففي هٰذا اليوم يربح المتَّقون، ويخسر ﴿الذين كذَّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ إلى الصراط المستقيم والدين القويم حيث فاتهم النعيمُ، واستحقُّوا دخول النار.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هٰؤلاء المكذِّبين، ولا تستعجلْ لهم؛ فإنهم لا بدَّ أن يصيبهم الذي نَعِدُهم من العذاب: إما في الدنيا فتراه بعينك وتَقَرُّ به نفسُك، وإما في الآخرة بعد الوفاء؛ فإنَّ مرجِعَهم إلى الله، وسينبِّئهم بما كانوا يعملون أحصاهُ [اللهُ] ونسوهُ، والله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ؛ ففيه الوعيد الشديد لهم والتسلية للرسول الذي كذَّبه قومُه وعاندوه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولكلِّ أمةٍ﴾: من الأمم الماضية ﴿رسولٌ﴾: يدعوهم إلى

توحيد اللّه ودينه. فإذا جاءهم ﴿رسولُهم﴾ بالآيات؛ صدَّقه بعضُهم وكذَّبه آخرون، فيقضي اللّه بينَهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين. ﴿وهم لا يُظْلَمونَ﴾: بأن يعذَّبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجَّة، أو يعذَّبوا بغير جرمهم.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ فليحذر المكذِّبون لك من مشابهة الأمم المهلَكين فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾: فإنَّ هٰذا ظلمٌ منهم؛ حيث طَلَبوه من النبيِّ ﷺ؛ فإنه ليس له من الأمر شيءٌ، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابُهم وإنزال العذاب عليهم؛ فمن اللّه تعالى، يُنزِّلُ[1] عليهم إذا جاء الأجلُ الذي أجَّله فيه والوقت الذي قدَّره فيه الموافقُ لحكمته الإلٰهية؛ فإذا جاء ذٰلك الوقت؛ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. فليحذرِ المكذِّبون من الاستعجال؛ فإنهم مستعجلون بعذاب اللّه الذي إذا نزل لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين. ولهٰذا قال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿قل أرأيتُم إن أتاكُم عذابُه بياتاً﴾: وقت نومكم بالليل، ﴿أو نهاراً﴾: في وقت غفلتكم، ﴿ماذا يَسْتَعْجِلُ منه المجرمون﴾؛ أي: أيَّ بشارة استعجلوا بها، وأيَّ عقاب ابتدروه؟

﴿٥١﴾ ﴿أثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به﴾: فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب اللّه، ويقال لهم توبيخاً وعتاباً في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون: ﴿آلآن﴾: تؤمنون في حال الشدَّة والمشقَّة، ﴿وقد كنتُم به تستعجلونَ﴾: فإنَّ سنة اللّه في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب؛ فإذا وقع العذابُ؛ لا ينفع نفساً إيمانُها؛ كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿قالَ آمنتُ أنَّه لا إلٰه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمينَ﴾، وأنَّه يُقال له: ﴿آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين﴾، وقال تعالى: ﴿فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا سُنَّةَ اللّه التي قد خَلَتْ في عبادِهِ﴾، وقال هنا: ﴿أثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به آلآنَ﴾: تدَّعون الإيمان[2]،

---

(١) في (ب): «يُنزِّله».

(٢) في (ب): «تُدْعونَ للإيمان».

﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾: فهٰذا ما عملت أيديكم، وهٰذا ما استعجلتم به.

﴿٥٢﴾ ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾: حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذوقوا عذابَ الخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يَفْتُرُ عنكم ساعة. ﴿هل تُجْزَوْنَ إلا بما كنتم تكسِبون﴾: من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ويستنبئونك أحقٌّ هو﴾؛ أي: يستخبرك المكذِّبون على وجه التعنُّت والعناد لا على وجه التبيُّن والاسترشاد[١]. ﴿أحقٌّ هو﴾؛ أي: أصحيح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ؟ ﴿قل﴾: لهم مقسماً على صحَّته مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إي وربِّي إنَّه لحقٌّ﴾: لا مِرْيَةَ فيه ولا شبهة تعتريه، ﴿وما أنتم بمعجِزين﴾: للّٰه أن يبعثكم؛ فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئاً؛ كذٰلك يعيدكم مرَّة أخرى ليجازِيَكم بأعمالكم.

﴿٥٤﴾ ﴿و﴾ إذا كانت القيامة، فلو ﴿أنَّ لكلِّ نفس ظلمتْ﴾: بالكفر والمعاصي جميع ﴿ما في الأرض﴾: من ذهب وفضَّة وغيرهما؛ لتفتدي به من عذاب اللّٰه، ﴿لافتدتْ به﴾: ولما نَفَعَها ذٰلك، وإنما النفع والضُّرُّ والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة، ﴿وأسرُّوا﴾؛ أي: الذين ظلموا، ﴿الندامةَ لما رأوا العذابَ﴾: ندموا على ما قدَّموا ولات حين مناص، ﴿وقُضِيَ بينهم بالقِسْطِ﴾؛ أي: العدل التامِّ الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿٥٥﴾ ﴿ألا إن للّٰه ما في السمٰوات والأرض﴾: يحكم فيهم بحكمه الدينيِّ والقَدَريِّ، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائيِّ، ولهٰذا قال: ﴿ألا إنَّ وعدَ اللّٰه حقٌّ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فلذٰلك لا يستعدُّون للقاء اللّٰه، بل ربَّما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلَّة القطعيَّة والبراهين النقليَّة والعقليَّة.

---

(١) في (ب): «والرَّشاد».

﴿٥٦﴾ ﴿هو يُحيي ويُميتُ﴾؛ أي: هو المتصرِّف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير[1] لا شريك له في ذٰلك. ﴿وإليه تُرجعون﴾: يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرِّها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يقول تعالى مرغِّباً للخلقِ في الإقبال على هٰذا الكتاب الكريم بذكْر أوصافه الحسنة الضروريَّة للعباد فقال: ﴿يا أيُّها الناس قد جاءتكم موعظةٌ من ربِّكم﴾؛ أي: تعظكم وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذِّركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وشفاءٌ لما في الصدور﴾: وهو هٰذا القرآن، شفاءٌ لما في الصدور من أمراض الشهوات الصَّادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشُّبهات القادحة في العلم اليقينيِّ؛ فإنَّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وُجِدَتْ فيه الرغبة في الخير والرَّهبة عن الشرِّ ونمتا على تكرُّر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذٰلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي اللّهَ أحبَّ إلى العبد من شهوة نفسه، وكذٰلك ما فيه من البراهين والأدلَّة التي صرَّفها الله غاية التصريف وبيَّنها أحسن بيان مما يزيل الشُّبه القادحة في الحقِّ ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صحَّ القلب من مرضه، ورَفَلَ بأثواب العافية؛ تبعتْه الجوارحُ كلُّها؛ فإنها تصلُح بصلاحه وتفسُد بفساده.

﴿وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾: فالهدى هو العلم بالحقِّ والعمل به، والرحمةُ هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به؛ فالهدى أجلُّ الوسائل، والرحمةُ أكملُ المقاصد والرغائب، ولكنْ لا يهتدي به ولا يكون رحمةً إلَّا في حقِّ المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلَّت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادةُ والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

﴿٥٨﴾ ولذٰلك أمر تعالى بالفرح بذٰلك، فقال: ﴿قلْ بفضل الله﴾: الذي هو القرآنُ، الذي هو أعظم نعمة ومِنَّة وفضل تفضَّل الله به على عباده، ورحمتِهِ: الدين

---

(١) في (ب): «التدبير».

والإيمان وعبادة اللّه ومحبَّته ومعرفته. ﴿فبذلك فَلْيَفْرَحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾: من متاع الدُّنيا ولذَّاتها؛ فنعمة الدين المتَّصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدُّنيا مما هو مضمحلٌّ زائل عن قريب. وإنَّما أمر اللّه تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأنَّ ذٰلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها للّه تعالى وقوَّتها وشدَّة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهٰذا فرحٌ محمودٌ؛ بخلاف الفرح بشهوات الدُّنيا ولذَّاتها أو الفرح بالباطل؛ فإنَّ هٰذا مذمومٌ؛ كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لا تَفْرَحْ إنَّ اللّه لا يحبُّ الفرحين﴾، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فلَّما جاءتْهم رسلُهم بالبيِّناتِ فرحوا بما عندَهم من العلم﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾.

﴿٥٩﴾ يقول تعالى منكراً على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحلَّ اللّه وتحليلَ ما حرَّمه[1]: ﴿قلْ أرأيتُم ما أنزل اللّه لكم من رزقٍ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحلَّلة التي جعلها اللّه رزقاً لهم ورحمة في حقِّهم، قل لهم موبِّخاً على هٰذا القول الفاسد: ﴿آللّهُ أذِنَ لكم أم على اللّه تفترونَ﴾: ومن المعلوم أنَّ اللّه لم يأذنْ لهم؛ فعُلِمَ أنهم مفترون.

﴿٦٠﴾ ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على اللّه الكذبَ يوم القيامة﴾: أن يفعل اللّه بهم من النَّكال ويُحِلَّ بهم من العقاب؛ قال تعالى: ﴿ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا على اللّه وجوهُهُم مسودَّةٌ﴾.

﴿إنَّ اللّه لذو فضل على الناس﴾: كثير وذو إحسان جزيل. ولٰكنَّ أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرِّموا منها، ويردُّوا ما منَّ اللّه به على عباده، وقليلٌ منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على اللّه، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أنَّ الأصل في جميع الأطعمة الحلُّ؛ إلَّا ما وَرَدَ الشرع

---

(١) في (ب): «ما حرَّم».

بتحريمه؛ لأن اللّه أنكر على من حرَّم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطِّلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسَكَناتهم، وفي ضمن هٰذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿وما تكونُ في شأنٍ﴾؛ أي: حال من أحوالك الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿وما تتلو منه من قرآنٍ﴾؛ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه اللّه إليك، ﴿ولا تعملون من عمل﴾: صغيرٍ أو كبيرٍ، ﴿إلَّا كنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه﴾؛ أي: وقت شروعكم فيه واستمراركم على العمل به، فراقبوا اللّه في أعمالكم، وأدُّوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإيَّاكم وما يَكره اللّه تعالى؛ فإنه مطَّلع عليكم عالمٌ بظواهركم وبواطنكم. ﴿وما يعزُبُ عن ربِّك﴾؛ أي: ما يُغابُ عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿من مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغرَ من ذٰلك ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مُبين﴾؛ أي: قد أحاط به علمُه وجرى به قلمُه. وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيراً ما يُقرِنُ اللّه بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابته المحيطة بجميع الحوادث؛ كقوله تعالى: ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ اللّه يعلمُ ما في السماء والأرض إنَّ ذٰلك في كتابٍ إنَّ ذٰلك على اللّه يسيرٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿ألا إنَّ أولياء اللّه لا خوفٌ عليهم﴾: فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ﴿ولا هم يحزنونَ﴾: على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلِفوا إلَّا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمنُ والسعادةُ والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا اللّه تعالى.

﴿٦٣﴾ ثم ذكر وصفَهم، فقال: ﴿الذين آمنوا﴾: باللّه وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه، وصدَّقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فكلُّ من كان مؤمناً تقيًا؛ كان للّه تعالى وليًا.

﴿٦٤﴾ و ﴿لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾: أما البشارة في الدُّنيا؛ فهي الثناء الحسن والمودَّة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف اللّه به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوىء الأخلاق، وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللّه ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التي كنتُم توعَدون﴾: وفي القبر ما يُبَشَّر به من رضا اللّه تعالى والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم. ﴿لا تبديلَ لكلماتِ اللّه﴾: بل ما وعد اللّه؛ فهو حقٌّ لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنَّه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدره وقضاه. ﴿ذٰلك هو الفوزُ العظيمُ﴾: لأنه اشتمل على النجاة من كلِّ محذور، والظَّفر بكل مطلوب محبوب، وحَصَرَ الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أنَّ البُشرى شاملةٌ لكل خير وثواب رتَّبه اللّه في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهٰذا أطلق ذٰلك فلم يقيِّده.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ولا يحزُنْك قول المكذِّبين فيك من الأقوال التي يتوصَّلون بها إلى القدح فيك وفي دينك؛ فإن أقوالهم لا تُعِزُّهم ولا تضرُّك شيئاً. ﴿إنَّ العزَّة للّه جميعاً﴾؛ يؤتيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً﴾ أي: فليطلبها بطاعته؛ بدليل قوله بعده: ﴿إليه يصعدُ الكَلِمُ الطِّيبُ والعمل الصالح يرفعُه﴾: ومن المعلوم أنك على طاعة اللّه، وأنَّ العزَّة لك ولأتباعك من اللّه. ﴿وللّه العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾. وقوله: ﴿هو السميع العليم﴾؛ أي سمعه قد أحاط بجميع الأصوات؛ فلا يخفى عليه شيء منها؛ وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن؛ فلا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر، وهو تعالى يسمعُ قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذٰلك تفصيلاً؛ فاكتفِ بعلم اللّه وكفايته؛ فمن يتَّق اللّه فهو حسبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أن له ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً [وعبيدًا]، يتصرَّف فيهم بما يشاء[1] من أحكامه؛ فالجميع مماليك للّه مسخَّرون مدبَّرون لا يستحقُّون شيئاً من العبادة وليسوا شركاء للّه بوجه من الوجوه، ولهٰذا قال: ﴿وما يتَّبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء إن يتَّبِعون إلَّا الظَّنَّ﴾: الذي لا يغني من الحقِّ شيئاً، ﴿وإنْ هم إلَّا يخرصُون﴾: في ذٰلك خرصٌ[2] وإفك وبهتان؛ فإن كانوا صادقين في أنها شركاء للّه؛ فليُظْهِروا من أوصافها ما تستحقُّ به مثقال ذرَّة من العبادة؛ فلن يستطيعوا؛ فهل منهم أحدٌ يخلق شيئاً أو يرزق أو يملك شيئاً من المخلوقات أو يدبِّر الليل والنهار الذي جعله اللّه قياماً للناس؟!

﴿٦٧﴾ و﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾: في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض؛ فلو استمرَّ الضياءُ؛ لما قروا ولما سكنوا. ﴿و﴾ جعل اللّه ﴿النهار مبصراً﴾؛ أي: مضيئاً يبصر به الخلقُ فيتصرَّفون في معايشهم ومصالح دينهم ودنياهم. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيات لقوم يسمعون﴾: عن اللّه سمعَ فَهم وقَبول واسترشاد، لا سمع تعنُّت وعناد؛ فإنَّ في ذٰلك لآيات لقوم يسمعون يستدلُّون بها على أنه وحده المعبود، وأنَّه الإلٰه الحق، وأن إلٰهية ما سواه باطلة، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٨﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لربِّ العالمين: ﴿قالوا اتَّخذ الله ولداً﴾: فنزَّه نفسه عن ذٰلك بقوله: ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علوًّا كبيراً. ثم برهن عن ذٰلك بعدة براهين:

---

(١) في (ب): «بما شاء».

(٢) في (ب): «في ذلك خرص كذب».

أحدها قوله: ﴿هو الغنيُّ﴾؛ أي: الغِنَى منحصرٌ فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التامُّ بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه؛ فإذا كان غنيًّا من كل وجه؛ فلأيِّ شيء يتَّخذ الولد؟! ألحاجة منه إلى الولد؟ فهٰذا منافٍ لغناه؛ فلا يتَّخِذ أحدًا ولداً إلا لنقص في غناه؟!

البرهان الثاني قوله: ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾: وهٰذه كلمة جامعة عامةٌ، لا يخرج عنها موجودٌ من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيدٌ مماليك، ومن المعلوم أن هٰذا الوصفَ العامَّ ينافي أن يكون له [منهم] ولدٌ؛ فإنَّ الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً؛ فملكيَّته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث قوله: ﴿إن عندكم من سُلطانٍ بهٰذا﴾؛ أي: هل عندكم من حجَّةٍ وبرهان يدلُّ على أنَّ للّه ولداً؟! فلو كان لهم دليلٌ؛ لأبدَوْه، فلما تحدَّاهم وعجَّزهم عن إقامة الدليل؛ عُلم بطلان ما قالوه، وأنَّ ذٰلك قولٌ بلا علم، ولهٰذا قال: ﴿أتقولون على اللّه ما لا تعلمون﴾: فإنَّ هٰذا من أعظم المحرَّمات.

﴿٦٩ ـ ٧٠﴾ ﴿قل إنَّ الذين يفترون على اللّه الكذبَ لا يفلحون﴾؛ أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصُل لهم مقصودهم، وإنما يتمتَّعون في كفرهم وكذبهم في الدُّنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى اللّه ويرجعون إليه، فيذيقهم ﴿العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، وما ظلمهم اللّه، ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ يقول تعالى لنبيه: واتلُ على قومك ﴿نبأ نوح﴾: في دعوته لقومه حين دعاهم إلى اللّه مدةً طويلةً فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملَّلوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كانَ كَبُرَ عليكم مَقامي وتذكيري

بآيات الله﴾؛ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إيَّاكم ما ينفعهم[١] بآيات الله الأدلَّة الواضحة البيِّنة، قد شقَّ عليكم، وعَظُم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردُّوا الحقَّ. **﴿فعلى الله توكَّلْتُ﴾**؛ أي: اعتمدتُ على الله في دفع كلِّ شرٍّ يُراد بي وبما أدعو إليه؛ فهٰذا جندي وعدتي. وأنتم؛ فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العُدَد والعَدَد، **﴿فأجمِعوا أمركم﴾**: كلكم بحيث لا يتخلَّف منكم أحدٌ ولا تدَّخروا[٢] من مجهودكم شيئاً، **﴿و﴾** أحضروا **﴿شركاءكم﴾**: الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله ربِّ العالمين، **﴿ثم لا يكُنْ أمرُكم عليكم غُمَّةً﴾**؛ أي: مشتبهاً خفيًّا، بل ليكنْ ذٰلك ظاهراً علانيةً. **﴿ثم اقضوا إليَّ﴾**؛ أي: اقضوا عليَّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، **﴿ولا تنظرون﴾**؛ أي: لا تمهلوني ساعةً من نهار.

فهٰذا برهانٌ قاطعٌ وآيةٌ عظيمةٌ على صحة رسالته وصدق ما جاء به؛ حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بَادَى قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعَيْب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقولُ لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كلَّ ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتُم على ذٰلك، فلم يقدروا على شيءٍ من ذٰلك، فعُلِمَ أنه الصادق حقًّا، وهم الكاذبون فيما يدعون.

﴿٧٢﴾ ولهٰذا قال: **﴿فإن تولَّيتم﴾**: عن ما دعوتكم إليه؛ فلا موجب لتولِّيكم؛ لأنه تبيَّن أنكم لا تولون عن باطل إلى حقٍّ، وإنما تولُّون عن حقٍّ قامت الأدلَّة على صحته إلى باطل قامت الأدلَّة على فساده، ومع هٰذا؛ **﴿فما سألتكم من أجرٍ﴾**: على دعوتي وعلى إجابتكم، فتقولوا: هٰذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذٰلك. **﴿إن أجري إلَّا على الله﴾**؛ أي: لا أريدُ الثواب والجزاء إلا منه، **﴿و﴾** أيضاً؛ فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضدِّه. بل **﴿أمِرْتُ أن أكون من المسلمين﴾**: فأنا أولُ داخل وأولُ فاعل لما أمرتكم به.

﴿٧٣﴾ **﴿فكذَّبوه﴾**: بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً وسرًّا وجهاراً فلم يزِدْهم دعاؤه إلا

---

(١) كذا في النسختين. ولعل الصواب: «ما ينفعكم».

(٢) في (ب): «ولا تذخرون».

فراراً. ﴿فنجَّيْناه ومن معه في الفلك﴾: الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له: إذا فار التنُّور؛ فاحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين، وأهلَك؛ إلَّا مَن سَبَقَ عليه القول، ومَنْ آمن، ففعل ذٰلك، فأمر الله السماء بماءٍ منهمرٍ، وفجَّر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ، وحملناهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر، تجري بأعيننا. ﴿وجعلناهم خلائف﴾: في الأرض بعد إهلاك المكذِّبين، ثم بارك الله في ذرِّيَّته وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾: بعد ذٰلك البيان وإقامة البرهان. ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المنذَرين﴾: وهو الهلاك المخزي واللعنة المتتابعة عليهم في كلِّ قرنٍ يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوماً، ولا ترى إلا قدحاً وذمًّا؛ فليحذر هٰؤلاء المكذِّبون أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الأقوام المكذِّبين من الهلاك والخزي والنَّكال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٤﴾ أي: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام، ﴿رسلاً إلى قومِهم﴾: المكذِّبين يدعونهم إلى الهدى ويحذِّرونهم من أسباب الرَّدى، ﴿فجاؤوهم بالبيِّنات﴾؛ أي: كلِّ نبي أيدَّ دعوته بالآيات الدالَّة على صحة ما جاء به. ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبلُ﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكِّنين منه؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرَّةٍ﴾. ولهٰذا قال هنا: ﴿كذٰلك نطبعُ على قلوب المعتدين﴾؛ أي: نختم عليها فلا يدخلها خيرٌ، وما ظلمهم الله، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بردِّهم الحقَّ لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ[1] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ
عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا
جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن
كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ
رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ
أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿٧٥﴾ أي: ثم بعثنا من بعد هٰؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذِّبين المهلَكين ﴿موسى﴾: ابن عمران كليم الرحمٰن أحد أولي العزم من المرسلين وأحد الكبار المقتدى بهم المنزَّل عليهم الشرائع المعظَّمة الواسعة. ﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً. بعثناهما ﴿إلى فرعون ومَلَئِهِ﴾؛ أي: كبار دولته ورؤسائهم؛ لأنَّ عامتهم تبعٌ للرؤساء، ﴿بآياتنا﴾: الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى. ﴿فاستكبروا﴾: عنها ظلماً وعلوًّا بعدما استيقنوها، ﴿وكانوا قوماً مجرِمين﴾؛ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحقُّ من عندنا﴾: الذي هو أكبر أنواع الحقِّ وأعظمُها، وهو من عند الله، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو ربُّ العالمين المربِّي جميع

خلقه بالنعم، فلما جاءهم الحقُّ من عند اللّه على يد موسى؛ ردُّوه فلم يقبلوه، و ﴿قالوا إنَّ هٰذا لسحرٌ مبينٌ﴾: لم يكفهم قبحهم اللّه إعراضهم ولا ردُّهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحقُّ المبين.

﴿٧٧﴾ ولهٰذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ موبخاً لهم عن ردِّهم الحقَّ الذي لا يردُّه إلا أظلم الناس: ﴿أتقولون للحقِّ لما جاءكم﴾؛ أي: أتقولون: إنَّه سحرٌ مبينٌ. ﴿أسحرٌ هٰذا﴾؛ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه؛ فبمجرَّد ذٰلك يجزم بأنه الحق، ﴿ولا يفلح الساحرون﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاحُ وعلى يديه النجاحُ، وقد علموا بعد ذٰلك وظهر لكلِّ أحدٍ أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظَفَر الدُّنيا والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى رادِّين لقوله بما لا يردُّه: ﴿أجئتنا لِتَلْفِتَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءنا﴾؛ أي: أجئتنا لتصدَّنا عما وَجَدْنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير اللّه وتأمرنا بأن نعبد اللّه وحده لا شريك له؛ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجَّة يردُّون بها الحقَّ الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله[1]: ﴿وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض﴾؛ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرِجونا من أراضينا؟ وهٰذا تمويهٌ منهم وترويجٌ على جهالهم وتهييجٌ لعوامِّهم على معاداة موسى وعدم الإيمان به، وهٰذا لا يحتجُّ به من عرف الحقائق وميَّز بين الأمور؛ فإنَّ الحجج لا تُدفَعُ إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحقِّ؛ فَرَدَّ قوله بأمثال هٰذه الأمور؛ فإنها تدلُّ على عجز موردها عن الإتيان بما يردُّ القول الذي جاء[2] به خصمه؛ لأنه لو كان له حجَّة؛ لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام كلُّ من عرف حاله وما يدعو إليه؛ عرف أنه ليس له قصدٌ في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾؛ أي: تكبُّراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباهٍ فيه، ولا لغير ذٰلك من المعاني سوى الظلم والعدوان وإرادة العلوِّ الذي رموا به موسى وهارون.

---

(١) في (ب): «وقولهم».

(٢) في (ب): «جاءه».

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾؛ معارضاً للحقِّ الذي جاء به موسى ومغالباً[1] لملئِهِ وقومه: ﴿ائتوني بكلِّ ساحر عليم﴾؛ أي: ماهر بالسحر متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السَّحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿٨٠﴾ ﴿فلما جاء السحرة﴾: للمغالبة لموسى[2]، ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾؛ أي: أيَّ شيء أردتم، لا أعيِّن لكم شيئاً، وذٰلك لأنَّه جازمٌ بغلبتِهِ غير مبالٍ بهم وبما جاؤوا به.

﴿٨١﴾ ﴿فلما ألقوا﴾: حبالَهم وعصيَّهم إذا هي كأنها حيَّاتٌ تسعى، فقال ﴿موسى ما جئتم به السحر﴾؛ أي: هٰذا السحر الحقيقي العظيم، ولٰكن مع عظمته ﴿إنَّ الله سيبطِلُه إنَّ الله لا يُصْلِحُ عمل المفسدين﴾؛ فإنَّهم يريدون بذٰلك نصر الباطل على الحق، وأيُّ فساد أعظم من هٰذا؟! وهٰكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيداً أو أتى بمكرٍ؛ فإنَّ عملَه سيبطُل ويضمحلُّ، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما؛ فإن مآله الاضمحلال والمَحْق، وأما المصلحون الذين قصدُهم بأعمالهم وجهُ الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعةٌ مأمورٌ بها؛ فإنَّ الله يصلحُ أعمالهم ويرقِّيها ويُنَمِّيها على الدوام.

﴿٨٢﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقَّفت جميع ما صنعوا، فبطل سِحْرُهم، واضمحلَّ باطلهم. ﴿و﴾ أحقَّ ﴿اللّهُ الحقَّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾: فألقي السحرة حين تبيَّن لهم الحقُّ، فتوعَّدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذٰلك، وثبتوا على إيمانهم.

﴿٨٣﴾ وأما فرعون ومَلَؤه وأتباعهم؛ فلم يؤمن منهم أحدٌ، بل استمرُّوا في طغيانهم يعمهون، ولهٰذا قال: ﴿فما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه﴾؛ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، ﴿على خوفٍ من فرعون ومَلَئِهِم أن يفتِنَهم﴾: عن دينهم. ﴿وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض﴾؛ أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقيقٌ بهم أن يخافوا من بطشته، ﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه كان من المسرفين﴾؛ أي: المتجاوزين للحدِّ في البغي والعدوان. والحكمة ـ والله أعلم ـ بكونه ما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه: أنَّ الذُّرِّيَّة والشباب أقبلُ للحقِّ وأسرع له انقياداً؛ بخلاف الشيوخ ونحوهم ممَّن تربَّى على الكفر؛ فإنهم بسبب ما مكث في

---

(١) في (ب): «ومغالطاً».

(٢) في (ب): «مع موسى».

قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحقِّ من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾: موصياً لقومه بالصبر، ومذكِّراً لهم ما يستعينون به على ذٰلك، فقال: ﴿يا قوم إن كنتُم آمنتُم باللّه﴾: فقوموا بوظيفة الإيمان، وعلى اللّه ﴿توكَّلوا إن كنتُم مسلمينَ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه والجؤوا إليه واستنصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾: ممتثلين لذٰلك: ﴿على اللّه توكَّلْنا ربَّنا لا تَجْعَلْنا فتنةً للقوم الظالمين﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا فَيَفْتِنُونا أو يَغْلِبُونا، فَيُفْتَنُون بذٰلك، ويقولون: لو كانوا على حقٍّ لما غُلِبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ونجِّنا برحمتك من القوم الكافرين﴾: لنسلم من شرِّهم ولنقيم على ديننا[1] على وجهٍ نتمكَّن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه﴾: حين اشتدَّ الأمر على قومهما من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أن تبوَّآ لقومكما بمصر بيوتاً﴾؛ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً يتمكَّنون به من الاستخفاء فيها، ﴿واجعلوا بيوتَكم قبلةً﴾؛ أي: اجعلوها محلاً تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامَّة. ﴿وأقيموا الصلاة﴾: فإنها معونةٌ على جميع الأمور، ﴿وبشِّر المؤمنين﴾: بالنصر والتأييد وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً. وحين اشتدَّ الكرب وضاق الأمر؛ فرَّجه اللّه ووسعه.

﴿٨٨﴾ فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئهم؛ دعا عليهم وأمَّن هارون على دعائه، فقال: ﴿ربَّنا إنك آتيت فرعونَ وملأَهُ زينةً﴾: يتزينون بها من أنواع الحليِّ والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام، ﴿وأموالاً﴾: عظيمةً ﴿في الحياة الدُّنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك﴾؛ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلَّا على الإضلال في سبيلك فَيَضِلُّون ويُضِلُّون. ﴿ربَّنا اطمسْ على أموالهم﴾؛ أي: أتلفها عليهم إما بالهلاك وإما بجعلها حجارةً غير منتفع بها، ﴿واشدُدْ على قلوبهم﴾؛ أي: قسِّها، ﴿فلا يؤمنوا حتَّى يَرَوُا العذاب الأليم﴾: قال ذٰلك غضباً عليهم حيث تجرؤوا على محارم اللّه وأفسدوا عباد اللّه وصدُّوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربِّه بأنَّ اللّه سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿قد أُجيبتْ دعوتُكما﴾: هٰذا دليلٌ على أن موسى

(١) في (ب): «ولنقيم ديننا».

يدعو وهارون يؤمِّن على دعائه، وإن الذي يؤمِّن يكون شريكاً للداعي في ذٰلك الدعاء. ﴿فاستقيما﴾: على دينكما، واستمرًا على دعوتكما، ﴿ولا تتَّبِعانِّ سبيل الذين لا يعلمون﴾؛ أي: لا تتبعانِّ سبيل الجهَّال الضلَّال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتَّبعين لطرق الجحيم.

﴿٩٠﴾ فأمر اللّه موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم سَيَتَّبِعُونه[1]، وأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين يقولون: إنَّ هٰؤلاء ـ أي: موسى وقومه ـ لشرذِمَةٌ قليلون. وإنَّهم لنا لغائظونَ. وإنا لجميعٌ حاذرونَ. فجمع جنودَه قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغياً وعدواً؛ أي: خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض، وإذا اشتدَّ البغي واستحكم الذنبُ؛ فانتظِر العقوبةَ. ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: وذٰلك أنَّ اللّه أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضرِبَه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنودهم خلفهم[2] داخلين، فلما استكمل موسى وقومُه خارجين من البحر وفرعونُ وجنودُه داخلين فيه؛ أمر اللّه البحر، فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقَهم وبنو إسرائيل ينظُرون، حتى إذا أدرك فرعونَ الغرقُ وجزم بهلاكه؛ ﴿قال آمنتُ أنَّه لا إلٰه إلَّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ﴾: وهو اللّه الإلٰه الحقُّ الذي لا إلٰه إلا هو، ﴿وأنا من المسلمينَ﴾؛ أي: المنقادين لدين اللّه، ولما جاء به موسى.

﴿٩١﴾ قال اللّه تعالى مبيِّناً أنَّ هٰذا الإيمان في هٰذه الحالة غير نافع له: ﴿آلآنَ﴾: تؤمن وتقرُّ برسول اللّه، ﴿وقد عصيتَ قبلُ﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وكنت من المفسدينَ﴾: فلا ينفعُك الإيمان كما جرتْ عادةُ اللّه أن الكفار إذا وصلوا إلى هٰذه الحالة الاضطراريَّة أنَّه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأنَّ إيمانهم صار إيماناً مشاهداً؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفعُ إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم ننجِّيك ببدنِكَ لتكون لمن خلفك آيةً﴾: قال المفسِّرون: إنَّ بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنَّهم لم يصدِّقوا بإغراقه، وشكُّوا في ذٰلك، فأمر اللّه البحر أن يلقِيَهُ على نجوة مرتفعةٍ ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآية. ﴿وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾: فلذٰلك تمرُّ عليهم وتتكرَّر فلا

---

(١) في (ب): «يَتْبَعُون».

(٢) كذا في النسختين. وفي (أ) غيرت إلى: «وجنوده خلفه» بخط مغاير.

ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما من له عقلٌ وقلبٌ حاضر؛ فإنَّه يرى من آيات اللّه ما هو أكبر دليل على صحَّة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ ﴿ولقد بوَّأنا بني إسرائيل مُبَوَّأ صِدْقٍ﴾؛ أي: أنزلهم اللّه وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿ورزقناهم من الطيِّباتِ﴾: من المطاعم والمشارب وغيرهما، ﴿فما اختلفوا﴾: في الحقِّ ﴿حتَّى جاءهم العلمُ﴾: الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولٰكن بغى بعضهم على بعضٍ، وصار لكثيرٍ منهم أهوية وأغراض تخالف الحقَّ، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثيرٌ. ﴿إنَّ ربَّك يقضي بينَهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾: بحكمه العدل الناشىء عن علمه التامِّ وقدرته الشاملة.

وهٰذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أنَّ الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلِّيَّة، سعى في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجبُ ذٰلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرَّة عين اللعين، وإلا؛ فإذا كان ربُّهم واحداً ورسولهم واحداً ودينهم واحداً ومصالحهم العامة متَّفقة؛ فلأيِّ شيء يختلفون اختلافاً يفرِّق شملهم ويشتِّت أمرهم ويَحُلُّ رابطتهم ونظامهم فيفوِّتُ من مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة ما يفوِّت ويموت من دينهم بسبب ذٰلك ما يموت؟! فنسألك اللهمَّ لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم، ويرأبُ صدعَهم، ويردُّ قاصِيَهم على دانيهم يا ذا الجلال والإكرام!

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك﴾: هل هو صحيحٌ أم غير صحيح، ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾؛ أي: اسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراسخين؛ فإنهم سيقرُّون لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم.

فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم، كذَّبوا رسول اللّه، وعاندوه، وردُّوا عليه دعوته، واللّه تعالى أمر رسوله

أن يستشهدَ بهم، وجعل شهادتَهم حجةً لما جاء به وبرهاناً على صدقه؛ فكيف يكونُ ذٰلك؟! فالجوابُ عن هٰذا من عدة أوجه:

منها: أنَّ الشهادة إذا أضيفت إلى طائفةٍ أو أهل مذهبٍ أو بلدٍ ونحوهم؛ فإنَّها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما مَنْ عداهم؛ فلو كانوا أكثر من غيرهم؛ فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنيَّة على العدالة والصدق، قد حصل ذٰلك بإيمان كثيرٍ من أحبارهم الرَّبانيِّين؛ كعبد اللّه بن سلام[1] وأصحابه وكثيرٍ ممَّن أسلم في وقت النبيِّ ﷺ وخلفائه ومن بعدهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول مبنيَّة على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه؛ فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدِّقُه ويشهدُ له بالصحَّة؛ فلو اتَّفقوا من أولهم وآخرهم على إنكار ذٰلك؛ لم يقدحْ بما جاء به الرسول.

ومنها: أنَّ اللّه تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحَّة ما جاءه وأظهر ذٰلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمدٍ ﷺ؛ فلو كان عندهم ما يردُّ ما ذكره اللّه؛ لأبدَوْه وأظهروه وبيَّنوه، فلما لم يكنْ شيءٌ من ذٰلك؛ كان عدم ردِّ المعادي وإقرار المستجيب من أدلِّ الأدلَّة على صحَّة هٰذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب ردَّ دعوة الرسول، بل أكثرُهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً؛ فإنَّ الرسولَ بُعِثَ وأَكْثَرُ أهل الأرض المتديِّنين أهل الكتاب[2]، فلم يمكثْ دينُه مدةً غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقرُّ دين أهل الكتاب ولم يبقَ إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحقِّ ومَنْ تبِعَهم من العوامِّ الجهلة ومن تديَّن بدينهم اسماً لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنَّهم دهريَّة منحلُّون عن جميع أديان الرسل، وإنَّما انتسبوا للدين المسيحيِّ ترويجاً لملكهم وتمويهاً لباطلهم؛ كما يعرف ذٰلك من عرف أحوالهم البيِّنة الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾؛ أي: الذي لا شكَّ فيه بوجه من الوجوه، ﴿من

---

(١) في (ب): «كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما». ثم عدل عنها الشيخ في (أ) إلى ما هو مثبت.

(٢) في (ب): «أهل كتاب».

ربِّك فلا تكوننَّ من الممترينَ(١)﴾: كقوله تعالى: ﴿كتابٌ أُنزِلْ إليكَ فلا يكن في صدرك حرجٌ منه﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿ولا تكونَنَّ من الذين كذَّبوا بآيات اللّه فتكون من الخاسرين﴾: وحاصل هٰذا أنَّ اللّه نهى عن شيئين: الشكُّ في هٰذا القرآن، والامتراء منه. وأشد من ذٰلك التكذيب به، وهو آيات اللّه البينات، التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتَّب على هٰذا الخسار، وهو عدم الربح أصلاً، وذٰلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه، فيكون أمراً بالتصديق التامّ بالقرآن وطمأنينة القلب إليه والإقبال عليه علماً وعملاً؛ فبذٰلك يكون العبدُ من الرابحين، الذين أدركوا أجلَّ المطالب وأفضل الرغائب وأتمَّ المناقب، وانتفى عنهم الخسارُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٦ ـ ٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك﴾؛ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بدَّ أن يصيروا إلى ما قدَّره اللّه وقضاه؛ فلا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية؛ فلا تزيدُهم الآيات إلا طغياناً وغيًّا إلى غيِّهم، وما ظلمهم اللّه ولٰكن ظلموا أنفسهم بردِّهم للحقِّ لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم اللّه بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يَرَوا العذاب الأليم الذي وُعِدوا به؛ فحينئذٍ يعلمون حقَّ اليقين أنَّ ما هم عليه هو الضلال وأنَّ ما جاءتهم به الرسلُ هو الحقُّ، ولكنْ في وقتٍ لا يُجدي عليهم إيمانهم شيئاً؛ فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبون. وأما الآياتُ؛ فإنَّها تنفعُ مَنْ له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٨﴾ يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قريةٌ﴾: من القرى المكذبين، ﴿آمنتْ﴾: حين رأتِ العذاب، ﴿فنفعها إيمانُها﴾؛ أي: لم يكن منهم أحدٌ انتفع بإيمانه حين رأى العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون ما تقدَّم قريباً لما قال: ﴿آمنتُ أنَّه لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين﴾، فقيل له: ﴿آلآن وقد عصيتَ

(١) في (ب): «ولهذا قال: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾».

قبلُ وكنتَ من المفسدين﴾، وكما قال تعالى: ﴿فلمَّا جاءهم بأسُنا قالوا آمنَّا بالله وحدَه وكَفَرْنا بما كُنَّا به مشركين. فلم يك يَنفَعُهُم إيمانُهم لما رأوا بأسنا سُنَّةَ الله التي قد خلتْ في عباده﴾، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدَهُم الموتُ قال ربِّ ارجعونِ. لعلِّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ، كلاَّ﴾، والحكمة في هذا ظاهرةٌ؛ فإنَّ الإيمان الاضطراريَّ ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان؛ لرجع إلى الكفران. وقوله: ﴿إلَّا قومَ يونس لما آمنوا بعدما رأوا العذاب كَشَفْنا عنهم عذابَ الخِزْي في الحياة الدُّنيا ومتعناهم إلى حين﴾: فهم مستَثْنَوْن من العموم السابق، ولا بدَّ لذلك من حكمة لعالم الغيب والشَّهادة لم تصلْ إلينا ولم تدرِكْها أفهامُنا؛ قال الله تعالى: ﴿وإنَّ يونُسَ لمن المرسلين. . .﴾ إلى قوله: ﴿فأرسلْناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدونَ. فآمنوا فمتَّعْناهم إلى حينٍ﴾. ولعلَّ الحكمة في ذلك أنَّ غيرهم من المهلَكين لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وأما قوم يونس؛ فإنَّ اللهَ أعلمَ[1] أنَّ إيمانهم سيستمرُّ، بل قد استمرَّ فعلاً، وثبتوا عليه. والله أعلم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿ولو شاء ربُّك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً﴾: بأن يلهمهم الإيمان ويوزعَ قلوبهم للتقوى؛ فقدرتُه صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضتْ حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين. ﴿أفأنت تكرهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾؛ أي: لا تقدِرُ على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة غير الله شيء من ذلك.

﴿١٠٠﴾ ﴿وما كان لنفس أن تؤمنَ إلَّا بإذنِ الله﴾: بإرادته ومشيئته وإذنه القَدَرِيِّ الشرعيِّ؛ فمن كان من الخَلْقِ قابلاً لذلك يزكو عنده الإيمان؛ وفَّقه وهداه، ﴿ويجعلُ الرجسَ﴾؛ أي: الشرَّ والضلال ﴿على الذين لا يعقِلونَ﴾: عن الله أوامرَهُ ونواهيه، ولا يُلقون بالاً لنصائحه ومواعظه.

(١) في (ب): «علم».

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠١﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذٰلك نظر الفكر والاعتبار والتأمُّل لما فيها وما تحتوي عليه والاستبصار؛ فإن في ذٰلك لآياتٍ لقوم يؤمنون وعبراً لقوم يوقنون، تدلُّ على أنَّ الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام، ﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون﴾؛ فإنهم لا ينتفعون بالآيات؛ لإعراضهم وعنادهم.

﴿١٠٢ ـ ١٠٣﴾ ﴿فهل ينتظرون إلَّا مثلَ أيام الذين خَلَوْا من قبلهم﴾؛ أي: فهل ينتظر هٰؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعدَ وضوحها إلَّا مثلَ أيام الذين خَلَوْا من قبلهم؛ أي: من الهلاك والعقاب؛ فإنَّهم صنعوا كصنيعهم، وسنةُ الله جاريةٌ في الأولين والآخرين. ﴿قُلْ فانتظِروا إني معكم من المنتظرين﴾: فستعلمون لمَن تكون له العاقبة الحسنةُ والنجاةُ في الدنيا والآخرة. وليست إلَّا للرسل وأتباعهم، ولهٰذا قال: ﴿ثم نُنَجِّي رسلنا والذين آمنوا﴾: من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما. ﴿كذٰلك حقًّا علينا﴾: أوجبناه على أنفسنا، ﴿نُنجِ المؤمنين﴾: فإنَّ الله يدافعُ عن الذين آمنوا؛ فإنَّه بحسب ما مع العبد من الإيمان؛ تحصُلُ له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ
اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيُها الناس إن كنتُم في شكٍّ من ديني﴾؛ أي: في ريب واشتباه؛ فإني لست في شكٍّ منه، بل لديَّ العلم اليقيني أنه الحقُّ وأن ما تدعون من دون الله باطلٌ، ولي على ذٰلك الأدلَّةُ الواضحةُ والبراهينُ الساطعةُ، ولهٰذا قال: ﴿فلا أعبدُ الذين تعبدونَ من دون الله﴾: من الأنداد والأصنام وغيرهما؛ لأنها لا تَخلُقُ ولا ترزقُ ولا تدبِّر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقةٌ مسخَّرة ليس فيها ما يقتضي

عبادتها. ﴿ولكنْ أعبدُ اللّه الذي يتوفَّاكم﴾؛ أي: هو اللّه الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعبد، ويصلَّى له، [ويخضع]، ويسجد، ﴿وأمِرْتُ أن أكون من المؤمنين﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿وأن أقِمْ وجهكَ للدين حنيفاً﴾؛ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة للّه، وأقم جميع شرائع الدين، ﴿حنيفاً﴾؛ أي: مقبلاً على اللّه معرضاً عما سواه. ﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾: لا في حالهم ولا تكنْ معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدعُ من دون اللّه ما لا ينفعُك ولا يضرُّك﴾: وهٰذا وصفٌ لكلِّ مخلوق أنه لا ينفع ولا يضرُّ، وإنما النافع الضارُّ هو اللّه تعالى. ﴿فإن فعلت﴾؛ أي[1]: دعوت من دون اللّه ما لا ينفعك ولا يضرك، ﴿فإنَّك إذاً﴾ لمن ﴿الظالمين﴾؛ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهٰذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الشِّرك لظلمٌ عظيمٌ﴾: فإذا كان خيرُ الخلق لو دعا مع اللّه غيره؛ لكان من الظالمين المشركين؛ فكيف بغيره؟!

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ هٰذا من أعظم الأدلَّة على أن اللّه وحده المستحقُّ للعبادة؛ فإنَّه النافع الضارُّ المعطي المانع الذي إذا مسَّ بضُرٍّ كفقر ومرض ونحوها: ﴿فلا كاشف له إلاّ هو﴾: لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه اللّه ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحداً؛ لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرده [اللّهُ]. ولهٰذا قال: ﴿وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضله﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يردَّ فضله وإحسانه؛ كما قال تعالى: ﴿ما يَفْتَح اللّه للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِك فلا مرسِلَ له من بعده﴾. ﴿يصيبُ به مَن يشاء مِن عباده﴾؛ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه واللّه ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾: لجميع الزَّلات، الذي يوفِّق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد؛ غفر اللّه ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿الرحيمُ﴾: الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء ووصل جودُه إلى جميع الموجودات؛ بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

---

(١) في (ب): «بأن».

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأنَّ أحداً من الخلق ليس بيده من هٰذا شيءٌ إلا ما أجراه الله على يده؛ جزم بأنَّ الله هو الحقُّ وأن ما يدعون من دونه هو الباطلُ ولهٰذا لما بين الدليل الواضح؛ قال بعده:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لما تبيَّن البرهان: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحقُّ من ربِّكم﴾؛ أي: الخبر الصادق المؤيَّد بالبراهين الذي لا شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه، وهو واصلٌ إليكم من ربِّكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هٰذا القرآن، الذي فيه تبيانٌ لكلِّ شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلٰهية والأخلاق المَرْضِيَّة ما فيه أعظم تربيةٍ لكم وإحسانٍ منه إليكم؛ فقد تبيَّن الرشد من الغي، ولم يبقَ لأحدٍ شبهة. ﴿فمن اهتدى﴾: بهدى الله؛ بأن علم الحقَّ وتفهَّمه وآثره على غيره فلنفسه. والله تعالى غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ثمرة أعمالهم راجعةٌ إليهم. ﴿ومن ضلَّ﴾: عن الهدى؛ بأن أعرض عن العلم بالحقِّ أو عن العمل به، ﴿فإنما يَضِلُّ عليها﴾: ولا يضرُّ الله شيئاً فلا يضر إلا نفسه. ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: فأحفظُ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنَّما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ، والله عليكم وكيلٌ؛ فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿١٠٩﴾ ﴿واتبع﴾: أيها الرسول ما أوحي إليك علماً وعملاً وحالاً ودعوةً إليه، ﴿واصبرْ﴾: على ذٰلك؛ فإنَّ هٰذا أعلى أنواع الصبر، وإنَّ عاقبته حميدةٌ؛ فلا تكسل ولا تضجر، بل دُمْ على ذٰلك واثبتْ، ﴿حتى يحكم الله﴾: بينك وبين مَنْ كذَّبك. ﴿وهو خير الحاكمين﴾: فإنَّ حكمه مشتملٌ على العدل التامِّ والقِسْط الذي يُحمد عليه. وقد امتثل ﷺ أمر ربِّه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجَّة والبرهان، فلله الحمدُ والثناء الحسن كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: هٰذا ﴿كتابٌ﴾: عظيم ونزل كريم، ﴿أُحْكِمَتْ آياته﴾؛ أي: أتقنت وأحسنت، صادقةٌ أخبارها، عادلةٌ أوامرها ونواهيها، فصيحةٌ ألفاظهُ بهيةٌ معانيه، ﴿ثم فُصِّلَتْ﴾؛ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿من لَدُنْ حكيم﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبيرٍ﴾: مطَّلع على الظواهر والبواطن؛ فإذا كان إحكامه وتفصيلُه من عند اللّه الحكيمِ الخبير؛ فلا تسألْ بعد هٰذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة.

﴿٢﴾ وإنما أنزل اللّه كتابه لأن لا تعبدوا إلَّا اللّهَ؛ أي: لأجل إخلاص الدين كلّه للّه، وأن لا يُشْرِكَ به أحدٌ من خلقه. ﴿إنني لكم﴾: أيُّها الناس، ﴿منه﴾؛ أي: من اللّه ربكم ﴿نذيرٌ﴾: لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وبشيرٌ﴾: للمطيعين للّه بثواب الدُّنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربَّكم﴾: عن ما صدر منكم من الذُّنوب، ﴿ثم توبوا إليه﴾: فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة والرجوع عما يكرهه اللّه إلى ما يحبُّه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتَّب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يمتِّعْكم متاعاً حسناً﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتَّعون به، وتنتفعون ﴿إلى أجل مسمّى﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿ويؤت﴾: منكم ﴿كلَّ ذي فضل فضلَه﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبرِّه ما هو جزاءٌ لإحسانهم من حصول ما يحبُّون ودفع ما يكرهون. ﴿وإن تَوَلَّوا﴾: عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتُم عنه، وربَّما كذَّبتم به، ﴿فإني أخاف عليكم عذابَ يوم كبيرٍ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يجمع اللّه فيه الأوَّلين والآخرين.

﴿٤﴾ فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشر. وفي قوله: ﴿وهو على كلِّ شيء قديرٌ﴾: كالدليل على إحياء اللّه الموتى؛ فإنه على كلِّ شيء قدير[1]، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذٰلك، وهو أصدق القائلين؛ فيجب وقوع ذٰلك عقلاً ونقلاً.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿٥﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَثْنون صدورَهم﴾؛ أي: يميلونها ليستخفوا من الله، فتقع صدورهم حاجبةً لعلم الله بأحوالهم وبصره لهيئاتهم. قال تعالى مبيناً خطأهم في هٰذا الظنِّ: ﴿ألا حين يَسْتَغْشون ثيابهم﴾؛ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء، بل ﴿يعلم ما يُسِرُّون﴾: من الأقوال والأفعال، ﴿وما يُعْلِنون﴾: منها، بل ما هو أبلغُ من ذٰلك، وهو: ﴿إنه عليمٌ بذات الصدور﴾؛ أي: بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرًّا ولا جهراً؛ فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه؟!

ويُحتمل أنَّ المعنى في هٰذا: أن اللّه يذكر إعراض المكذِّبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنَّهم من شدَّة إعراضهم يَثْنون صدورهم؛ أي: يَحْدَوْدِبون حين يرون الرسول؛ لئلَّا يراهم ويُسْمِعَهم دعوته ويعظَهم بما ينفعهم؛ فهل فوق هٰذا الإعراض شيء؟! ثم توعَّدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: جميع ما دبَّ على وجه الأرض من آدميٍّ[2] وحيوانٍ بَرِّيٍّ أو بحريٍّ؛ فاللّه تعالى قد تكفَّل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقُهم[3] على اللّه. ﴿ويعلم مستقرَّها ومستوْدَعها﴾؛ أي: يعلم مستقرَّ هٰذه الدوابِّ، وهو المكان الذي تقيم فيه وتستقرُّ

(١) في (ب): «فإنه قدير على كل شيء». (٢) في (ب): «أو».

(٣) في (ب): «فرزقها».

فيه وتأوي إليه، ومستودعُها المكانُ الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها. ﴿كلٌّ﴾: من تفاصيل أحوالها ﴿في كتابٍ مبينٍ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه؛ فلتطمئنَّ القلوب إلى كفاية من تكفَّلَ بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ في ستَّة أيام﴾: أولها يوم الأحد، وآخرُها يوم الجمعة. ﴿و﴾ حين خلق السماواتِ والأرضَ، ﴿كان عرشُهُ على الماء﴾: فوق السماء السابعة؛ فبعد أن خلقَ السماوات والأرض؛ استوى على عرشه، يدبِّر الأمور ويصرِّفها كيف شاء من الأحكام القدريَّة والأحكام الشرعيَّة. ولهٰذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾؛ أي: ليمتَحِنَكم إذ خَلَقَ لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيُّكم أحسنُ عملاً. قال الفضيل بن عِياض رحمه الله: أخلصُه وأصوبُه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يُقْبَلْ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً؛ لم يُقْبَلْ، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متَّبِعاً فيه الشرع والسُّنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجِنَّ والإنس إلا ليعبدونِ﴾، وقال تعالى: ﴿اللهُ الذي خلق سبع سمٰواتٍ ومن الأرض مثلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بينهنَّ لِتَعلموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأن الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً﴾: فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذٰلك؛ فمن انقاد وأدَّى ما أُمِرَ به؛ فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذٰلك؛ فأولئك هم الخاسرون، ولا بدَّ أن يجمَعَهم في دار يجازيهم على ما أمرهم به ونهاهم. ولهٰذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿ولئن قلتَ إنَّكم مبعوثون من بعدِ الموت لَيقولَنَّ الذين كفروا إن هٰذا إلَّا سحرٌ مبينٌ﴾؛ أي: ولئن قلتَ لهٰؤلاء

وأخبرتَهم بالبعث بعد الموت؛ لم يصدِّقوك، بل كذَّبوك أشدَّ التكذيب[1]، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إنْ هٰذا إلا سحرٌ مُبين﴾: ألا وهو الحقُّ المبين.

﴿٨﴾ ﴿ولئنْ أخَّرْنا عنهم العذابَ إلى أمَّةٍ معدودةٍ﴾؛ أي: إلى وقت مقدَّر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿ما يحبِسُه﴾؟! ومضمونُ هٰذا تكذيبُهم به؛ فإنهم يستدلُّون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب؛ فما أبعد هٰذا الاستدلال. ﴿ألا يوم يأتيهم العذابُ ليس مصروفاً عنهم﴾: فيتمكَّنون من النظر في أمرهم، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزِئون﴾: من العذاب حيثُ تهاونوا به، حتى جَزَموا بكذب مَنْ جاء به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩ ـ ١٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهلٌ ظالمٌ: بأنَّ اللّه إذا أذاقه منه رحمةً كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذٰلك، ثم نزعها منه؛ فإنَّه يستسلم لليأس وينقادُ للقنوط؛ فلا يرجو ثوابَ اللّه ولا يخطُرُ بباله أنَّ اللّه سيردُّها أو مثلها أو خيراً منها عليه، وأنَّه إذا أذاقه رحمةً من بعد ضرَّاء مسَّته، أنه يفرح ويَبْطَرُ ويظنُّ أنه سيدوم له ذٰلك الخير ويقول: ﴿ذَهَبَ السيئاتُ عنِّي إنَّه لفرحٌ فخورٌ﴾؛ أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخورٌ بنعم اللّه على عباد اللّه، وذٰلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبُّر على الخلق واحتقارهم وازدرائهم، وأيُّ عيبٍ أشدُّ من هٰذا؟!

﴿١١﴾ وهٰذه طبيعة الإنسان من حيث هو؛ إلا مَنْ وفَّقه اللّه وأخرجه من هٰذا الخُلُق الذميم إلى ضدِّه، وهم الذين صبَّروا أنفسهم عند الضراءِ فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبَّات. ﴿أولٰئك لهم مغفرة﴾؛ لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وأجر كبير﴾؛ وهو الفوز بجناتِ النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ

(١) في (ب): «أشدَّ الكذب».

جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: ﴿فلعلَّك تاركٌ بعضَ ما يوحى إليك وضائقٌ به صدرُك أن يقولوا لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ﴾؛ أي: لا ينبغي هٰذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثِّر فيك ويصدُّك عما أنت عليه، فتترك بعضَ ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنُّتهم بقولهم: ﴿لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ﴾: فإنَّ هٰذا القولَ ناشىء من تعنُّتٍ وظلم وعنادٍ وضلالٍ وجهلٍ بمواقع الحجج والأدلَّة؛ فامضِ على أمرك، ولا تصدَّك هٰذه الأقوالُ الركيكةُ التي لا تـصـدُرُ إلا من سفيهٍ، ولا يضيق لذٰلك صدرك؛ فهل أوردوا عليك حجَّة لا تستطيع حلَّها؟! أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثِّر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذٰلك؟! أم عليك حسابُهم ومُطَالَبٌ بهدايتهم جبراً؟! ﴿إنما أنت نذيرٌ واللّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ﴾: فهو الوكيل عليهم، يحفظُ أعمالهم، ويجازيهم بها أتمَّ الجزاء.

﴿١٣﴾ ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ أي: افترى محمدٌ هٰذا القرآن، فأجابهم بقوله: ﴿قلْ﴾: لهم: ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا مَنِ استَطَعْتُم من دون اللّه إن كنتُم صادقين﴾؛ أي: إنه قد افتراه؛ فإنَّه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتُم الأعداء حقًّا الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات!

﴿١٤﴾ ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾: على شيءٍ من ذٰلكم، ﴿فاعلموا أنَّما أنزِلَ بعلم الله﴾: من عند الله[1]؛ لقيام الدليل والمقتضي وانتفاء المعارِض. ﴿وأن لا إله إلا هو﴾؛ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو؛ أي: هو [وحده] المستحقُّ للألوهيَّة والعبادة. ﴿فهل أنتم مسلمونَ﴾؛ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هٰذه الآيات إرشادٌ إلى أنه لا ينبغي للدَّاعي إلى اللّه أن يصدَّه اعتراضُ المعترضين ولا قدحُ القادحين، خصوصاً إذا كان القدح لا مستندَ له ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدرُه، بل يطمئنُّ بذٰلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على

(١) في (ب): «فاعلموا أنما أنزل بعلم الله» وقد شطب الشيخ من (ب) قوله: «من عند الله».

شأنه، **وأنه لا يجب** إجابة اقتراحات المقترحين للأدلَّة التي يختارونها، بل يكفي إقامةُ الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.

وفيها: أن هٰذا القرآن معجزٌ بنفسه، لا يقدر أحدٌ من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سورٍ مثله، بل ولا بسورة من مثله؛ لأنَّ الأعداء البلغاء الفصحاء تحدَّاهم اللّٰه بذٰلك، فلم يعارضوه؛ لعلمهم أنَّهم لا قدرة فيهم على ذٰلك.

وفيها: أن مما يُطْلَبُ فيه العِلْمُ ولا يكفي غلبةَ الظنِّ، علمُ القرآن وعلمُ التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنَّما أنزل بعلم اللّٰه وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى: **﴿من كان يريد الحياة الدُّنيا وزينتَها﴾**؛ أي: كلُّ إرادته مقصورةٌ على الحياة الدُّنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيَهُ وعملَهُ في هٰذه الأشياء، ولم يجعلْ لدار القرار من إرادته شيئاً؛ فهٰذا لا يكون إلا كافراً؛ لأنَّه لو كان مؤمناً؛ لكان ما معه من الإيمان يمنعُه أن تكون جميع إرادتِهِ للدار الدُّنيا، بل نفس إيمانه وما تيسَّر له من الأعمال أثرٌ من آثار إرادتِهِ الدارَ الآخرة، ولكنْ، هٰذا الشقيُّ الذي كأنه خُلِقَ للدنيا وحدها، **﴿نوفِّ إليهم أعمالهم فيها﴾**؛ أي: نعطيهم ما قُسِمَ لهم في أمِّ الكتاب من ثواب الدُّنيا. **﴿وهم فيها لا يُبْخَسون﴾**؛ أي: لا يُنْقَصون شيئاً مما قُدِّرَ لهم، ولكنْ هٰذا منتهى نعيمهم.

﴿١٦﴾ **﴿أولٰئك الذين ليس لهم في الآخرة إلَّا النارُ﴾**: خالدين فيها أبداً، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. **﴿وحَبِطَ ما صنعوا فيها﴾**؛ أي: في الدنيا؛ أي: بطل، واضمحلَّ ما عملوه مما يكيدون به الحقَّ وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٧﴾ يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين

بدينه. وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحدٌ مثلهم، فقال: ﴿أفمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه﴾: بالوحي الذي أنزل[1] الله فيه المسائل المهمَّة ودلائلها الظاهرة، فتيقَّن تلك البيِّنة، ﴿ويتلوه﴾؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهانٌ آخرُ، ﴿شاهدٌ منه﴾: وهو شاهدُ الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقةَ ما أوحاه الله وشَرَعَهُ وعَلِمَ بعقله حُسْنَهُ فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانِهِ ﴿و﴾ ثَمَّ شاهدٌ ثالثٌ؛ وهو ﴿كتابُ موسى﴾: التوراة التي جعلها الله ﴿إماماً﴾ للناس ﴿ورحمةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحقِّ؛ أي: أفمنْ كان بهذا الوصف، قد تواردتْ عليه شواهدُ الإيمان وقامتْ لديه أدلَّة اليقين؛ كمن هو في الظُّلمات والجهالات ليس بخارج منها؟ لا يستوون عند الله ولا عند عباد الله. ﴿أولئك﴾؛ أي: الذين وفِّقوا لقيام الأدلَّة عندهم، يؤمنون بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

﴿ومن يكفُرْ به﴾؛ أي: القرآن، ﴿من الأحزاب﴾؛ أي: سائر طوائف أهل الأرض المتحزِّبة على ردِّ الحق، ﴿فالنار موعده﴾: لا بدَّ من وروده إليها، ﴿فلا تكُ في مِريةٍ [منه]﴾؛ أي: في أدنى شكٍّ. ﴿إنَّه الحقُّ من ربِّك ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾: إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبغياً، وإلَّا؛ فمن كان قصدُه حسناً وفَهْمُه مستقيماً؛ فلا بدَّ أن يؤمنَ به؛ لأنَّه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كلِّ وجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أظلمُ ممَّن افترى على الله كذباً﴾: ويدخل في هذا كلُّ من كذب على الله بنسبة الشريك له، أو وَصَفَه بما لا يَليق بجلاله، أو

---

(١) في (ب): «أنزله».

الإخبار عنه بما لم يقلْ، أو ادعاء النبوَّة، أو غير ذٰلك من الكذب على اللّه؛ فهٰؤلاء أعظم الناس ظلماً. ﴿أولٰئك يُعْرَضونَ على ربِّهم﴾: ليجازِيَهم بظلمهم؛ فعندما يحكُم عليهم بالعقاب الشديد؛ ﴿يقولُ الأشهادُ﴾؛ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هٰؤلاء الذين كَذَبوا على ربِّهم ألا لعنة اللّه على الظالمين﴾؛ أي: لعنة لا تنقطع؛ لأنَّ ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

﴿١٩﴾ ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الذين يصدُّون عن سبيل اللّه﴾: فصدُّوا بأنفسهم عن سبيل اللّه، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدُّوا غيرَهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿ويبغونَها﴾؛ أي: سبيل اللّه ﴿عوجاً﴾؛ أي: يجتهدون في ميلها وتشيينها وتهجينها؛ لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسِّنون الباطل؛ ويقبِّحون الحقَّ؛ قبَّحهم اللّه. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿أولٰئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾؛ أي: ليسوا فائتين اللّه؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه، ﴿وما كان لهم مِن دونِ اللّه من أولياء﴾: فيدفعون عنهم المكروهَ أو يحصِّلون لهم ما ينفعهم، بل تقطَّعت بهم الأسباب. ﴿يضاعفُ لهم العذابُ﴾؛ أي: يغلَّظ ويزداد؛ لأنَّهم ضلوا بأنفسهم وأضلُّوا غيرهم. ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾؛ أي: من بغضهم للحقِّ ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آياتِ اللّه سماعاً ينتفعون به؛ ﴿فما لهم عن التَّذْكِرَةِ معرضينَ. كأنَّهم حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ. فرَّتْ من قَسْوَرة﴾، ﴿وما كانوا يبصِرون﴾؛ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكُّر فيما ينفعهم، وإنما هم كالصمِّ البكم الذين لا يعقلون.

﴿٢١﴾ ﴿أولٰئك الذين خسروا أنفسهم﴾: حيث فوَّتوها أعظم الثواب واستحقُّوا أشدَّ العذاب، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾؛ أي: اضمحلَّ دينُهم الذي يدعون إليه ويحسِّنونه، ولم تغنِ عنهم آلهتُهم التي يعبدون من دون اللّه لمَّا جاء أمرُ ربِّك.

﴿٢٢﴾ ﴿لا جرم﴾؛ أي: حقًّا وصدقاً، ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾: حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشدَّه؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقَّة من العذاب، فنستجير باللّه من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء؛ ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند اللّه من الثواب، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا

خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا﴾: بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿وعملوا الصالحات﴾: المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وأخْبَتوا إلى ربِّهم﴾؛ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرُّع إليه. ﴿أولئك﴾: الذين جمعوا تلك الصفات، ﴿أصحابُ الجنة هم فيها خالدون﴾: لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سَبَقوا إليه.

﴿٢٤﴾ ﴿مَثَلُ الفريقين﴾؛ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء، ﴿كالأعمى والأصمِّ﴾: هؤلاء الأشقياء. ﴿والبصير والسميع﴾: مَثَل السعداء. ﴿هل يستويان مثلاً﴾؟ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفَرْق ما لا يأتي عليه الوصف. ﴿أفلا تَذَكَّرون﴾: الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضرُّكم فتتركونها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ[1] ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ
وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ
مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي
وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن
مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا
كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً﴾: أول المرسلين ﴿إلى قومه﴾: يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك، فقال: ﴿إني لكم نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: بينتُ لكم ما أنذرتكم به بياناً زال به الإشكال.

﴿٢٦﴾ ﴿أن لا تعبُدوا إلَّا الله﴾؛ أي: أخلصوا العبادة للّه وحده، واتركوا كلَّ ما يُعبد من دون اللّه. ﴿إني أخافُ عليكم عذابَ يوم أليم﴾: إنْ لم تقوموا بتوحيد اللّه وتطيعوني.

﴿٢٧﴾ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومِهِ﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء رادِّين لدعوة نوح عليه السلام كما جرَتِ العادة لأمثالهم أنَّهم أول مَن ردَّ دعوة المرسلين

﴿ما نراك إلا بشراً مثلَنا﴾: وهٰذا مانعٌ بزعمهم عن اتِّباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصوابُ الذي لا ينبغي غيره؛ لأنَّ البشر يتمكَّن البشرُ أن يتلقَّوا عنه ويراجعوه في كلِّ أمرٍ؛ بخلاف الملائكة. ﴿وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذِلُنا﴾؛ أي: ما نرى اتَّبعك منَّا إلا الأراذلُ والسَّفَلة ـ بزعمهم ـ وهم في الحقيقة الأشرافُ وأهل العقول، الذين انقادوا للحقِّ، ولم يكونوا كالأراذل الذين يُقال لهم: الملأ، الذين اتَّبعوا كل شيطان مَريدٍ، واتَّخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقرَّبون إليها ويسجدون لها؛ فهل ترى أرذل من هٰؤلاء وأخس؟! وقولهم: ﴿باديَ الرأي﴾؛ أي: إنما اتَّبعوك من غير تفكُّر ورويَّة، بل بمجرَّد ما دعوتهم اتَّبعوك؛ يعنون بذٰلك أنهم ليسوا على بصيرةٍ من أمرهم، ولم يعلموا أنَّ الحقَّ المبينَ تدعو إليه بداهةُ العقول، وبمجرَّد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحقَّقونه، لا كالأمور الخفيَّة التي تحتاج إلى تأمُّل وفكر طويل. ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾؛ أي: لستم أفضل منا فننقادُ لكم، ﴿بل نظنُّكم كاذبين﴾: وكذبوا في قولهم هٰذا؛ فإنَّهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيِّدة لنوح ما يوجِبُ لهم الجزم التامَّ على صدقه.

﴿٢٨﴾ ولهٰذا ﴿قال﴾ لهم نوحٌ مجاوباً: ﴿يا قوم أرأيتُم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي﴾؛ أي: على يقين وجزم؛ يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، وتضمحِلُّ في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًّا؛ فإذا قال: إني على بيِّنة من ربِّي؛ فحسبُك بهٰذا القول شهادةً له وتصديقاً. ﴿وآتاني رحمةً من عنده﴾؛ أي: أوحى إليَّ وأرسلني ومنَّ عليَّ بالهداية، ﴿فعُمِّيَتْ عليكم﴾؛ أي: خفيت عليكم وبها تثاقلتم، ﴿أنُلْزِمُكموها﴾؛ أي: أنُكرِهكم على ما تحقَّقناه، وشككتم أنتم فيه. وأنتم كارهونَ حتَّى حرصتُم على ردِّ ما جئتُ به، ليس ذٰلك ضارًّنا، وليس بقادح مِن يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صادًّا لنا عمَّا كنَّا عليه، وإنَّما غايته أن يكون صادًّا لكم أنتم وموجباً لعدم انقيادكم للحقِّ الذي تزعمون أنَّه باطل؛ فإذا وصلت الحال إلى هٰذه الغاية؛ فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرتُم عنه، ولهٰذا قال: ﴿أنُلْزِمُكموها وأنتم لها كارهون﴾؟!

﴿٢٩﴾ ﴿ويا قوم لا أسألُكم عليه﴾؛ أي: على دعوتي إياكم ﴿مالاً﴾: فتستثقلون المغرم، ﴿إنْ أجرِيَ إلَّا على الله﴾: وكأنهم طلبوا منه طردَ المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وما أنا بطاردِ الذين آمنوا﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يَليق بي

ذلك، بل أتلقَّاهم بالرُّحب والإكرام والإعزاز والإعظام، ﴿إنَّهم ملاقو ربِّهم﴾: فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم. ﴿ولكنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾: حيث تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عنِّي، وحيث رددتُم الحقَّ لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحقِّ بقولكم: إني بشرٌ مثلكم، وإنَّه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿٣٠﴾ ﴿ويا قومِ مَن ينصُرني من الله إن طَرَدْتُهم﴾؛ أي: مَن يمنعني من عذابِهِ؛ فإنَّ طردهم موجب للعذاب والنَّكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع. ﴿أفلا تذكَّرونَ﴾: ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبَّرون الأمور؟!

﴿٣١﴾ ﴿ولا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيبَ ولا أقولُ إني مَلَكٌ﴾؛ أي: غايتي أني رسولُ الله إليكم؛ أبشِّركم وأنذركم، وما عدا ذٰلك؛ فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبِّرها أنا وأعطي مَنْ أشاء وأحْرِمُ مَن أشاء. ﴿ولا أعلمُ الغيبَ﴾: فأخبركم بسرائِرِكم وبواطنكم، ﴿ولا أقولُ إني مَلَكٌ﴾: والمعنى أني لا أدَّعي رتبةً فوق رتبتي، ولا منزلةً سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظنِّي، فلا ﴿أقول للذين تَزْدَري أعيُنكم﴾؛ أي: الضعفاء[1] المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا؛ ﴿لن يؤتيهم الله خيراً اللهُ أعلم بما في أنفسِهم﴾: فإن كانوا صادقينَ في إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذٰلك؛ فحسابهم على الله. ﴿إني إذاً﴾؛ أي: إن قلتُ لكم شيئاً ممَّا تقدَّم، ﴿لمن الظَّالمين﴾: وهٰذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومِهِ أن ينبذَ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وتقنيع لقومه بالطُّرق المقنعة للمنصف.

﴿٣٢﴾ فلما رأوه لا ينكفُّ عما كان عليه من دعوتهم ولم يدرِكوا منه مطلوبَهم؛ ﴿قالوا يا نوحُ قد جادَلْتنا فأكثرتَ جِدالنا فأتِنا بما تَعِدُنا﴾ [من العذابِ] ﴿إنْ كنتَ من الصادقين﴾: فما أجهلهم وأضلَّهم! حيثُ قالوا هٰذه المقالة لنبيِّهم الناصح؛ فهلَّا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوحُ! قد نصحتَنا وأشفقتَ علينا ودعوتَنا إلى أمرٍ لم يتبيَّن لنا فنريدُ منك أن تبيِّنه لنا لننقادَ لك، وإلَّا فأنت مشكورٌ في نصحك؛ لكان هٰذا الجواب المنصف للذي قد دُعِيَ إلى أمرٍ خفي عليه، ولٰكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرِّئون، ولم يردُّوا ما قاله بأدنى شبهةٍ فضلاً عن أن يردُّوه بحجَّة،

---

(١) في (ب): «الضعفاء».

ولهٰذا عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب وتعجيز اللّه.

﴿٣٣﴾ ولهٰذا أجابهم نوحٌ عليه السلام بقوله: ﴿إنَّما يأتيكم به اللّه إن شاءَ﴾؛ أي: إن اقتضتْ مشيئته وحكمتُه أن يُنْزِلَه بكم؛ فعل ذٰلك، ﴿وما أنتم بمعجِزين﴾: للّه، وأنا ليس بيدي من الأمر شيءٌ.

﴿٣٤﴾ ﴿ولا ينفعكم نُصحي إنْ أردتُ أنْ أنصَحَ لكم إن كان اللّه يريدُ أن يُغْوِيَكم﴾؛ أي: إن إرادة اللّه غالبةٌ؛ فإنَّه إذا أراد أن يغوِيَكم لردِّكمُ الحقَّ؛ فلو حرصتُ غاية مجهودي ونصحتُ لكم أتمَّ النُّصح ـ وهو قد فعل عليه السلام ـ؛ فليس ذٰلك بنافع لكم شيئاً. ﴿هو ربُّكم﴾: يفعلُ بكم ما يشاء ويحكُم فيكم بما يُريدُ، ﴿وإليه تُرْجَعون﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أم يقولونَ افتراه﴾: هٰذا الضمير محتملٌ أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصتِهِ مع قومه، وأنَّ المعنى: إنَّ قومه يقولون: افترى على اللّه كذباً، وكَذَبَ بالوحي الذي يزعم أنَّه من اللّه، وأنَّ اللّه أمره أن يقول: ﴿قلْ إنِ افتريته فعليَّ إجرامي وأنا بريء مما تُجْرِمون﴾؛ أي: كلٌّ عليه وزره، ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾. ويُحتمل أن يكون عائداً إلى النبيِّ محمدٍ ﷺ، وتكون هٰذه الآية معترضةً في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنَّها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع اللّه في قصِّها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالَّة على صدقه ورسالته؛ ذكر تكذيب قومه له، مع البيان التامِّ، فقال: ﴿أم يقولونَ افتراه﴾؛ أي: هٰذا القرآن اختلقه محمدٌ من تلقاء نفسه؛ أي: فهٰذا من أعجب الأقوال وأبطلها؛ فإنَّهم يعلمون أنَّه لم يقرأ ولم يكتبْ ولم يرحلْ عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهٰذا الكتاب الذي تحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله؛ فإذا زعموا مع هٰذا أنَّه افتراه؛ عُلِمَ أنَّهم معاندون، ولم يبقَ فائدةٌ في حجاجهم، بل اللائق في هٰذه الحال الإعراضُ عنهم، ولهٰذا قال: ﴿قلْ إنِ افتريتُهُ فعليَّ إجرامي﴾؛ أي: ذنبي وكذبي. ﴿وأنا بريءٌ مما تجرِمون﴾؛ أي: فلم تستلِجُّون في تكذيبي؟

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿وأوحي إلى نوح أنَّه لن يؤمِنَ مِن قومِكَ إلَّا مَنْ قد آمنَ﴾؛ أي: قد قسوا ﴿فلا تبتئِسْ بما كانوا يفعلون﴾؛ أي: فلا تحزنْ ولا تبالِ بهم وبأفعالهم؛ فإنَّ اللّه قد مَقَتَهم وأحقَّ عليهم عذابه الذي لا يردُّ.

﴿٣٧﴾ ﴿واصنع الفُلْكَ بأعيُننا ووَحْينا﴾؛ أي: بحفظنا ومرأىً منَّا وعلى مرضاتنا، ﴿ولا تخاطِبْني في الذين ظلموا﴾؛ أي: لا تراجِعْني في إهلاكهم، ﴿إنَّهم

مُغْرَقون﴾؛ أي: قد حقَّ عليهم القولُ، ونَفَذَ فيهم القدرُ.

﴿٣٨﴾ فامتثلَ أمر ربِّه، وجَعَلَ يصنع الفلك، ﴿وكلما مرَّ عليه ملأ من قومِهِ﴾: ورأوا ما يصنع، ﴿سَخِروا منه قال إن تَسْخَروا منَّا﴾: الآن، ﴿فإنَّا نسخَرُ منكم كما تسخَرونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿فسوفَ تعلمونَ مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ﴾: نحنُ أم أنتم؟ وقد علموا ذٰلك حين حلَّ بهم العقاب.

﴿٤٠﴾ ﴿حتَّى إذا جاء أمرُنا﴾؛ أي: قدرْنا بوقتِ نزول العذاب بهم، ﴿وفار التنُّور﴾؛ أي: أنزل اللّه السماء بالماء المنهمر، وفجَّر الأرض كلَّها عيوناً، حتى التنانير التي هي محلُّ النار في العادة وأبعد ما يكون عن الماء تفجَّرت، فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِرَ، ﴿قُلْنا﴾ لنوح: ﴿احملْ فيها مِن كلٍّ زوجين اثنين﴾؛ أي: من كلِّ صنفٍ من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى؛ لتبقى مادَّة سائر الأجناس، وأما بقيَّة الأصناف الزائدة عن الزوجين؛ فلأنَّ السفينة لا تُطيق حملها، ﴿وأهلَكَ إلَّا مَن سَبَقَ عليه القولُ﴾: ممَّن كان كافراً؛ كابنه الذي غرق. ﴿ومَنْ آمن و﴾ ـ الحال أنه ـ ﴿ما آمَنَ معه إلا قليلٌ﴾.

﴿٤١﴾ ﴿وقال﴾ نوحٌ لمن أمره اللّه أن يحمِلَهم: ﴿ارْكَبوا فيها بسم اللّه مَجْريٰها ومُرْساها﴾؛ أي: تجري على اسم اللّه وترسي[1] [على اسم الله وتجري] بتسخيره وأمره. ﴿إنَّ ربِّي لغفورٌ رحيمٌ﴾: حيث غَفَرَ لنا، ورَحِمنا، ونجَّانا من القوم الظالمين.

﴿٤٢﴾ ثم وصف جريانَها كأنَّا نشاهدها، فقال: ﴿وهي تجري بهم﴾؛ أي: بنوح ومَنْ رَكِبَ معه ﴿في موجٍ كالجبال﴾: واللّه حافِظُها، وحافظُ أهلها، ﴿ونادى نوحٌ ابنَه﴾: لما ركب ليركبَ معه، ﴿وكان﴾ ابنُه ﴿في مَعْزِلٍ﴾: عنهم حين ركبوا؛ أي: مبتعداً، وأراد منه أن يقرب ليركبَ، فقال له: ﴿يا بنيَّ اركب معنا ولا تَكُن مع الكافرين﴾: فيصيبُك ما يصيبهم.

﴿٤٣﴾ فقال ابنُه مكذِّباً لأبيهِ أنَّه لا ينجو إلَّا مَنْ رَكِبَ [معه] السفينة: ﴿سآوي إلى جبلٍ يَعْصِمُني من الماء﴾؛ أي: سأرتقي جبلاً أمتنع به من الماء. فقال نوحٌ: ﴿لا عاصِمَ اليوم من أمرِ الله إلّا مَن رَحِمَ﴾: فلا يعصمُ أحداً جبلٌ ولا غيرُه، ولو

(١) كذا في النسختين.

تسبَّب بغاية ما يمكِنُه من الأسباب؛ لَمَا نجا إن لم يُنْجِهِ اللّه، ﴿**وحال بينَهما الموجُ فكانَ**﴾ الابنُ ﴿**من المغرَقين**﴾.

﴿٤٤﴾ فلمَّا أغرَقَهم اللّه ونجَّى نوحاً ومن معه؛ و﴿**قيل يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ**﴾: الذي خرج منك، والذي نزل إليك، ابلعي الماء الذي على وجهك، ﴿**ويا سماءُ أقلِعي**﴾: فامتَثَلَتا لأمر اللّه، فابتلعتِ الأرضُ ماءها، وأقلعتِ السماء فنضب الماء من الأرض، ﴿**وقُضِيَ الأمرُ**﴾: بهلاك المكذِّبين ونجاة المؤمنين، ﴿**واسْتَوَت**﴾ السفينةُ ﴿**على الجوديِّ**﴾؛ أي: أرست على ذٰلك الجبل المعروف في أرض الموصل، ﴿**وقيلَ بُعداً للقوم الظالمين**﴾؛ أي: أُتبِعوا بهلاكهم لعنةً وبُعداً وسُحْقاً لا يزال معهم.

﴿٤٥﴾ ﴿**ونادى نوحٌ ربَّه فقالَ ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدَكَ الحقُّ**﴾؛ [أي]: وقد قلتَ لي: فاحملْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَكَ، ولـن تُخْلِفَ ما وَعَدْتَني به. لعلَّه عليه الصلاة والسلام ـ حملتْه الشفقةُ وأنَّ اللّه وعده بنجاة أهلِهِ ـ ظنَّ أنَّ الوعد لعمومهم؛ مَن آمن ومَن لم يؤمن؛ فلذٰلك دعا ربَّه بذٰلك الدُّعاء، ومع هٰذا؛ ففوَّض الأمر لحكمة اللّه البالغة.

﴿٤٦﴾ فقال اللّهُ له: ﴿**إنَّه ليس من أهلك**﴾: الذين وعدتُك بإنجائهم، ﴿**إنَّه عملٌ غيرُ صالح**﴾؛ أي: هٰذا الدُّعاء الذي دعيتَ[1] به لنجاة كافر لا يؤمنُ باللّه ولا رسوله، ﴿**فلا تَسْألْنِ ما ليس لك به علمٌ**﴾؛ أي: ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيراً أو غير خير. ﴿**إني أعظُك أن تكونَ من الجاهلين**﴾؛ أي: إني أعظُك وعظاً تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.

﴿٤٧﴾ فحينئذٍ ندمَ نوحٌ عليه السلام ندامةً شديدةً على ما صَدَرَ منه، و﴿**قال ربِّ إنِّي أعوذُ بك أن أسألَكَ ما ليس لي به علمٌ وإلَّا تَغْفِرْ لي وترحَمْني أكن من الخاسرينَ**﴾: فبالمغفرة والرحمة ينجو العبدُ من أن يكون من الخاسرين. ودلَّ هٰذا على أنَّ نوحاً عليه السلام لم يكنْ عندَه علمٌ بأنَّ سؤاله لربِّه في نجاة ابنه محرَّمٌ داخلٌ في قوله: ﴿ولا تخاطِبْني في الذين ظَلَموا إنَّهم مغرقونَ﴾، بل تعارض عندَه الأمران، وظنَّ دخوله في قوله: ﴿وأهلَكَ﴾، وبعد هٰذا[2] تبيَّن له أنَّه داخلٌ في المنهيِّ عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

---

(١) كذا في النسختين. وعُدِّلت في (أ) إلى: «دعوت» بخط مغاير.

(٢) في (ب): «ذلك».

﴿٤٨﴾ ﴿قيل يا نوحُ اهبطْ بسلام منَّا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممَّن معكَ﴾: من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك اللّه في الجميع، حتى ملؤوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿وأممٌ سنمتِّعهم﴾: في الدُّنيا، ﴿ثم يمسُّهم منَّا عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: هٰذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أنَّ مَنْ كَفَرَ بعد ذٰلك؛ أحلَلْنا به العقاب، وإنْ مُتِّعوا قليلاً؛ فسيؤخذون بعد ذٰلك.

﴿٤٩﴾ قال اللّه لنبيِّه محمد ﷺ بعدما قصَّ عليه هٰذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلَّا مَنْ مَنَّ عليه برسالته: ﴿تلك من أنباء الغيبِ نوحيها إليكَ ما كنتَ تعلمُها أنت ولا قومُك مِن قَبْلِ هٰذا﴾: فيقولوا: إنَّه كان يعلمها؛ فاحمدِ اللّه واشكُرْه واصبرْ على ما أنت عليه من الدِّين القويم والصِّراط المستقيم والدَّعوة إلى اللّه. ﴿إنَّ العاقبةَ للمتَّقين﴾: الذين يتَّقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبةُ على قومِكَ كما كانت لنوح على قومِهِ.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ(١) قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عادٍ﴾: وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿هوداً﴾: ليتمكَّنوا من الأخذ عنه والعلم

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

بصدقه، فقال لهم: ﴿اعبُدوا اللّه ما لكم من إلهٍ غيرُه إنْ أنتم إلّا مفترون﴾؛ أي: أمرهم بعبادة اللّه وحده، ونهاهم عمّا هم عليه من عبادة غير اللّه، وأخبرهم أنّهم قد افترَوا على اللّه الكذب في عبادتهم لغيره وتجويزهم لذٰلك، ووَضَّحَ لهم وجوب عبادة اللّه وفساد عبادة ما سواه.

﴿٥١﴾ ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال: ﴿يا قوم لا أسألُكم عليه أجراً﴾؛ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هٰذا يريدُ أن يأخذَ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلِّمكم مجاناً. ﴿إن أجرِيَ إلّا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾: ما أدعوكم إليه وأنّه موجبٌ لقبوله، منتفٍ المانع عن ردِّه.

﴿٥٢﴾ ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾: عما مضى منكم، ﴿ثم توبوا إليه﴾: فيما تستقبلونه بالتوبة النَّصوح والإنابة إلى اللّه تعالى؛ فإنَّكم إذا فعلتم ذٰلك؛ ﴿يُرْسِلِ السماءَ عليكُم مِدراراً﴾: بكثرة الأمطار التي تَخْصُبُ بها الأرض ويكثر خيرها، ﴿ويَزِدْكم قوةً إلى قوَّتكم﴾: فإنَّهم كانوا من أقوى الناس، ولهٰذا قالوا: ﴿من أشدُّ مِنَّا قوَّةً﴾، فوعدهم أنَّهم إن آمنوا زادهم قوَّةً إلى قوَّتهم، ﴿ولا تتولَّوا﴾: عنه؛ أي: عن ربكم ﴿مجرمين﴾؛ أي: مستكبرين عن عبادته، متجرِّئين على محارمه.

﴿٥٣﴾ فقالوا رادِّين لقوله: ﴿يا هودُ ما جئتَنا ببيِّنةٍ﴾: إن كان قصدُهم بالبينة البينة التي يقترحونها؛ فهٰذه غير لازمة للحقِّ، بل اللازم أن يأتي النبيُّ بآية تدلُّ على صحة ما جاء به، وإن كان قصدُهم أنه لم يأتهم ببيِّنة تشهدُ لما قاله بالصحة؛ فقد كذبوا في ذٰلك؛ فإنَّه ما جاء نبيٌّ لقومه إلَّا وبعث اللّه على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية إلَّا دعوتُه إياهم لإخلاص الدين للّه وحده لا شريك له، والأمر بكلِّ عملٍ صالحٍ وخُلُق جميل، والنهي عن كلِّ خُلُق ذميم من الشرك باللّه والفواحش والظُّلم وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتملٌ عليه هودٌ عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلَّا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أنَّ هٰذه الآية أكبر من مجرَّد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط.

ومن آياته وبيِّناته الدالة على صدقه أنَّه شخصٌ واحدٌ، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخُ في قومه ويناديهم ويعجِزُهم ويقول لهم: إنِّي توكلتُ على اللّه ربِّي وربكم، ﴿إنِّي أُشْهِدُ اللّهَ واشْهَدوا أنِّي بريءٌ مما تشرِكونَ. من دونِهِ فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرونِ﴾: وهم الأعداءُ الذين لهم السَّطوة والغَلَبة، ويريدون إطفاء ما

معه من النور بأيِّ طريق كان، وهو غير مكترث منهم ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيءٍ من السُّوء، إنَّ في ذٰلك لآيات لقوم يعقلون. وقولهم: ﴿وما نحنُ بتارِكي آلهتنا عن قولِكَ﴾؛ أي: لا نترك عبادةَ آلهتنا لمجرَّد قولِكَ الذي ما أقمتَ عليه بيِّنةً بزعمهم. ﴿وما نحنُ لك بمؤمنينَ﴾: وهٰذا تأييس منهم لنبيِّهم هودٍ عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿٥٤﴾ ﴿إن نقولُ﴾: فيك ﴿إلَّا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ﴾؛ أي: أصابتك بخبال وجنون، فصرتَ تَهْذي بما لا يُعْقَلُ؛ فسبحان من طبع على قلوب الظالمين! كيف جعلوا أصدقَ الخلق الذي جاء بأحقِّ الحقِّ بهٰذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أنَّ اللّٰه حكاها عنهم؟!

﴿٥٥﴾ ولهٰذا بيَّن هودٌ عليه الصلاة والسلام أنه واثقٌ غاية الوثوق أنَّه لا يصيبُه منهم ولا من آلهتهم أذىً، فقال: ﴿إنِّي أُشْهِدُ الله واشْهَدوا أنِّي بريءٌ مما تشركون. من دونِهِ فكيدوني جميعاً﴾؛ أي: اطلبوا لي الضَّرر كلُّكم بكلِّ طريق تتمكَّنون بها منِّي، ﴿ثم لا تُنظِرونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني.

﴿٥٦﴾ ﴿إني توكلتُ على اللّٰه﴾؛ أي: اعتمدت في أمري كلِّه على اللّٰه، ﴿ربِّي وربِّكم﴾؛ أي: هو خالق الجميع ومدبِّرنا وإيَّاكم، وهو الذي ربَّانا. ﴿ما من دابَّةٍ إلَّا هو آخذٌ بناصيتها﴾: فلا تتحرَّك ولا تسكُن إلا بإذنِهِ؛ فلو اجتمعتُم جميعاً على الإيقاع بي، واللّٰه لم يسلِّطكم عليَّ؛ لم تقدِروا على ذٰلك؛ فإن سلَّطكم فلحكمةٍ[١] أرادَها. ﴿إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم﴾؛ أي: على عدل وقِسْطٍ وحكمةٍ وحمدٍ في قضائه وقَدَرِهِ و[في] شرعِهِ وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرجُ أفعالُه عن الصراط المستقيم التي يُحْمَد، ويُثنى عليه بها.

﴿٥٧﴾ ﴿فإن تولَّوا﴾: عما دعوتُكم إليه، ﴿فقد أبلغتكُم ما أُرسِلْتُ به إليكم﴾: فلم يبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنكم، ﴿ويستخلِفُ ربِّي قوماً غيركم﴾: يقومون بعبادته ولا يشرِكون به شيئاً، ﴿ولا تضرُّونه شيئاً﴾: فإنَّ ضرركم إنما يعودُ إليكم[٢]؛ فاللّٰه لا تضرُّه معصية العاصين ولا تنفعه طاعةُ الطائعين[٣]، مَنْ عمل صالحاً؛ فلنفسه، ومَن أساء؛ فعليها. ﴿إنَّ ربِّي على كلِّ شيء حفيظٌ﴾.

---

(١) في (ب): «الحكمة».
(٢) في (ب): «عليكم».
(٣) في (ب): «المطيعين».

﴿٥٨﴾ ﴿ولما جاء أمرُنا﴾؛ أي: عذابُنا بإرسال الريح العقيم التي ما تَذَرُ من شيء أتت عليه إلَّا جَعَلَتْهُ كالرَّميم؛ ﴿نجَّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا ونَجَّيناهم من عذاب غليظٍ﴾؛ أي: عظيم شديد أحلَّه الله بعادٍ فأصبحوا لا يُرى إلَّا مساكنُهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وتلك عادٌ﴾: الذين أوقع الله بهم ما أوقعَ بظُلْم منهم لأنهم ﴿جَحَدوا بآيات ربِّهم﴾: ولهذا قالوا لهود: ما جئتَنا ببيِّنةٍ! فتبيَّن بهذا أنهم متيقِّنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا، ﴿وعَصَوا رُسُلَه﴾؛ لأنَّ من عصى رسولاً؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأنَّ دعوتهم واحدة، ﴿واتَّبعوا أمر كلِّ جبارٍ﴾؛ أي: متسلِّط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيدٍ﴾؛ أي: معاند لآيات الله، فعصَوْا كلَّ ناصح ومشفق عليهم، واتَّبعوا كلَّ غاشٍّ لهم يريد إهلاكَهم، لا جَرَمَ أهلكهم الله.

﴿٦٠﴾ ﴿وأتبعوا في هذه الدُّنيا لعنةً﴾: فكل وقتٍ وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذِكْرٌ يذكَرون به وذمٌّ يلحقُهم. ﴿ويوم القيامة﴾: لهم أيضاً لعنةٌ، ﴿ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم﴾؛ أي: جحدوا مَنْ خَلَقَهم ورزَقَهم وربَّاهم. ﴿ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾؛ أي: أبعدهم الله عن كلِّ خير، وقرَّبهم من كلِّ شرٍّ.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا[1] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ
فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ
عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): إلى آخر قصتهم.

﴿٦١﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمودَ﴾: وهم عادٌ الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الحِجْر ووادي القُرى، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿صالحاً﴾: عبد اللّه ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده. فَـ﴿قَالَ يا قوم اعبُدوا اللّه﴾؛ أي: وحِّدوه وأخلصوا له الدين، ﴿ما لكُم من إلٰهٍ غيرُه﴾: لا منَ أهل السماء ولا من أهل الأرض، ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾؛ أي: خلقكم فيها، فقال: ﴿واستعمَرَكم فيها﴾؛ أي: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنِّعم الظاهرة والباطنة، ومكَّنكم في الأرض؛ تَبْنون وتغرسون وتزرعون وتحرثون ما شئتم وتنتفعون بمنافعها وتستغلون مصالحها؛ فكما أنَّه لا شريك له في جميع ذٰلك؛ فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فاستغفروه﴾: مما صَدَرَ منكم من الكفر والشِّرْك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثمَّ توبوا إليه﴾؛ أي: ارجِعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة. ﴿إنَّ ربِّي قريبٌ مجيبٌ﴾؛ أي: قريبٌ ممَّن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائِهِ سؤاله[1] وقَبول عبادتِهِ وإثابته عليها أجلَّ الثواب.

واعلم أنَّ قُرْبَهُ تعالى نوعان: عامٌّ وخاصٌّ: **فالقربُ العامُّ**: قربُه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريدِ﴾.

والقربُ الخاصُّ: قربُه من عابديه وسائليه ومحبِّيه، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فاسجُدْ واقْتَرِبْ﴾، وفي هٰذه الآية، وفي قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدَّاعي﴾، وهٰذا النوع قربٌ يقتضي إلطافه تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهٰذا يقرن باسمه القريب اسمه المجيب.

﴿٦٢﴾ فلما أمرهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام ورغَّبهم في الإخلاص للّه وحده؛ ردُّوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة. و﴿قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجُوًّا قبلَ هٰذا﴾؛ أي: قد كنَّا نرجوك ونؤمِّل فيك العقل والنفع، وهٰذا شهادةٌ منهم لنبيِّهم صالح: أنَّه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنَّه من خيار قومه، ولكنَّه لمَّا جاءهم بهٰذا الأمر الذي لا يوافِقُ أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هٰذه المقالة التي مضمونُها أنَّك قد كنتَ كاملاً، والآن أخلفتَ ظنَّنا فيك، وصرتَ بحالةٍ لا يُرجى منك خيرٌ، وذنبه ما قالوه عنه، [وهو قولهم]: ﴿أتنهانا أن نعبُدَ ما يعبُدُ آباؤنا﴾: وبزعمهم أنَّ هٰذا من أعظم القدح في صالح؛ كيف قَدَحَ في عقولهم وعقول آبائهم

(١) في (ب): «سؤله».

الضالِّين؟! وكيف ينهاهم عن عبادة مَنْ لا ينفع ولا يضرُّ ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدِّين للّه ربِّهم الذي لم تزلْ نِعَمُهُ عليهم تَتْرى وإحسانُهُ عليهم دائماً ينزِلُ، الذي ما بهم من نعمةٍ إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو؟! ﴿وإنَّنا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه مُرِيبٍ﴾؛ أي: ما زلنا شاكِّين فيما دعوتَنا إليه شكًّا مؤثِّراً في قلوبنا الريب.

﴿٦٣﴾ وبزعمهم أنَّهم لو علموا صحَّة ما دعاهم إليه؛ لاتَّبعوه، وهم كَذَبَةٌ في ذلك، ولهٰذا بيَّن كذِبَهم في قوله: ﴿قال يا قوم أرأيتُم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي﴾؛ أي: برهان ويقين منِّي، ﴿وآتاني منه رحمةً﴾؛ أي: مَنَّ عليَّ برسالته ووحيه؛ أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه. ﴿فمن ينصُرُني من اللّه إن عصيتُهُ فما تزيدونَني غير تخسيرٍ﴾؛ أي: غير خسار وتَباب وضرر.

﴿٦٤﴾ ﴿ويا قوم هٰذه ناقةُ اللّه لكم آيةً﴾: لها شِرْبٌ من البئر يوماً، ثم يشربون كلُّهم مِنْ ضَرْعها، ولهم شِرْبُ يوم معلوم، ﴿فذَروها تأكُلْ في أرض اللّه﴾؛ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيءٌ، ﴿ولا تمسُّوها بسوءٍ﴾؛ أي: بعقرٍ؛ ﴿فيأخُذَكم عذابٌ قريبٌ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿فعقروها فقال﴾: لهم صالحٌ: ﴿تمتَّعوا في دارِكُم ثلاثة أيَّام ذٰلك وعدٌ غير مكذوبٍ﴾: بل لا بدَّ من وقوعه.

﴿٦٦﴾ ﴿فلمَّا جاء أمرُنا﴾: بوقوع العذاب، ﴿نجَّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا ومِنْ خِزْيِ يومِئِذٍ﴾؛ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة. ﴿إنَّ ربَّك هو القويُّ العزيز﴾: ومن قوَّته وعزَّته أن أهلك الأممَ الطاغيةَ ونجَّى الرسلَ وأتباعهم.

﴿٦٧﴾ وأخذت ﴿الذين ظلموا الصيحة﴾: فقطعت قلوبهم؛ ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾؛ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿٦٨﴾ ﴿كأن لم يَغْنَوْا فيها﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتَّعوا في ديارهم ولا أنسوا فيها[1] ولا تنعَّموا بها يوماً من الدَّهر، قد فارقهم النعيمُ، وتناولهم العذابُ السرمديُّ، الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل. ﴿ألا إنَّ ثمودَ كَفَروا ربَّهم﴾؛ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآيةُ المبصرةُ. ﴿ألا بُعداً لِثمودَ﴾: فما

(١) في (ب): «بها».

أشقاهم وأذلَّهم! نستجير بالله من عذاب الدُّنيا وخزيها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ(١) قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ
حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ
﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟
أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ
يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ
حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ
أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٦٩﴾ أي: ﴿ولقد جاءت رُسُلُنا﴾: من الملائكة الكرام رسولَنا ﴿إبراهيمَ﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾؛ أي: بالبشارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمَرهم أنْ يمرُّوا على إبراهيم فيبشِّروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه، ﴿قالوا سلاماً قال سلامٌ﴾؛ أي: سلَّموا عليه وردَّ عليهم السلام. ففي هٰذا مشروعية السلام، وأنَّه لم يزل من ملَّة إبراهيم عليه السلام، وأنَّ السلام قبل الكلام، وأنَّه ينبغي أن يكون الردُّ أبلغَ من الابتداء؛ لأنَّ سلامهم بالجملة الفعليَّة الدالَّة على التجدُّد، وردَّه بالجملة الاسمية الدالَّة على الثُّبوت والاستمرار، وبينهما فرقٌ كبيرٌ؛ كما هو معلومٌ

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

في علم العربية. ﴿فما لَبِثَ﴾: إبراهيمُ لما دخلوا عليه، ﴿أن جاء بعجل حنيذٍ﴾؛ أي: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عجلاً مشويًا على الرَّضْفِ سميناً، فقرَّبه إليهم فقال: ألا تأكلونَ.

﴿٧٠﴾ ﴿فلمَّا رأى أيديَهم لا تصلُ إليه﴾؛ أي: إلى تلك الضيافة، ﴿نَكِرَهُم وأوجس منهم خِيفةً﴾: وظنَّ أنهم أتوه بشرٍّ ومَكْروه، وذٰلك قبلَ أن يعرِفَ أمرَهم، فقالوا: ﴿لا تخفْ إنَّا أرْسِلْنا إلى قوم لوطٍ﴾؛ أي: إنَّا رسلُ اللّه، أرسلنا اللّه إلى إهلاك قوم لوطٍ.

﴿٧١﴾ وامرأة إبراهيم ﴿قائمةٌ﴾: تخدُمُ أضيافَه، ﴿فضَحِكَتْ﴾: حين سمعتْ بحالهم وما أرسلوا به تعجُّباً، ﴿فبشَّرْناها بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاق يعقوبَ﴾.

﴿٧٢﴾ فتعجَّبت من ذٰلك و ﴿قالتْ يا وَيْلتا أألِدُ وأنا عجوزٌ وهٰذا بعلي شيخاً﴾: فهٰذان مانعان من وجود الولد. ﴿إنَّ هٰذا لشيءٌ عجيبٌ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿قالوا أتَعْجَبين من أمرِ اللّه﴾: فإنَّ أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامَّة في كل شيءٍ؛ فلا يُستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبِّره ويمضيه لأهل هٰذا البيت المبارك. ﴿رحمةُ اللّه وبركاتُهُ﴾ عليكم أهل البيت؛ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي على العبد. ﴿عليكم أهلَ البيت إنَّه حميدٌ مجيدٌ﴾؛ أي: حميد الصفات؛ لأنَّ صفاته صفات كمال، حميدُ الأفعال؛ لأنَّ أفعاله إحسانٌ وجودٌ وبرٌّ وحكمةٌ وعدلٌ وقِسْطٌ. ﴿مجيدٌ﴾: والمجد هو عظمة الصفات وسَعَتُها؛ فله صفات الكمال، وله من كلِّ صفةِ كمالٍ أكملُها وأتمُّها وأعمُّها.

﴿٧٤﴾ ﴿فلما ذَهَبَ عن إبراهيم الرَّوْعُ﴾: الذي أصابه من خيفة أضيافه، ﴿وجاءته البُشرى﴾: بالولد؛ التفتَ حينئذٍ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوطٍ، وقال لهم: ﴿إنَّ فيها لوطاً. قالوا نحنُ أعلمُ بمَن فيها لَنُنَجِّيَنَّه وأهْلَه إلَّا امرأتَهُ﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿إنَّ إبراهيم لحليمٌ﴾؛ أي: ذو خُلُق [حسنٍ] وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين، ﴿أوَّاهٌ﴾؛ أي: متضرِّع إلى اللّه في جميع الأوقات، ﴿منيبٌ﴾؛ أي: رجَّاع إلى اللّه بمعرفته ومحبَّته والإقبال عليه والإعراض عمَّن سِواه؛ فلذٰلك كان يجادِلُ عن مَنْ حَتَّم اللّه بهلاكهم.

﴿٧٦﴾ فقيل له: ﴿يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هٰذا﴾: الجدال. ﴿إنَّه قد جاءَ أمرُ ربِّك﴾: بهلاكهم، ﴿وإنَّهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ﴾: فلا فائدة في جدالك.

﴿٧٧﴾ ﴿ولما جاءت رسُلُنا﴾؛ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم، لما أتوا ﴿لوطاً سيء بهم﴾؛ أي: شقَّ عليه مجيئهم، ﴿وضاق بهم ذَرْعاً وقال هٰذا يومٌ عصيبٌ﴾؛ أي: شديدٌ حرجٌ؛ لأنَّه علم أنَّ [قومَه] لا يتركونَهم؛ لأنَّهم في صور شباب جردٍ مردٍ في غاية الكمال والجمال.

﴿٧٨﴾ ولهٰذا وَقَعَ ما خطر بباله، فجاءه ﴿قومُهُ يُهْرَعونَ إليه﴾؛ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهٰذا قال: ﴿ومِن قَبْلُ كانوا يعملون السَّيئاتِ﴾؛ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحدٌ من العالمين. ﴿قال يا قوم هٰؤلاءِ بناتي هُنَّ أطهرُ لكم﴾: من أضيافي ـ وهٰذا كما عَرَضَ سليمانُ ﷺ على المرأتين أن يَشُقَّ الولد المختصم فيه لاستخراج الحقِّ ـ ولعلمه أنَّ بناته ممتنعٌ منالهنَّ ولا حقَّ لهم فيهنَّ، والمقصود الأعظم دفعُ هٰذه الفاحشة الكبرى. ﴿فاتَّقوا اللّٰه ولا تُخزونِ في ضيفي﴾؛ أي: إما أن تُراعوا تقوى اللّٰه، وإما أن تراعوني في ضَيْفي ولا تخزوني عندهم. ﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾: فينهاكم ويزجُرُكم. وهٰذا دليلٌ على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿٧٩﴾ فـ﴿قالُوا﴾ له: ﴿لقد علمتَ ما لنا في بناتِكَ من حقٍّ وإنَّك لتعلمُ ما نريدُ﴾؛ أي: لا نريد إلَّا الرجال، ولا لنا رغبةٌ في النساء.

﴿٨٠﴾ فاشتدَّ قلقُ لوطٍ عليه الصلاة والسلام و ﴿قال لو أنَّ لي بكم قوَّةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ﴾؛ كقبيلة مانعةٍ؛ لمنعتكم. وهٰذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلَّا؛ فإنَّه يأوي إلى أقوى الأركان، وهو اللّٰه الذي لا يقوم لقوته أحدٌ.

﴿٨١﴾ ولهٰذا لـمَّا بَلَغَ الأمرُ منتهاه واشتدَّ الكربُ؛ ﴿قالوا﴾ له: ﴿إنَّا رسلُ ربِّك﴾؛ أي: أخبروه بحالهم ليطمئنَّ قلبُه، ﴿لن يَصِلوا إليكَ﴾: بسوءٍ. ثم قال جبريل بجناحِهِ، فطمس أعينَهم، فانطلقوا يتوعَّدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكةُ لوطاً أن يَسْرِيَ بأهله ﴿بِقِطْعٍ من الليل﴾؛ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكَّنوا من البعدِ عن قريتهم، ﴿ولا يلتفتْ منكُم أحدٌ﴾؛ أي: بادروا بالخروج، وليكن همُّكم النجاءَ، ولا تلتفِتوا إلى ما وراءكم، ﴿إلَّا امرأتَكَ إنَّه مصيبُها﴾: من العذاب ﴿ما أصابهم﴾؛ لأنَّها تشارِكُ قومها في الإثم، فتدلُّهم على أضياف لوطٍ إذا نزل به أضيافٌ. ﴿إنَّ موعِدَهم الصُّبحُ﴾: فكأنَّ لوطاً استعجلَ ذٰلك، فقيل له: ﴿أليس الصبحُ بقريبٍ﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿فلما جاء أمرُنا﴾: بنزولِ العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنا﴾: ديارهم

﴿عالِيَها سافِلَها﴾؛ أي: قلبناها عليهم، ﴿وأمطَرْنا عليها حجارةً من سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة، ﴿منضودٍ﴾؛ أي: متتابعة تتبع من شذَّ عن القرية.

﴿٨٣﴾ ﴿مسوَّمةً عند ربِّك﴾؛ أي: معلمة عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وما هي من الظالمينَ﴾: الذين يشابهون لفعل قوم لوطٍ، ﴿ببعيد﴾: فليحذرِ العبادُ أن يفعلوا كفعلهم؛ لئلَّا يصيبَهم ما أصابهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا[1] قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا
تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾
وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ
رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟
إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا
بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿٨٤﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدينَ﴾: القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مَدْيَنَ، في أدنى فلسطين، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿شُعيباً﴾: لأنَّهم يعرفونه ويتمكَّنون[2]

---

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

(٢) في (ب): «وليتمكنوا».

من الأخذ عنه، فقال لهم: ﴿يا قوم اعبُدوا اللّه ما لكم من إلهٍ غيرُه﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ فإنَّهم كانوا يشركون [به]، وكانوا مع شركهم يَبْخَسون المكيال والميزان، ولهٰذا نهاهم عن ذٰلك، فقال: ﴿ولا تَنقُصوا المِكْيال والميزانَ﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. ﴿إني أراكُم بخيرٍ﴾؛ أي: بنعمة كثيرةٍ وصحَّة وكثرة أموال وبنين؛ فاشكُروا اللّه على ما أعطاكم، ولا تكفروا بنعمة[1] اللّه فيزيلها عنكم. ﴿وإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يوم محيطٍ﴾؛ أي: عذاباً يحيط بكم ولا يُبقي منكم باقيةً.

﴿٨٥﴾ ﴿ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي ترضَوْن أن تعطوه، ﴿ولا تَبخَسوا الناس أشياءهم﴾؛ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان، ﴿ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسِدينَ﴾: فإنَّ الاستمرار على المعاصي يفسِدُ الأديان والعقائد والدِّين والدُّنيا ويهلِكُ الحرثَ والنسل.

﴿٨٦﴾ ﴿بقيةُ اللّه خيرٌ لكم﴾؛ أي: يكفيكم ما أبقى اللّه لكم من الخير وما هو لكم؛ فلا تطمَعوا في أمرٍ لكم عنه غُنيةٌ وهو ضارٌّ لكم جدًّا، ﴿إن كنتُم مؤمنينَ﴾: فاعملوا بمقتضى الإيمان. ﴿وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾؛ أي: لست بحافظٍ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنَّما الذي يحفظها اللّه تعالى، وأمَّا أنا فأبلِّغكم ما أرسلتُ به.

﴿٨٧﴾ ﴿قالوا يا شُعيبُ أصلاتُكَ تأمُرُك أن نَترُكَ ما يعبدُ آباؤنا﴾؛ أي: قالوا ذٰلك على وجه التهكُّم بنبيِّهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم: أنَّه لا موجب لنهيك لنا إلَّا أنك تصلي للّه وتتعبَّد له؛ أفإنْ كنتَ كذٰلك؛ أفيوجِبُ لنا أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا لقولٍ ليس عليه دليلٌ إلَّا أنه موافقٌ لك؟! فكيف نتَّبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذٰلك لا يوجِبُ قولُك لنا أن نفعلَ في أموالنا ما قلتَ لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنَّها أموالُنا، فليس لك فيها تصرُّف، ولهذا قالوا في تهكُّمهم: ﴿إنَّك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾؛ أي: أئنك أنت الذي الحلم والوَقارُ لك خُلُقٌ والرُّشْدُ لك سجيَّةٌ؛ فلا يصدُرُ عنك إلا رشدٌ، ولا تأمرُ إلَّا برشدٍ، ولا تنهى إلَّا عن غيٍّ؟! أي: ليس الأمر كذٰلك، وقصدُهم أنَّه موصوفٌ بعكس هٰذين الوصفين: بالسَّفه والغواية؛ أي: أن المعنى: كيف تكونُ أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء

---

(١) في (ب): «نعمة».

الغاوين؟! وهٰذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكُّم وأنَّ الأمر بعكسه ليس كما ظنُّوه، بل الأمر كما قالوه: إنَّ صلاته تأمُره أن ينهاهم عمَّا كان يعبدُ آباؤهم الضالُّون وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون؛ فإنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأيُّ فحشاء ومنكرٍ أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقتها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد؟!

﴿٨٨﴾ ﴿قال﴾ لهم شعيبٌ: ﴿يا قوم أرأيتُم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي﴾؛ أي: يقين وطمأنينة في صحَّة ما جئت به، ﴿ورَزَقَني منه رزقاً حسناً﴾؛ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، ﴿و﴾ أنا لا ﴿أريدُ أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه﴾: فلستُ أريدُ أنْ أنهاكم عن البَخْس في المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تتطرق إليَّ التُّهمة في ذٰلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدرٍ لتركِهِ. ﴿إن أريدُ إلَّا الإصلاح ما استطعتُ﴾؛ أي: ليس لي من المقاصد إلَّا أن تَصْلُحَ أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصَّة لي وحدي شيءٌ بحسب استطاعتي. ولما كان هٰذا فيه نوعُ تزكيةٍ للنفس؛ دَفَعَ هٰذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلَّا بالله﴾؛ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير و[(١)] الانفكاك عن الشرِّ إلَّا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوَّتي. ﴿عليه توكلتُ﴾؛ أي: اعتمدتُ في أموري ووثقتُ في كفايته. ﴿وإليه أنيبُ﴾: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هٰذا التقرُّب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهٰذين الأمرين تستقيمُ أحوال العبد، وهما الاستعانةُ بربِّه والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فاعبُدْه وتوكَّلْ عليه﴾. وقال: ﴿إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعينُ﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿ويا قوم لا يجرمنَّكم شِقاقي﴾؛ أي: لا تحملنَّكم مخالفتي ومشاقَّتي، ﴿أن يصيبَكُم﴾: من العقوبات، ﴿مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد﴾: لا في الدار ولا في الزمان.

﴿٩٠﴾ ﴿واستغفِروا ربَّكم﴾: عما اقترفتم من الذُّنوب، ﴿ثمَّ توبوا إليه﴾: فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النَّصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته. ﴿إنَّ ربِّي رحيمٌ ودودٌ﴾: لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له ويتقبَّل توبته ويحبُّه.

ومعنى الودود من أسمائه تعالى: أنَّه يحبُّ عباده المؤمنين ويحبُّونه؛ فهو فعولٌ بمعنى فاعل ومعنى[(٢)] مفعول.

---

(١) في (ب): «أو».

(٢) في (ب): «وبمعنى».

﴿٩١﴾ ﴿قالوا يا شعيبُ ما نَفقَهُ كثيراً مما تقولُ﴾؛ أي: تضجَّروا من نصائحِهِ ومواعظِهِ لهم، فقالوا: ما نفقهُ كثيراً مما تقولُ، وذٰلك لبُغْضِهم لما يقولُ ونفرتهم عنه. ﴿وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً﴾؛ أي: في نفسك، لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين. ﴿ولولا رهطُكَ﴾؛ أي: جماعتك وقبيلتك، ﴿لَرَجَمْناك وما أنت علينا بعزيز﴾؛ أي: ليس لك قَدْرٌ في صدورنا ولا احترامٌ في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

﴿٩٢﴾ ﴿قال﴾[1] لهم مترقِّقاً لهم: ﴿يا قوم أرَهطي أعزُّ عليكم من اللّه﴾؛ أي: كيف تراعونني لأجل رَهْطي ولا تراعونني للّه، فصار رَهْطي أعزَّ عليكم من اللّه. ﴿واتَّخذتُموه وراءكم ظِهْرِيًّا﴾؛ أي: نبذتُم أمر اللّه وراء ظهوركم، ولم تُبالوا به، ولا خِفْتُم منه. ﴿إنَّ ربِّي بما تعملون محيطٌ﴾: لا يخفى عليه من أعمالكم مثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء، فسيُجازيكم على ما عملتم أتمَّ الجزاء.

﴿٩٣﴾ ﴿و﴾ لما أعيَوْه وعجز عنهم؛ قال: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتِكُم﴾؛ أي: على حالتكم ودينكم. ﴿إنِّي عامل سوف[2] تعلمونَ من يأتيه عذابٌ يُخزيه﴾: ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ، أنا أم أنتم، وقد علموا ذٰلك حين وقع عليهم العذابُ، ﴿وارتقِبوا﴾: ما يحلُّ بي. ﴿إنِّي معكم رقيبٌ﴾ ما يَحِلُّ بكم.

﴿٩٤﴾ ﴿ولما جاء أمرُنا﴾: بإهلاك قوم شعيب، ﴿نجَّينا شُعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا وأخذتِ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارِهم جاثمينَ﴾: لا تَسْمَعُ لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركةً.

﴿٩٥﴾ ﴿كأن لم يَغْنَوْا فيها﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم ولا تنَعَّموا فيها حين أتاهم العذاب. ﴿ألا بعداً لمدين﴾: إذْ أهلكها اللّهُ وأخزاها، ﴿كما بَعِدَتْ ثمودُ﴾؛ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السَّحق والبُعد والهلاك.

وشعيبٌ عليه السلام كان يسمى خطيبَ الأنبياء؛ لحسن مراجعته لقومه. وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير:

منها: أن الكفار كما يعاقَبون ويخاطَبون بأصل الإسلام؛ فكذٰلك بشرائعه وفروعه؛ لأنَّ شعيباً دعا قومه إلى التوحيد وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذٰلك.

(١) في (ب): «فقال».

(٢) في (ب): «فسوف».

ومنها: أن نقصَ المكاييل والموازين من كبائر الذُّنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذٰلك، وأنَّ ذٰلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبةً للوعيد؛ فسرِقَتُهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمن بَخَسَ أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقِبَ بنقيض ذٰلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إني أراكم بخيرٍ﴾؛ أي: فلا تتسبَّبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يَقْنَعَ بما آتاه الله ويَقْنَعَ بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأنَّ ذٰلك خيرٌ له؛ لقوله: ﴿بقيَّةُ الله خيرٌ لكم﴾؛ ففي ذٰلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرَّمة من المَحْق وضدِّ البركة.

ومنها: أن ذٰلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنَّه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدلَّ على أنَّه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقصٌ أو معدومٌ.

ومنها: أنَّ الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدِّمين، وأنَّها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرِّر عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزانٌ للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكمُلُ أحوال العبدِ، وبعدم إقامتها تختلُّ أحواله الدينيَّة.

ومنها: أنَّ المال الذي يرزقُهُ الله الإنسان، وإنْ كان الله قد خوَّله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانةٌ عنده، عليه أن يقيم حقَّ الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التي حرَّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم؛ أنَّ أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواءٌ وافقَ حكمَ الله أو خالفه.

ومنها: أن من تَكْمِلَةِ دعوة الداعي وتمامها: أن يكونَ أول مبادرٍ لما يأمر غيره به وأول منتهٍ عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وما أريدُ أنْ أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، ولقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولونَ ما لا تفعلونَ [كَبُرَ مقتًا عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون]﴾.

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنَّتهم وملَّتهم إرادةُ الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يُقْدَرُ عليه منها،

وبدفع المفاسدِ وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تَصْلُح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة.

ومنها: أنَّ مَن قام بما يقدِرُ عليه من الإصلاح؛ لم يكن مَلوماً ولا مَذموماً في عدمِ فعله ما لا يقدِرُ عليه؛ فعلى العبدِ أن يُقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدِرُ عليه.

ومنها: أنَّ العبد ينبغي له أن لا يتَّكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربِّه، متوكِّلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيءٌ من التوفيق؛ فلينسبه لِموليهِ ومُسْديه ولا يُعْجَب بنفسه؛ لقوله: ﴿وما توفيقي إلَّا باللّه عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أنْ تُذْكَرَ القَصصُ التي فيها إيقاعُ العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذِكْرُ ما أكرم اللّه به أهل التقوى عند الترغيب والحثِّ على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يُسمح له عن ذنبه ويُعفى عنه؛ فإنَّ اللّه تعالى يحبُّه ويودُّه، ولا عبرة بقول من يقول: إنَّ التائبَ إذا تاب؛ فحسبُه أن يُغْفَرَ له ويعودَ عليه العفو، وأما عَوْدُ الودِّ والحبِّ؛ فإنه لا يعودُ؛ فإنَّ اللّه قال: ﴿واستغفِروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه إنَّ ربي رحيمٌ ودودٌ﴾.

ومنها: أنَّ اللّه يدفع عن المؤمنين بأسبابٍ كثيرةٍ قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دَفَعَ عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع اللّه عن شعيبٍ رجمَ قومِهِ بسبب رهطِهِ.

وأنَّ هٰذه الروابط التي يحصُلُ بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربَّما تعيَّن ذٰلك؛ لأنَّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هٰذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهوريَّةً يتمكَّن فيها الأفرادُ والشعوبُ من حقوقهم الدينيَّة والدنيويَّة؛ لكان أولى من استسلامهم لدولةٍ تقضي على حقوقهم الدينيَّة والدنيويَّة، وتحرص على إبادتها وجعلهم عَمَلَةً وخدماً لهم. **نعم**؛ إنْ أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعيِّن، ولٰكن لعدم إمكان هٰذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفعٌ ووقايةٌ للدين والدنيا مقدمة. واللّه أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ[1] ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿٩٦﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾: ابن عمران ﴿بآياتنا﴾: الدالَّة على صدق ما جاء به؛ كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها اللّه على يدي موسى عليه السلام، ﴿وسلطانٍ مُبينٍ﴾؛ أي: حجة ظاهرة بيِّنة ظهرت ظهور الشمس.

﴿٩٧﴾ ﴿إلى فرعونَ وملئِهِ﴾؛ أي: أشراف قومه؛ لأنَّهم المتبوعون، وغيرهم تَبَع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إيَّاها كما تقدم بسطُها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿اتَّبعوا أمرَ فرعون وما أمرُ فرعونَ برشيدٍ﴾: بل هو ضالٌّ غاوٍ لا يأمر إلا بما هو ضررٌ محضٌ.

﴿٩٨﴾ لا جرم لـمَّا اتَّبعه قومُه؛ أرداهم وأهلكهم؛ ﴿يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة فأوردَهم النارَ وبئس الوِرْدُ الموروُدُ﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وأُتبِعوا في هٰذه﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لعنةً ويوم القيامةِ﴾؛ أي: يلعنهم اللّه وملائكته والناسُ أجمعون في الدنيا والآخرة. ﴿بئس الرِّفْدُ المرفودُ﴾؛ أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادَفَ عليهم من عذاب اللّه ولعنة الدُّنيا والآخرة.

﴿١٠٠﴾ ولما ذكر قصص هٰؤلاء الأمم مع رسلهم؛ قال اللّه تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباءِ القُرى نقصُّه عليك﴾: لتنذر به ويكونَ آية على رسالتك وموعظةً وذكرى للمؤمنين. ﴿منها قائمٌ﴾: لم يتلفْ بل بقي من آثار ديارهم ما يدلُّ عليهم. ﴿و﴾ منها ﴿حصيدٌ﴾: قد تهدَّمت مساكنهم، واضمحلَّت منازلهم فلم يبقَ لها أثرٌ.

﴿١٠١﴾ ﴿وما ظَلَمْناهم﴾: بأخذهم بأنواع العقوبات، ﴿ولٰكن ظَلَموا أنفسَهم﴾: بالشرك والكفر والعناد. ﴿فما أغنتْ عنهم آلهتُهم التي يَدْعون من دون اللّه من شيءٍ

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

لمَّا جاء أمرُ ربِّك﴾: وهٰكذا كلُّ من التجأ إلى غير الله؛ لم ينفعْه ذٰلك عند نزول الشدائد. ﴿وما زادوهم غير تَتْبيبٍ﴾؛ أي: خسار ودمار بالضدِّ مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ أي: يقصِمُهم بالعذاب، ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يَدْعون من دون الله من شيءٍ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

﴿١٠٣﴾ ﴿إن في ذٰلك﴾: المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لآيةً لِمَنْ خاف عذابَ الآخرة﴾؛ أي: لعبرةً ودليلاً على أنَّ أهل الظُّلم والإجرام لهم العقوبة الدنيويَّة والعقوبة الأخرويَّة. ثم انتقل من هٰذا إلى وصفِ الآخرة، فقال: ﴿ذٰلك يومٌ مجموع له الناس﴾؛ أي: جُمِعوا لأجل ذٰلك اليوم للمجازاة وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حقَّ المعرفة. ﴿وذٰلك يومٌ مشهودٌ﴾؛ أي: يشهده الله وملائكتُه وجميعُ المخلوقين.

﴿١٠٤﴾ ﴿وما نؤخِّره﴾؛ أي: إتيان يوم القيامة، ﴿إلَّا لأجل مَعْدودٍ﴾: إذا انقضى أجل الدُّنيا، وما قدر الله فيها من الخلق؛ فحينئذٍ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويُجري عليهم أحكامه الجزائيَّة، كما أجرى عليهم في الدُّنيا أحكامه الشرعيَّة.

﴿١٠٥﴾ ﴿يومَ يأتِ﴾: ذٰلك اليومُ ويجتمعُ الخلق، ﴿لا تَكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِهِ﴾: حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنِهِ. ﴿فمنهم﴾؛ أي: الخلق ﴿شقيٌّ وسعيدٌ﴾: فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذَّبوا رسله وعَصَوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتَّقون.

﴿١٠٦﴾ وأما جزاؤهم: ﴿فأما الذين شَقُوا﴾؛ أي: حصلت لهم الشقاوة

(١) الآيات في (ب) لم تذكر.

والخزي والفضيحة ﴿ففي النار﴾: منغمسون في عذابها مشتدٌّ عليهم عقابها. ﴿لهم فيها﴾: من شدَّة ما هم فيه ﴿زفيرٌ وشهيقٌ﴾: وهو أشنع الأصوات وأقبحُها.

﴿١٠٧﴾ ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في النار التي هٰذا عذابُها، ﴿ما دامتِ السمٰواتُ والأرضُ إلَّا ما شاء ربُّك﴾؛ أي: خالدين فيها أبداً إلَّا المدَّة التي شاء اللّه أن لا يكونوا فيها، وذٰلك قبل دخولها؛ كما قاله جمهور المفسرين؛ فالاستثناء على هٰذا راجعٌ إلى ما قبل دخولها؛ فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. ﴿إنَّ ربَّك فعَّالٌ لما يريد﴾: فكل ما أراد فعله واقتضته حكمتُه؛ فَعَلَه تبارك وتعالى، لا يردُّه أحدٌ عن مُراده.

﴿١٠٨﴾ ﴿وأما الذين سُعِدوا﴾؛ أي: حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز، ﴿ففي الجنَّة خالدين فيها ما دامت السمٰواتُ والأرض إلَّا ما شاء ربُّك﴾: ثمَّ أكَّد ذٰلك بقوله: ﴿عطاءً غير مجذودٍ﴾؛ أي: ما أعطاهم اللّه من النعيم المقيم واللَّذة العالية؛ فإنَّه دائمٌ مستمرٌّ غير منقطع بوقت من الأوقات. نسأل اللّه الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمدٍ ﷺ: ﴿فلا تكُ في مِرْيَةٍ ممَّا يعبدُ هٰؤلاء﴾: المشركون؛ أي: لا تشكَّ في حالهم، وأنَّ ما هم عليه باطلٌ؛ فليس لهم دليلٌ شرعيٌّ ولا عقليٌّ، وإنما دليلُهم وشبهتهم أنهم يعبُدون كما يعبُدُ آباؤهم من قبلُ، ومن المعلوم أن هٰذا ليس بشبهةٍ فضلاً عن أن يكون دليلاً؛ لأنَّ أقوال ما عدا الأنبياء يحتجُّ لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هٰؤلاء الضالين، الذين كثر خطؤهم وفساد أقوالهم في أصول الدين؛ فإنَّ أقوالهم وإن اتَّفقوا عليها؛ فإنَّها خطأ وضلال ﴿وإنَّا لَموفُّوهم نصيبَهم غير منقوص﴾؛ أي: لا بدَّ أن ينالهم نصيبُهم من الدُّنيا مما كتب لهم، وإن كَثُر ذٰلك النصيب أو راق في عينك؛ فإنَّه لا يدلُّ على صلاح حالهم؛ فإنَّ اللّه يعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلَّا من يُحِبُّ. والحاصلُ أنَّه لا يُغترُّ باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خوَّلهم اللّه، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ

لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾
فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه آتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه والاجتماع، ولكن مع هذا؛ فإنَّ المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضرَّ بعقائدهم وبجامعتهم الدينيَّة. ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربِّك﴾: بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب، ﴿لَقُضِيَ بينَهم﴾: بإحلال العقوبة بالظَّالم، ولكنَّه تعالى اقتضت حكمته أن أخَّر القضاء بينَهم إلى يوم القيامة، وبَقوا في شكٍّ مريبٍ. وإذا كانت هذه حالُهم مع كتابهم؛ فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغربٍ من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شكٍّ منه مريب.

﴿١١١﴾ ﴿وإن كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُم ربُّك أعمالَهم﴾؛ أي: لا بدَّ أن يقضي الله بينهم[1] يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلاً بما يستحقُّه. ﴿إنه بما يعملون﴾: من خير وشرٍّ، ﴿خبيرٌ﴾: فلا يَخفى عليه شيء من أعمالهم؛ دقيقِها وجليلِها.

﴿١١٢﴾ ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبتِ اختلافَهم وافتراقَهم؛ أمر نبيَّه محمداً ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمِروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقِدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يَزيغوا عن ذلك يمنةً ولا يسرةً، ويدوموا على ذلك، ولا يَطْغَوْا بأنْ يتجاوزوا ما حدَّه الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿إنَّه بما تعملون بصيرٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها. ففيه ترغيبٌ لسلوك الاستقامة وترهيبٌ من ضدِّها.

﴿١١٣﴾ ولهذا حذَّرهم عن الميل إلى من تعدَّى الاستقامة، فقال: ﴿ولا تَرْكَنوا﴾؛ [أي: لا تميلوا] ﴿إلى الذين ظلموا﴾: فإنَّكم إذا ملتم إليهم وافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظُّلم؛ ﴿فَتَمَسَّكُم النارُ﴾: إن فعلتُم ذلك. ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾: يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصِّلون لكم شيئاً من ثواب الله. ﴿ثم لا تُنصرون﴾؛ أي: لا يدفع عنكم العذابُ إذا مسَّكم.

ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كلِّ ظالم، والمرادُ بالرُّكون: الميل والانضمام

---

(١) في (ب): «لا بد أن الله يقضي بينهم».

إليه بظلمه وموافقته على ذٰلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هٰذا الوعيد في الركون إلى الظلمة؛ فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفي النهار﴾؛ أي: أوله وآخره، ويدخل في هٰذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر، ﴿وزُلَفاً من الليل﴾: ويدخل في ذٰلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذٰلك قيام الليل؛ فإنَّها مما تُزْلِفُ العبد وتقرِّبه إلى الله تعالى. ﴿إنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيِّئاتِ﴾؛ أي: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوُّعات من أكبر الحسنات، وهي مع أنها حسنات تقرِّب إلى الله وتوجِبُ الثواب؛ فإنَّها تُذْهِبُ السيِّئات وتمحوها، والمرادُ بذٰلك الصغائر؛ كما قيَّدتها الأحاديث الصحيحة عن النبيِّ ﷺ؛ مثل قوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[1]، بل كما قيَّدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن تَجْتَنِبوا كبائِرَ ما تُنهَوْنَ عنه نكفِّر عنكم سيئاتِكم وندخِلْكم مُدْخلاً كريماً﴾. ﴿ذٰلك﴾: لعل الإشارة لكلِّ ما تقدَّم؛ من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعدِّيه، وعدم الرُّكون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات؛ الجميع ﴿ذكرى للذاكرينَ﴾: يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمِرَة للخيرات الدَّافعة للشُّرور والسيئات.

﴿١١٥﴾ ولٰكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهٰذا قال: ﴿واصبِرْ﴾؛ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذٰلك واستمرَّ ولا تضجر. ﴿فإنَّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المحسنينَ﴾: بل يتقبَّل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويَجْزيهم أجْرَهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي هٰذا ترغيبٌ عظيمٌ للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلَّما وَنَتْ وَفتَرَتْ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٦﴾ لمَّا ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذِّبة للرسل، وأنَّ أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلْهية، وذٰلك كلُّه يقضي على الأديان بالذَّهاب والاضمحلال؛ ذكر أنَّه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد والرَّدى، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان، ولٰكنَّهم قليلون جدًّا[1]، وغاية الأمر أنَّهم نجوا باتِّباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجَّة الله أجراها على أيديهم؛ ليهلك من هَلَكَ عن بيِّنة ويحيا من حَيَّ عن بيِّنة ﴿و﴾ لٰكن ﴿اتَّبع الذين ظلموا ما أُترِفوا فيه﴾؛ أي: اتَّبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلاً. ﴿وكانوا مجرمين﴾؛ أي: ظالمين باتِّباعهم ما أترِفوا فيه، فلذٰلك حقَّ عليهم العقابُ واستأصلهم العذابُ.

وفي هٰذا حثٌّ لهٰذه الأمة أن يكون فيهم بقايا؛ مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصِّرونهم من العمى، وهٰذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين؛ إذا جعل عمله خالصاً لربِّ العالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٧﴾ أي: وما كان الله ليهلك القرى بظُلم منه لهم والحالُ أنَّهم ﴿مصلحون﴾؛ أي: مقيمون على الصلاح مستمرون عليه؛ فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجَّة الله.

ويُحتمل أنَّ المعنى: وما كان ربُّك لِيُهْلِكَ القرى بظلمهم السابق إذا رجعوا وأصلحوا عملهم؛ فإنَّ الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدَّم من ظلمهم.

---

(١) جاء في هامش (ب): «والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا؛ وهو أنّ هذا بمعنى النفي أي: أنه لم يكن في القرون السالفة أولو بقية... إلخ. إلاّ قليلاً ممّن أنجينا منهم؛ أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا، لكنْ ما ذكرنا في الأصل...» وما بعد كلمة الأصل غير واضح. ولعل الأقرب: «لكن ما ذكرنا في الأصل أنسب». والله أعلم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿١١٨﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمَّة واحدة على الدين الإسلامي؛ فإنَّ مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ، ولٰكنَّه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متَّبعين السبل الموصلة إلى النار، كلٌّ يرى الحقَّ فيما قاله والضَّلال في قول غيره.

﴿١١٩﴾ ﴿إلَّا مَن رَحِمَ ربُّك﴾: فهداهم إلى العلم بالحقِّ والعمل به والاتفاق عليه؛ فهٰؤلاء سبقت لهم سابقةُ السعادة وتداركتْهم العنايةُ الربَّانية والتوفيق الإلٰهيُّ، وأما من عداهم؛ فهم مخذولون مَوْكولون إلى أنفسهم. وقوله: ﴿ولذٰلك خلقهم﴾؛ أي: اقتضت حكمته أنَّه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذي هدى اللّه والفريق الذي حقت عليهم الضلالة؛ ليتبيَّن للعباد عدلُه وحكمتُه، وليُظْهِر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشرِّ، وليقوم سوقُ الجهاد والعبادات التي لا تتمُّ ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، ﴿و﴾ لأنَّه ﴿تمَّتْ كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّة والناس أجمعينَ﴾: فلا بدَّ أن ييسِّر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ لما ذكر في هٰذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكَرَ؛ ذَكَرَ الحكمة في ذِكْر ذٰلك، فقال: ﴿وكلًّا نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسل ما نثبِّتُ به فؤادك﴾؛ أي: قلبك؛ ليطمئن، ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ فإنَّ النفوس تأنس بالاقتداء وتنشَط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيَّد الحقُّ بذِكْر شواهده وكثرة من قام به. ﴿وجاءك في هٰذه﴾: السورة ﴿الحقُّ﴾: اليقينُ فلا شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه؛ فالعلم بذٰلك من العلم بالحقِّ الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنينَ﴾؛ أي: يتَّعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكَّرون الأمور المحبوبة للّه فيفعلونها.

﴿١٢١﴾ وأما من ليس من أهل الإيمان؛ فلا تنفعُهم المواعظُ وأنواع التذكير، ولهٰذا قال: ﴿وقلْ للذينَ لا يؤمنون﴾: بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿اعْمَلوا على مكانتِكُم﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها، ﴿إنَّا عاملونَ﴾: على ما كنَّا عليه.

﴿١٢٢﴾ ﴿وانتظروا﴾: ما يحِلُّ بنا، ﴿إنا منتظرون﴾: ما يحلُّ بكم.

﴿١٢٣﴾ وقد فصَل اللّه بين الفريقين، وأرى عبادَه نَصْرَه لعبادِه المؤمنين، وقَمْعَه لأعداء اللّه المكذبين. ﴿وللّه غيبُ السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبيَّة، ﴿وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه﴾: من الأعمال والعمال، فيميز الخبيثُ من الطيِّب، ﴿فاعبُدْه وتوكَّلْ عليه﴾؛ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر اللّه به مما تقدر عليه. ﴿وتوكَّلْ على اللّه﴾: في ذٰلك.

﴿وما ربُّك بغافل عما تعملون﴾: من الخير والشرِّ، بل قد أحاط علمُه بذٰلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود.

والحمد لله رب العالمين. وصلى اللّه على محمد وسلم. وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.

❃ ❃ ❃